الرقم الدولي: ISSN: 2321-7928

مجلة الهند

(مجلة فصلية محكّمة)

المجلد: 2 العدد: 4

(عدد أكتوبر – ديسمبر 2013م)

مدير التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي

نائب مدير التحرير

مهدي حسن القاسمي

تصدر عن

أكادمية كيشالايا، بنغال الغربية، الهند

مجلة الهند

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:
عنوان البريد:
أكادمية كيشالايا،
بيراتشامبا سقط بادوريا،
كاؤكيبارا،
صندوق البريد: ديفالايا،
مطقة البوليس: ديغانغا،
المحافظة: 24 برغانا الشمالية،
رقم البريد: 743424، بنغال الغربية

أو

Dr. Aurang Zeb Azmi,
Asstt. Professor,
Dept. of Arabic, Persian, Urdu & Islamic Studies,
Bhasha-Bhavana,
Visva-Bharati,
Santiniketan,
W.B. Pin: 731235
India

موقع المجلة على شبكة الإنترنت: majallatulhind.blogspot.com
عنوان البريد الإلكتروني:
(1) aurang11zeb@yahoo.co.in
(2) azebazmi@gmail.com

الاشتراك السنوي:
للأساتذة ومكتبات الكليات والجامعات 1000 روبية هندية أو ما يعادلها
للطلبة 500 روبية هندية أو ما يعادلها

نشرها وطبعها السيد مهدي حسن نائب مدير مجلة الهند، أكادمية كيشالايا، بيراتشامبا سقط بادوريا، كاؤكيبارا، صندوق البريد: ديفالايا، مطقة البوليس: ديغانغا، المحافظة: 24 برغانا الشمالية، رقم البريد: 743424، بنغال الغربية

في هذا العدد

		الصفحة
الافتتاحية	د. أورنك زيب الأعظمي	5
مقالات وبحوث:		
تفسير تدبر القرآن (8)	الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	7
الإمام الفراهي ونظريته عن الإنجيل	أ. د. ألطاف أحمد الأعظمي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	23
منهج الحوار وقبول الآخر في هدي الرسول محمد ﷺ	د. سند أحمد عبد الفتاح وصاحب عالم الأعظمي الندوي	46
على هامش السيرة، دراسة تحليلية نقدية	د. أورنك زيب الأعظمي	94
ورود الإسلام في مالابار، دراسة تاريخية	أ. احتشام أحمد الندوي ترجمة: رضوان أحمد نور محمد	114
المسلمون في الهند في عصر الاحتلال الإنجليزي	د. أشرف أحمد محمد عماشة	129
الإبل	الشيخ بدر جمال الإصلاحي	147
قراءة في كتب:		
مشاهدات في الهند	د. أورنك زيب الأعظمي	174

مسقط في الأربعينيات من القرن العشرين	د. محمد فضل الله شريف	213

قصص وحكايات:

قصة انتحاري	شيخ سمية تحريم ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	224

قصائد ومنظومات:

الشاه عبد العزيز الدهلوي	رسالة منظومة	228
الشيخ أحمد الشرواني	رسالة منظومة	228
أبو سلمى محمد جمال الدين	رسالة منظومة	229
الشيخ محمد عباس	رسالة منظومة	229
المساهمون في هذا العدد		231

الافتتاحية

انتهى المجلد الثاني لهذه المجلة فنحمد الله على هذا ونشكر كلّ من ساهم في نشرها وتحسين مستواها عن أي طريق وبأي أسلوب راجين من الكتّاب والقرّاء أن يواصلوا مساهمتهم فيها محسّنين مستواها ومحرّضين غيرهم على قراءتها وتوجيه النقد البنّاء إليها، ولهم منا جزيل الشكر والامتنان.

نستهلّ هذا العدد، كالمعتاد، بترجمة تفسير تدبر القرآن. وهذه هي الحلقة الثامنة وهي تحتوي على ترجمة تفسير سورة البقرة من الآية الثالثة والثمانين حتى آيتها السادسة والتسعين. والمقالة الثانية تقدّم وجهة نظر الإمام عبد الحميد الفراهي عن الإنجيل ومدى الاستشهاد به. كتبها الكاتب الإسلامي الكبير ألطاف أحمد الأعظمي، والمقالة الثالثة عن منهج الحوار وقبول الآخر في هدي الرسول محمد ﷺ لكاتبين أحدهما مصريّ والآخر هندي. هذه مقالة جيّدة للغاية، والمقالة الرابعة دراسة تحليلية نقدية لـ"على هامش السيرة" للدكتور طه حسين. والدكتور طه شخصية لا تحتاج إلى أيّ تعريف كما أن روايته هذه أيضاً ذائعة السمعة فقد قال عنها محمد حسين هيكل: "لقد تحوّل طه حسين الذي لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل إلى رجل كلف بالأساطير يعمل على إحيائها، وإن هذا ليثير كثيراً من التساؤل، إذ أن طه، وقد فشل في تثبيت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمي، لجأ إلى الأساطير ينمّقها ويقدّمها للشعب إظهاراً لما فيها من أوهام في ظاهرها تفتن الناس" (http:www.islaprophet.ws/ref/162) وقال محمد بن سرور: "إن "على هامش السيرة" هو في حقيقته على هامش الشعر الجاهلي، ومتمّم له، فهو على طريق تطاوله على الإسلام ولكن مع المراوغة والمداهنة" (المصدر نفسه).

والمقالة الخامسة للبروفيسور احتشام أحمد الندوي عن تاريخ ورود الإسلام في مالابار ونشره في مختلف مناطقها. هذه مقالة مفيدة وتلقي الضوء على الموضوع بإيجاز مقنع، والمقالة السادسة حول موضوع "المسلمون في الهند في عصر الاحتلال الإنجليزي" لأخي الفاضل أشرف عماشة من مصر، والمقالة السابعة لأستاذي الجليل بدر جمال الإصلاحي حول "الإبل". قد جاء الأستاذ المكرّم بما هو يجدر بأن يستفيد به الباحثون في هذا الشأن.

وقد أتبعنا هذه المقالات والبحوث باستعراض لرحلة أمينة السعيد وكتاب الدكتور صالح البلوشي في مسقط، وترجمة قصة أردوية، ورسائل منظومة حول مختلف المواضيع. وقد نزعنا من فهرست المقالات مقالات قيّمة للغاية سننشرها في العدد القادم إن شاء الله تعالى.

د. أورنك زيب الأعظمي

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة البقرة)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي

38- تفسير الآيات (83-96)

فالشيئ الذي عرقل سبيلَ اليهود إلى الإيمان بالقرآن والنبي الخاتم كان استكبارهم بأنهم أهل الكتاب وينتمون إلى عشيرة شريفة خصّها الله تعالى بالسيادة الدينية والدنيوية وبمحبته لها في الدنيا والآخرة فمثل هذه الجماعة أولاً لا تحتاج إلى أن تؤمن بكتاب أو شريعة وثانياً هل يمكن أن ينزل الله كتابَه على جماعة غيرها؟

فأولاً تناول القرآن استكبارَهم هذا أنما يتخيلون أنهم أهل الكتاب خيالٌ باطلٌ وذلك فإنهم لم يوفوا بما أخذ معهم من ميثاق عبادة الله الواحد، والإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين، وإقامة الصلوة وإيتاء الزكوة، ومعونة إخوانهم كما كذّبوا أو قتلوا الأنبياء الذين بعثوا لإحياء ذلك الميثاق أو تذكيره ففي هذه الحالة هل تزن دعواهم بأنهم أهل الكتاب مثقالَ بعوضة؟

ثم قال إن هذا القرآن نزل طبقَ النبوءات التي توجد في صحفهم والتي كانوا ينتظرون بها ولكنهم الآن حينما جاءهم هذا الشيئ الموعود والمنتظر به وعرفوه خيرَ معرفة بدأوا يخالفونه لمجرد أنه نزل على فرد من أفراد بني إسماعيل ولم لم ينزل على أحد منهم؟

ثم كشف المزيد عن دعواهم للإيمان فقال إنهم لا يعبأون بقدر ما يفتخرون بإيمانهم فقد عبدوا العجل في حياة موسى عليه السلام ولم يزالوا يكذّبون الأنبياء الذين تبعوه حتى قاموا بقتل البعض منهم.

ثم أشهد على زعمهم بأنهم سيظفرون في الآخرة ويتمتعون بما هو موفّر فيها بما أنهم أولياء الله وأحباؤه، بأنهم لو صدقوا ما قالوا وادّعوا فلم يحرصون على الحياة هذا القدرَ من شدة الحرص فليحرصوا على الموت بدلاً من الحياة.

وهذا الحديث التام الذي يرتبط بعضه بالبعض قد جاء ليوضّح لبني إسرائيل أنما اختاروه لمخالفة القرآن من جوانب ليس أيّ منها مبنياً على أساس متين فهذه كلها تبنى على الكبرياء القومية والعناد والحسد ولا غير.

وقد خوطب بنو إسرائيل مباشرةً في بعض أجزاء هذا الحديث بينما أعرض عنهم في البعض الآخر وأما البعض الثالث فقد قيل لهم على لسان النبي الكريم ﷺ، وقد اختيرت هذه الأساليب المختلفة للخطاب طبقاً لوجوه البلاغة فمن يتلُها متدبراً فيها فسيفهم محاسن التفات هذا الخطاب فهذه أشياء تتعلق بالذوق فلا يستطيع القلم بأن يضبطها في الصفحات.

وفي ضوء هذه المفاهيم لنتلُ الآيات التالية فقد قال تعالى:

"وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة ثم تولّيتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون. وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم أ فتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب وما الله بغافل عما تعملون. أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون. ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس أ فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون. وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون. ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين. بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين. وإذا قيل لهم آمنوا

بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين. ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين. قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين. ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر والله بصير بما يعملون".

39- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة ثم تولّيتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون (83)

هذه إشارة إلى ذلك الميثاق الأوّل الذي قد أخذ من بني إسرائيل على اجتناب الشرك، والإحسان إلى الوالدين، وأداء حقوق ذوي القربى واليتامى والمساكين، وإقامة الصلوة والزكوة فقد ذكر فيه أوّل ما ذكر هو "لا تعبدون إلا الله". ولو أن هذه الجملة خبرية ولكنها تعني النهي وعلى هذا فقد عطفت الجمل الإنشائية التالية عليها.

وبالوالدين إحساناً: فذكرُ حقّ الوالدين بعد ذكر حقّ الله تواً يدلُّ على أنه لو كان حقّ أكبر من الحقوق الأخرى على المرء بعد حقّ الله فهو حقّ الوالدين، ولكن هذا الحق لا يتطلب سوى الإحسان فلا يدخله العبادة فيبدو من هذا جلياً أنه لما لم يشرع الله أن يدخل في العبادة الوالدان اللذان هما أعلى وأرفع بعد الله على الأرض فماذا بالآخرين؟

وذي القربى: يمكن أن نضعهم تحت الإحسان الذي يجب للوالدين كما يمكن أن نقدّر هنا فعلاً يناسبهم فنجد في القرآن دلائل على كلتا الصورتين فقد قال تعالى:

"واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين أحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين" (سورة النساء: 36)

فقد جعل "ذي القربى" تحت "إحساناً" في هذه الآية ولكن قال في موضع آخر:

"وقضى ربك ألّا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً --- وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل" (سورة بني إسرائيل: 24)

فقد استخدم هنا الإحسان للوالدين بينما استخدم الإيتاء لذي القربى والمسكين فيبدو بعد ضمّ هذين الموقعين أن الإحسان عبارة عن أداء الحقوق فإن لم يتمّ أداؤها فلن يمكن أداء واجب الإحسان بكلام لا يتبعه العمل.

واليتامى والمساكين: ومجيئ اليتامى والمساكين بعد ذكر الوالدين والأقرباء فوراً يشير إلى ما يتمتع اليتامى والمساكين من الأهمية في المجتمع الإسلامي والنظام الإسلامي فيجب على كل غني ثري في النظام الإسلامي أن يؤدّي حقوق اليتامى والمساكين بعد أداء حقوق الوالدين والأقرباء فلا يمكن لأحد أن يوفي ذمته من أداء الواجبات التي يحمّلها الإسلام عليه بدون أن يؤدي حقوق اليتامى والمساكين.

ولم نستخدم كلمة "الحقوق" لهذه الحقوق كمجرد استعارة بل هذه مما قد استخدمه القرآن ذاته كما تمت صيانتها كحقوق في النظام الإسلامي.

وقولوا للناس حسناً: لهذه الفقرة معنى عام يبدو من ظاهر كلماتها فيضمّها كل أمر فيه خير وحلم ونصح والذي أرشد إلى تعليمه والدعوة إليه المسلمون بكل مناسبة، ولا داعي لمخالفته عندنا فقد قرّره علماء التأويل عاماً، وقد جاء نفس الأمر في نفس السياق والسباق بتصريف بعض الكلمات في غير هذا من أماكن القرآن فيبدو من جمع هذه الآيات أن لها معنًى خاص طبقاً للسياق الذي جاء فيه هذه الكلمات، يجب على كل دارس للقرآن أن يقف عليه، والآن نجمع الآيات التي تدلّ على معنًى واحد فنحاول توضيح هذا المعنى الخاص. قال الله تعالى في صورة النساء موضحاً بعض مسئوليات أولياء اليتامى التي تتعلق بهم:

"ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً" (سورة النساء: 5)

وقال في موضع آخر من هذه السورة:

"وإذ حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً" (سورة النساء: 8-9)

وقال في سورة البقرة:

"الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذًى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذًى والله غني حليم" (سورة البقرة: 262-263)

وقال عن الإنفاق كذلك في سورة بني إسرائيل:

"وإما تعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً" (سورة بني إسرائيل: 28)

فيبدو بعد التفكير على هذه الآيات كلها أنه قد قيل في "قولوا للناس حسناً" ما قيل في "وقولوا لهم قولاً معروفاً" و"وليقولوا قولاً سديداً" و"قول معروف ومغفرة".

وبالنسبة إلى الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين أكّد القرآن على الإحسان إليهم وأداء حقوقهم في جانب وفي جانب آخر أرشد المسلمين أن لا يقولوا لهم إلا معروفاً فليسكتوا الغضب إذا ثار في صدورهم، وليغفروا لهم إذا زلّت قدومهم وذلك لأن أحداً لا يقدر على إيفاء ذمته عن حقوقهم بدون هذا النوع من الأخلاق والمعاملات فربما يقع من عند الولي اللمم في تكريمهم بما أنهم ضعفاء، الأمر الذي يحزنهم ويزيدهم غماً على غمّهم كما لا يرضى المرء، في بعض الأحيان، عنهم فيعامل معهم أشدّ المعاملة بما أنهم بائسون ولا ناصر لهم وكذا يعامل هؤلاء البائسون أنفسهم، في بعض الأحيان، معاملة لا توافق وأوليائهم، الأمر الذي يسبّب المعاملة السيئة معهم من قبل الأولياء. وقد منع القرآن المسلمين وأولياء اليتامى عن هذه المعاملات غير الملائمة بهم وأرشدهم إلى أن يعاملوهم معاملة حسنة واعتبر كلمة معروفة خيراً من صدقة ثمينة يتبعها القول السيئ وهتك عزتهم وأذاهم، وهذا

ما عبّر عنه بـ"قولوا للناس حسناً" ولو أن الكلمات عامة ولكن سياق الحديث ونظمه يدلّان على ما ذهبنا إليه من المعنى الخاص.

وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة: وذكر إقامة الصلوة وإيتاء الزكوة هنا جاء كإجمال ما فصّل أي هذان الشيئان يجمعان ما ذكر آنفاً فما أرشد إليه، آنفاً، من عبادة الله والإحسان إلى الأقرباء واليتامى والمساكين يجمع شمل تلك الخيرات الصلوة والزكوة وعلى هذا فقد ذكر هذين الأصلين بعد ذكر الأجزاء ويتضح من ذلك أنكم إذا أقمتم الصلوة وآتيتم الزكوة فسيهل لكم فعل الخيرات المذكورة أعلاه وإن ضيّتم الصلوة ولم تؤّوا الزكوة فستضيّعون ما دونهما من الخيرات.

ثم تولّيتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون: وهذا هو الأمر الذي تم تذكير الميثاق المذكور أعلاه لتوضيحه أي أنكم لم تؤفوا بالميثاق الذي أخذتموه بهذا الاهتمام فلم يبق منكم سوى قلة قليلة منكم أوفت به.

وقد ذكر القرآن عدم إيفائهم بهذا الميثاق كأول فعل منهم ثم ذكر إعراضهم عن ذلك كصفة مستقلة بهم لكي يتضح أن هذا ليس بجريمة صدرت منهم بالصدفة بل هذا الإعراض قد أصبح خصوصية لمزاجهم القومي وقد ذكر موسى عليه السلام ما أشار إليه القرآن من خصوصية مزاجهم فقد لام بني إسرائيل على كفرهم واعتبرهم أشراراً ارتكبوا جريمة القتل.

ولنلاحظ هنا نظم الكلام أي أن تذكير بني إسرائيل عدم وفائهم بهذا الميثاق لقطع دابر استكبارهم أنهم قد اعبروا أنفسهم أمناء كتاب الله، وحاملي شريعته، وممتلكي كافة نعم الله الدنيوية والأخروية فلا اعترفوا بحاجتهم إلى النبوة والرسالة الجديدتين ولا رضوا عن إيمانهم بنبوة أو رسالة خارج نطاقهم فيتم تذكيرهم في هذه الآية وما بعدها من الآيات أنهم قد وضعوا وراء ظهورهم الميثاق الذي أخذه الله معهم والذي هم يفتخرون به غاية الافتخار.

وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون (84)

ومن هنا تتم الإشارة إلى ميثاق آخر أخِذ من بني إسرائيل على أن لا يسفكوا دمائهم ولا يحاولوا إخراج إخوانهم من ديارهم ولكنهم، كما يأتي تفصيله فيما بعد، قد وضعوا هذا الميثاق أيضاً وراء ظهورهم.

ولإبراز أهمية هذا الميثاق قال "ثم أقررتم وأنتم تشهدون"، الأمر الذي يمكن أن يعنى به اثنان وكلا المعنيين يوضح أهميته كما يوضح شناعة نقضه فمعناه الأوّل، كما ذهب إليه عامة المفسّرين، أنكم تقرّون هذا العهد كما أنكم تشهدون به حتى اليوم، وذلك لأن ذكره يوجد في التوراة وأما المعنى الثاني الممكن إرادتُه فهو أنكم أقررتم هذا الميثاق وأنكم كنتم مع موسى حين إقراره.

ولا ننس هنا أن موسى كان يعطي بني إسرائيل أحكام الله أمام الجماهير ثم يأخذ منهم العهد على اتباعها لكي ينال الشعور باتباعها درجته النهائية ويبقى فيهم هذا التقليد حياً خلال الأجيال بما أننا قد أخذنا هذا الميثاق في موضع كذا في شكل جماعة. فقد ذكّر القرآن هنا بني إسرائيل فترة نزوله بأن آبائكم الذين تفتخرون بتقاليدهم لما تنكرون إيفاء ذمة ميثاقهم الذي قد أخذوه جماعات والذي يوجد في كتابكم التوراة.

ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم أ فتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب وما الله بغافل عما تعملون (85)

أي الميثاق الذي قد أخذتموه بهذا الاهتمام تنقضونه بكل شدة، وقد بيّن القرآن صورة هذا النقض أنكم تؤامرون مع أعدائكم ضد إخوانكم ومن ثم تخرجونهم من ديارهم بالتعاون معهم، وهكذا إذا جاءوكم وهم أسارى بأيدي الأعداء فتفادونهم مرائين جانب الملة والوطن في حقهم قائلين إن هذا هو حكم التوراة والحال أن التوراة كما تذكر الفدية لتحرير الإخوان فكذلك هي تمنع عن إخراجهم عن ديارهم.

يبدو من دراسة تاريخ بني إسرائيل أن اليهودية وإسرائيل لما أسّسا حكومتهما على حدة قد وقع العديد من مثل هذه الأحداث فقد كانت كلتا الحكومتين تحاولان محاولة ملؤها العداء ولأجل

انتقام إحداهما من الأخرى قد اختاروا أهون الطريقتين بأن تحرّض الحكومة الأولى السلطات المعارضة على شنّ الغارة على الحكومة الثانية وعندما قتلوا ونهبت أموالهم وأسروا فتضرّعوا إلى إخوانهم مستنصرين فيفادوهم مرائين الجانب القومي لهم.

ونفس الظروف قد مرّ بها اليهود الذين قد سكنوا ديار العرب حين نزول القرآن فقد ائتلفت شتى فروعهم مع الأنصار فكانت بنو قينقاع وبنو نضير حليفاً للخزرج كما كانت بنو قريظة حليفاً للأوس ولم تزل الحروب القبلية تجري بين الأوس والخزرج وقد كان اليهود يعينون حلفائهم في هذه الحروب فكانوا يقتلون إخوانهم ويخرجونهم من ديارهم. ولكنه بجانب قتل إخوانهم هذا كانوا يراءون جانبهم الديني بأنهم حينما يتمّ أسر إخوانهم في الدين على أيدي الأعداء ففادوهم على حكم التوراة[1].

ففي جانب هم يخالفون دين الله وفي جانب آخر يراؤون التديّن فهذا نفاق بيّن فإن هذا يعني بصراحة أنهم يمتثلون بما هو يوافق هواهم من أحكام الكتاب الرباني ويخالفون ما لا يوافقها فلن يقبل الله هذا النوع من الإيمان الذي يتّبع هوى المرء فمن يختر هذه الطريقة في اتباع الشريعة الإلهية يخزهم الله في الدنيا كما سيعاقبهم في الآخرة عقاباً شديداً.

أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون (86)

فالاشتراء هنا لا يعني البيع والشراء بل يعني مجرد الترجيح والتفضيل فحينما يشتري المرء شيئاً بشيء فهو يرجّحه على ذلك الثمن المسدود فقد نقل صاحب لسان العرب بالنسبة للآية "أولئك الذين اشتروا الضلالة" قول أبي إسحاق أنه لم يرد هنا البيع والشراء بل أريد به أن هؤلاء الكفرة قد عضّوا على الضلالة بالنواجذ كضالتهم كما يشتري أحد شيئاً يرغب فيه دافعاً ثمنه فتقول العرب كلما أرادوا التعبير عن شيئ نيل بدل شيئ "اشتراه" أي رجّحه وقد استخدم القرآن هذه الكلمة في هذا المعنى في غير موضع منه.

لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون: أي لا يراعون داخلهم كما لا ينالون أي عون من الخارج فستغلق له كافة أبواب المعونة بعدما أحاط بهم العذاب الإلهي الخالد.

---

[1] حين تلاوة هذه الآيات لا تنسوا مؤامرات الحكومات والجماعات الإسلامية التي تخوض فيها الواحدة ضد الأخرى متجاوزة كافة الحدود بحيث لا تتخلف عن الائتلاف مع أعداء الإسلام والمسلمين (الإصلاحي).

ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس أ فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون (87)

وهذه إشارة إلى ما وفّره الله من نظم لمواصلة التذكير لما مضى من الميثاق أي قد أرسلت الرسل تترى لتذكير الكتاب الذي أنزل على موسى وقد خصّ الله عيسى بـ"البيّنات". والمراد من "البيّنات" تلك المعجزات التي أعطيت عيسى عليه السلام وهي كانت أبين إلى حدّ لن يشكّ في كونها من الله إلا من كان عنيداً ولكن اليهود لم يعتبروا تلك الآيات الباهرة تأييداً ربانياً ومما جاء به روح القدس فحسب بل أعدّوها مما يقوم به الشيطان فكانوا يقولون إنما يرينا عيسى من المعجزات يأتي بها من قبل بعلزبول كبير الشياطين فردّ القرآن على اتهام اليهود هذا مراراً وتكراراً وقال إنما يريه عيسى من الآيات مما يؤيّده روح القدس لا مما يؤيّده الشياطين كما يزعم اليهود.

وقد كثر في الإنجيل اتهام اليهود هذا كما نقل الردّ على هذا الاتهام، الذي قام به عيسى، وننقل، فيما يلي، مقتبساً من متي الذي يؤيّد ما ذهبنا إليه آنفاً:

"حينئذ أحضر إليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه حتى إن الأعمى الأخرس تكلّم وأبصر فبُهِتَ كل الجموع وقالوا أ لعل هذا هو ابن داود، أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا هذا لا يخرج الشياطين إلا ببعلزبول رئيس الشياطين فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب. وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت. فإن كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف تثبت مملكته وإن كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين فأبناؤكم بمن يخرجون. لذلك هم يكونون قضاتكم. ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله أم كيف يستطيع أحد أن يدخل بيت القوي وينهب أمتعته إن لم يربط القوي أولاً وحينئذ ينهب بيته. من ليس معي فهو عليّ ومن لا يجمع معي فهو يفرّق لذلك أقول لكم كل خطيئة وتجذيف يغفر للناس وأما التجذيف على الروح فلن يغفر للناس. ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له. وأما من قال على الروح القدس فلن

يغفر له لا في هذا العالم ولا في الآتي. اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيداً أو اجعلوا الشجرة رديّة وثمرها رديأً لأن من الثمر تعرف الشجرة" (متي/الباب: 12/الآيات: 22-23)

والآن تفكّروا في ضوء هذه الخلفية في كلمات "وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس" فتضح لك ما يطويه هذه الآية من القوة البيانية وما تثبته الآية وما تردّ عليه. وأما تأييد روح القدس فهو يتمتع به كل رسول وما يريه ذلك الرسول من المعجزات تصدر من تأييد روح القدس تلك ولكنه، بالنسبة لعيسى عليه السلام، قد تكرّر أن اليهود كانوا يتهمونه بذلك. والمراد من روح القدس هي الروح الزكية التي تأتي من قبل الله جلّ جلاله وقد اعتبرت هي جبريل بالعبرية.

وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون (88)

يمكن أن يكون هذا القول كمعذرة باطلة من قبل اليهود كما يمكن أن يكون صورة لاستكبارهم ففي الصورة الأولى يعني هذا أنما يقدّمه هذا الرسول من الأمور لا تدخل قلوبنا وإن كانت هي من قبل الله جلّ جلاله فهو قادر على كل شيئ فلم لا يشرح صدورنا لقبول هذه كلها.

وفي الصورة الثانية يعني هذا لم تجعل قلوبنا لقبول هذا النوع من الأشياء التافهة فهي لا تدخل قلوبنا البتة فإن وجد فيها شوب من صفة الحكمة فهل أحد أسرع منا لقبول الأشياء المليئة بالحكمة والسداد؟

يؤيّد ما ذهبنا إليه من المعنيين نظائر القرآن ولكننا نرجّح المعنى الثاني وذلك لأن الله تعالى قال بعد قولهم هذا "بل لعنهم الله بكفرهم" فهذا يؤيّد ما ذهبنا إليه تأييداً أي لأجل استكبارهم يرى هؤلاء أن ما يقول لهم الرسول لا يمكن دخوله في قلب أي رجل حليم بما أنه ليس بما يشوبه الحلم والحال أن الواقع خلاف ما يرون فإن هذه الأشياء التي يقدّمها الرسول إليهم يشوبها الحلم والجاذبية ولكن الله لعن قلوبهم لأجل كفرهم وعنادهم وعلى هذا فهي لا تصلح لقبول أي شيء معقول.

ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين (89)

والمراد من الكتاب هنا هو القرآن الكريم الذي نزل مصدّقاً للنبوءات التي وردت عنه في صحف اليهود فمن هذه الجهة فقد كانت أول منة وأكبرها على اليهود أنفسهم أنه قد أثبت أشياء كثيرة وردت صحفهم فكان من واجب هذه المنة أن يسابقوا غيرهم في قبول هذا الكتاب العزيز ولكنهم بالرغم من قبولهم له سابقوا غيرهم في مخالفته بغياً منهم وحسداً. وقد أوضحنا اعتبار القرآن مصدّقاً للصحف السماوية السابقة لدى تفسير الآية الحادية والأربعين لهذه السورة.

وبما أن النبوءات المتعلقة بالقرآن والنبي الخاتم كانت موجودة في صحف اليهود فقد انتظروا بظهور تلك النبوءات انتظاراً شديداً، وكانوا يرجون أنه لما يبعث هذا النبي الموعود فستنقضي أيام شقاوتهم وصعوبتهم وسيفتح الله به ضد أعدائهم كافة كما كانوا يدعون لهذا الفتح ولكن هذا من عجيب سوء حظهم أنه لما تمّت هذه النبوءة وجاء من كان هو المنتظر به وأثبتت أعماله أنه هو الذي قد ذكرت شروطه في الصحف الأولى كما عرفه اليهود خير معرفة فأنكروه عناداً وحسداً. وقد أوضح المسيح معاملة اليهود هذه بمثل عشر عذاري الذي نقل في الباب الخامس والعشرين لمتي.

بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين (90)

هنا تعني كلمة الاشتراء البيع والمعادلة وقد ورد نفس المعنى في موضع آخر من هذه السورة "ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون" (سورة البقرة: 102). يعدّ اللغويّون هذه الكلمة من الأضداد عامة وقد وجّه جانبَ كونها ضداً الإمامُ الراغب توجيهاً جميلاً فهو يقول:

"فأما إذا كان بيع سلعة بسلعة صحّ أن يتصوّر كل واحد منهما مشترياً وبائعاً ومن هذا الوجه صار لفظ البيع والشراء يستعمل كل واحد منهما في موضع الآخر".

أي أنهم غفلوا عن فكرة نجاتهم وفلاحهم وخاضوا في عناد الآخرين فواجهوا ما قُدِّرَ للآخرين.

أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشاء من عباده: هذا توضيح ما اختاروه وهو أنهم اختاروا سبيل إنكار ومخالفة كتاب الله المنزل ونبيّه المبعوث بدلاً من أن يؤمنوا بهما وبما أنهم اختاروا سبيل الإنكار والمخالفة هذا بوعي فلن يكون السبب وراءه سوى العناد فقد غضبوا من الله على أن وجّه نعمة الدين النهائي والرسول الخاتم إلى بني إسماعيل ولم يبعث رسول منهم؟ فكأن هؤلاء كانوا هم الجديرين بكافة نعم الله تعالى وهم المستقلون بالفصل عمن يختاره لهذا المنصب الجليل ومن يحرمه منه؟

"البغي" تعني هنا "العناد" وهو كان نتيجة عدوانهم على الله واستكبارهم له. ولو أن كلمات "على من يشاء" عامة ولكنها تشير إلى بني إسماعيل خاصة وقد تمّ خيار هذا الأسلوب لإبراز سعة خياره تعالى.

فباءو بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين: فمعنى "فباءو بغضب على غضب" أنهم لسوء عاقبتهم رجعوا بغضب الله من حيث يجمل بهم أن يرجعوا بأكبر رحمة فقد كان سعادتهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة منوطين بالإيمان بالنبي الخاتم كما كانوا هم المنتظرين به بل، كما مضى آنفاً، كانوا يدعون له ولكنه لكما حان أن يتمتعوا من تلك النعمة فلأجل سوء حظهم زلّت أقدامهم فخالفوه فاستحقوا غضب الله القاهر ولم يقفوا على هذا فقط بل استحقوا غضباً على غضب فاستحقوا الغضب الأول لأجل عدم وفائهم بالميثاق الذي أخذه الله معهم عن طريق موسى عليه السلام وأما الغضب الثاني فقد استحقوه حينما سنحت لهم مرة أخرى الفرصة في الدخول في عهد الله فخاضوا في الحسد والعناد فأنكروا بالاستفادة منها.

عذاب مهين: المراد منه العذاب الذي يهين من يصيبه، وسيصيب هذا العذاب المهين من كان الاستكبار وراء جريمتهم كما مضى "أ فكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم".

وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّقاً لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين (91)

أي كلما يدعون إلى الإيمان بالقرآن الكريم فهم يردّون مستكبرين أنهم يؤمنون بما أنزل فهم ثم وُضِّحَ ردّهم هذا بأنهم لا يرضون عن الإيمان بشيئ سوى التوراة والواقع أنه طبق النبوءات التي جاءت في التوراة نفسها هي الصحيفة الحقة التي يدعون إلى الإيمان بها لا التوراة ذاتها.

قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين: بعدما أوضح أن الإيمان الموثوق به بعد نزول القرآن هو الإيمان بالقرآن لا بالتوراة، قام بتوضيح أن دعوى اليهود بإيمانهم بالتوراة لا أساس له أصلاً فإن كانوا هم المؤمنين بالتوراة فلم يجترءوا على قتل الأنبياء الذين جاءوا لإحياء وتصديق التوراة ذاتها.

ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون (92)

هذا ردّ آخر على دعوى اليهود على الإيمان ومن أخص جوانب هذا الردّ أن قد تمّ تذكير حادثة عبادتهم للعجل فنبّهوا أنكم قد أعليتم ذكر إيمانكم وعبوديتكم إلى حدّ لا تعبأون بالقرآن ولا بالنبي الخاتم والحال أنكم قد بدأتم بعبادة عجل بدل أن تعبدوا الله الواحد بعد رؤيتكم آيات مبينة في حين أن موسى كان حياً فيما بينكم.

وقد نبّه بعض الأنبياء السالفين اليهود على هذا النوع من فخرهم وعرّضوا لهم عبادة العجل تلك فضربوا لهم مثل العروس التي خانت بعلها ليلة الزفاف وأما كلمات القرآن فهي توافق وشأنه العالي ولكنه قال ما قاله الأنبياء السالفون.

فـ"أنتم ظالمون" مثل "وأنتم مشركون". فقد عبّر عن الشرك بالظلم في غير موضع من القرآن، والظلم معناه الأصلي سلب للحقوق فما يقوم به المرء بسلب حقوق الله وحق نفسه لا يقوم به بأسلوب آخر، وقد فصّل القرآن هذا الواقع في العديد من مواضعه: إن الشرك لظلم عظيم".

وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين (93)

وقد أوضحنا كافة أجزائها المهمة حين تفسير الآية الثالثة والستين لهذه السورة فما نقل هنا من ردّ اليهود بأن "قالوا سمعنا وعصينا" فهو تعبير عن الوضع الراهن فقد عقدوا العهد بأن "سمعنا وسنطيع" ولكنهم أثبتوا بأعمالهم أنهم عصوا ما سمعوه فما برز من الوضع الراهن قد وضعه القرآن في موضع القول فكأنهم لم يعقدوا ميثاق الطاعة منذ البداية بل عقدوا ميثاق العصيان منذ البداية.

فكلما حضر المنافقون واليهود مجلس النبي ﷺ قالوا "سمعنا وعصينا" بدل "سمعنا وأطعنا" ولكنهم كانوا يتلفظون بحيث يسمع السامع "أطعنا" بدل "عصينا" وقد تعلّموا هذه المعاملة على أسلافهم، والفرق بينهم لم يكن إلا أنهم قالوا "أطعنا" وأرادوا به "عصينا" بينما هؤلاء قالوا ما أرادوه من "عصينا" نفسه إلا أنهم كانوا يلوون ألسنتهم بحيث يسمع المسلمون "أطعنا" بدل "عصينا".

قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين (94)

قد مضى في الآية التسعين السالفة أن اليهود قد غضبوا على أن يعدّ أحد غيرهم جديراً بفضل من الله ونعمته فكانوا يعدّون أنفسهم جديرين بالنعم في الدنيا كما عدّوا أنفسهم مستحقين نعم الآخرة فنبّههم القرآن بأنكم إذا زعمتم أنفسكم جديرين بالنجاح في الآخرة ولا تصبرون عن أن يشرككم فيه أحدٌ غيركم فتتمنوا لقاء الرب جلّ سبحانه ولتتمنوا الموت ولكنكم تحبّون الحياة الدنيا وتسبقون مشركي العرب في تفضيلها على حياتكم الأخروية.

وقد أشار القرآن إلى نقص لليهود شنيع لكي يستحيوا على ما يظنونهم أحباء الله وأولياءه، فلو كان لهم أن يردّوا على هذا بأنهم يودّون الموت ولكن وضع المرء لا يختفي على من يصاحبه فقد ثبت هذا القول مرّاً عليهم كما ندموا على ما كانوا هم حتى الآن.

ولن يتمنوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين (95)

أي هم لن يودّوا الموت ولو أنهم يدّعون التقرب إلى الله، وذلك لأن ما قاموا به من عدم الوفاء بميثاق الله لا يختفي عليهم ولو أنه ليس بظاهر على غيرهم وعلى هذا فهم يخافون الموت وذكره إلا أنهم لن يفرّوا من الموت وعليهم أن يذوقوه فيعرضوا أمام الرب الذي يعرف كافة أسرارهم. يوضّح هذا الأمر سورة الجمعة كما يلي:

"قل إن الموت الذي تفرّون منه فإنه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون" (سورة الجمعة: 6)

ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر والله بصير بما يعملون (96)

أي أنهم يدّعون أنهم يحبون الله وهو يحبّهم في جانب وفي جانب آخر يحبّون الحياة الدنيا حق سابقوا الآخرين غيرهم حتى أنهم فاقوا مشركي العرب على حرصهم على الحياة الدنيا، المشركين الذين لا يعبأون بالحياة الأخروية فالحياة عندهم هذه الحياة الدنيا ولا غير.

وقد قارن القرآن اليهود من مشركي العرب في غير موضع منه ثم أثبت أنهم سابقوهم في العقيدة والعمل فالمشركون قد بلغوا الدرك الأسفل من الفكرة والخلق لما أنهم لا يعلمون الكتاب ولا الشريعة والحال أن هؤلاء يعرفون كلا المصدرين للدين ولكنهم فاقوهم في هذا الأمر.

وما هو بمزحزحه: لهذه الفقرة معنيان أحدهما أن المرء لن ينجي نفسه من عذاب الله ولو وُفّقَ طولَ العمر، وآخرهما أنّ طولَ عمر المرء لن ينجيه من عذاب الله.

والله بصير بما يعملون: أي لا تستطيع الأعمار الطويلة بأن تخفي أعمال أحد على الله الذي يرى كل ما يقدّمونه من الأعمال، وبما أنه يرى هذه كلها فكيف يجمل به أن لا يجازيه عليها، فالمراد من الرؤية هنا ما تلزمه تلك الرؤية، وقد استخدم القرآن هذا الأسلوب في غير موضع من آياته.

40- إرشادات لهذه المجموعة من الآيات

وقد قمنا بتوضيح ما تحتويه هذه الآيات من الإرشادات من خلال توضيح فقراتها وهو يكفيها موضحاً ومبيّناً إلا أنها اشتملت على أمور تتطلب أهميتها أن نشير إليها بشيء من التفصيل، وهي كما يلي:

1. فأول ما اشتملت عليه هذه الآيات من الحقائق والمعارف أن الشريعة التي يعطيها الله لعباده لا يؤدّى حقها إلا بأن نعمل على كل جزء منها فإن يعمل أحد على أجزائها التي توافق مع هواه ويصرف عما يخالفها فهذا ما يسمّيه القرآن الكريم بالإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه، ومثل هذا الإيمان لا يوثق به عند الله فحسب بل يعاقبه الله بأن لهم خزياً في الحياة الدنيا كما سيدعّون إلى أشد العذاب يوم القيامة.
2. وأخراها أن المفخرة الوطنية والعصبية الفرقية والاستعلاء العصبي هي أشد عرقلة في السبيل إلى قبول الحق فالعصبة التي تخوض في هذا المرض فهي لا تقبل إلا ما تظنّه حقاً وهذا هو أصل الاستكبار الذي قرّره القرآن ميزة الشيطان ومنه يولد الحسد الذي ينفّر المرء عن كل نوع من الحق، يخالف هوى نفس المرء ذاته.
3. وثالثتها أنه كما تمنّي الموت أو الانتحار فراراً من مضايق الحياة خلاف للإيمان بالله والتعلق معه تعالى فكذلك الحرص على الحياة وطول العمر والفرار من الموت خلاف للإيمان بالله ومحبته له تعالى فمن يؤمن بالله وباليوم الآخر ويحبّ الله فهو لا يفرّ من الموت بل يتمنّى الموت في سبيله تعالى، وكذا أوضح، في غضون هذا الحديث، أن الشيئ الذي يخوّف المرء من الموت هو الإثم والعدوان على الله فإن يحاول المرء أن يجعل حياته عفيفة من الآثام والاعتداءات فسيتحّول الموت له إلى شيئ يحبّه حباً جماً.

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

الإمام الفراهي ونظريته عن الإنجيل

- البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي

الإنجيل، كما نعرف، قد نزل على عيسى عليه السلام ولكن ما هي اللغة التي نزل بها، وهل الإنجيل الحقيقي هو الذي يؤمن به النصارى هذه الأيام، وهل تعاليمه بريئة من التحريف؟ هذه أمور سنتحدث عنها فيما بعد فنبدأ هذا البحث بأصل هذه الكلمة وتوضيح معناها اللغوي.

الإنجيل لغة: يرى بعض الباحثين أن الإنجيل كلمة عبرية أو سريانية كما يرى البعض أنها كلمة عربية فمن يراها عربية الأصل يقول إنها على وزن الإكليل والإخريط وهي مشتقة من "نجل" فنجل الشيئ ينجله نجلاً: أبداه وأبانه و"نجل" معناها أساس، وينبوع وتجمّعٌ[1].

ولكن أنكر هذه المادة صاحب تاج العروس وغيره من أصحاب المعاجم[2] فيروى عن الأصمعي أنجيل (بفتح الهمزة) على زنة أفعيل والأنجيل كتاب فيه أسطر عديدة[3]، وهذا دليل على أنها كلمة غير عربية فإن زنة أفعيل ليست من أوزان العربية فيقول العلامة الزمخشري (ت 538هـ/1143م) ما معلخّصه:

"التوراة والإنجيل كلمتان عجميتان فمن ذكر مادتهما ورى ونجل وزنتهما تفعلة وإفعيل فقد تكلّف فلا يصحّ الأمران ما لم تكونا كلمتين عربيتين. وقد قرأها الحسن البصري أنجيل بفتح الهمزة، التي تدلّ على كونها عجمية فإن أفعيل بفتح الهمزة لا تأتي من أوزان العربية"[4].

---

[1] لسان العرب، 648/11

[2] تاج العروس، 138/8

[3] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

[4] الكشاف، 73/1

وقال العلامة البيضاوي (ت 685هـ/1286م) في "أنوار التنزيل" إنها كلمة أعجمية[1]، ويرى رأيه المفتي محمد عبده[2]. فإن كانت هذه الكلمة أعجمية فمن أي لغة هي؟ فقيل أنها سريانية[3]، واستدلّ على هذا بأن الأناجيل التي نشرت باللغة السريانية نشرت باسم Evaggelion. ولنلاحظ هنا أن أقدم ترجمة عربية للإنجيل جاءت من اللغة السريانية وكذا قيل أنها كلمة يونانية[4] ومنها انتقلت إلى السريانية ومن ثم دخلت في اللغة العربية[5]. وكاتب هذه المقالة يرى الرأي الأخير ويؤيده.

معناها اللغوي: الإنجيل يقال له بالإنجليزية Gospel، وهي مشتقة من الكلمة الإنجليزية القديمة Godspel. وهذه الكلمة مركّبة من كلمتين؛ god وspel فgod تعني حسناً بينما spel تعني خبراً فGodspel تعني خبراً حسناً أي بشرى. وهذه الكلمة الإنجليزية القديمة والكلمة الرومية Evangelium التي هي ترجمة حرفية للكمة اليونانية Evaggelion مترادفتان.

فتشمل كلمة Evaggelion في الأدب اليوناني القديم كل ما يتعلق بEvaggelos التي تعني مبشّراً. هذه الكلمة مركّبة من ev وaggelos فev تعني حسناً بينما aggelos تعني سفيراً أو معلناً[6]. ومن ثم تدرّجت الكلمة فاستخدمت لكل ما كان يتعلق بالملك لاسيما الإعلانات عن مولد أحد في السلالة الملكية وتوليّ الملك عرش الحكم وما شابههما من الأمور حتى جعلت هي تطلق على الأحكام الملكية[7].

---

[1] أنوار التنزيل، ص 62

[2] تفسير المنار، 158/1

[3] تاج العروس، 138/8

[4] Encyclopedia Britannica، 536/10 (Gospel)

[5] قال كاتب مقالة "Encyclopedia of Islam" (125/3) إن الإنجيل تعريب كلمة "Wangel" الحبشية ولكن كاتب هذه الأسطر لا يصوّب هذا التحقيق.

[6] Encyclopedia of Religion، 79/6-80

[7] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

وعلى كل حال فقد اتضح من هذا الحديث أن الكلمة اليونانية Evaggelion تعني بشرى ويؤيدها كلمة عبرية بسر (bsr) فهي تترجم باليونانية بـEvaggelion، وهذه الكلمة العبرية أصبحت بشرى حينما دخلت في العربية واسم فاعلها مبشّر[1].

لغة الإنجيل: رُتّبَ الإنجيل أولاً باللغة اليونانية ولكن هذا لا يعني أن لغة عيسى الأم كانت يونانية، ويرى بعض العلماء أن لغة عيسى الأم والدينية كانت عبرية ولكن يرى رينن (Renen) أنها كانت سريانية مختلطة بالعبرية، ويرى كاتب مقالة موسوعة بريطانيا أن عيسى وحواريه كانوا يتكلمون اللغة الآرامية[2]. وكتب Moses Butten Wieser بروفيسور اللغة العبرية أن اللغة اليومية في عهد عيسى كانت آرامية[3]، وأما أنا فأرى أن لغة الإنجيل كانت آرامية إلا أنه لم يدوّن بها فقد دوّن أول ما دوّن باللغة اليونانية.

حقّية الإنجيل: يرى معظم العلماء أن الإنجيل الحقيقي الذي نزل على عيسى عليه السلام لا يوجد الآن فالأناجيل التي نسمّيها اليوم بـ"متى" و"مرقس" و"لوقا" و"يوحنا" قد رتّبها أتباع عيسى بعد رفعه إلى الله بكثير فيقول الإمام الرازي مؤيّداً هذا المذهب ما ملخّصه:

"في هذه الفترة الفوضوية ضاع الإنجيل الأصلي الذي أنزله الله تعالى فلم تبق إلا بعض أجزائه فلن يمكن إتمام الحجة عليهم إلى في ضوئها"[4].

ويرى العلامة رشيد رضا المصري أن العدد الملموس من الأناجيل قد كان يوجد في القرن الرابع الميلادي، التي قد اختير منها الأربعة ومن ثم ضمّت هي إلى الميثاق الجديد فلن نعتبر هذه الكتب ذلك الإنجيل الذي قد جاء ذكره في القرآن بصيغة الواحد والذي نزل على عيسى عليه السلام"[5].

---

[1] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

[2] Encyclopedia Britannica، 22/3

[3] Jews' Encyclopedia، 505/8 (Messiah)

[4] العلل، 2/2-39

[5] تفسير المنار، 158/3-159

ويرى العالم المفسّر الهندي الشيخ عبد الحق الحقاني "أن التوراة والإنجيل الحقيقين لم يكونا موجودين في زمن النبي ﷺ --- فاعتبار المجموعة المزوّرة التوراة والإنجيل ليس إلا سوء الفهم والاختلاق"[1].

وكتب الدكتور حميد الله أن هناك أكثر من سبعين إنجيلاً كما يقول المؤرخون النصارى، التي قد وثق بأربعة منها بينما البقية قد اعتبرت مشكوكاً فيها. يبدو من دراستها أنها لا تشتمل على ما أوحي من قبل الله بل هي ترجمة عيسى وذكر الأحاديث عنه وعن أتباعه"[2].

ويرى أغلبية علماء الإسلام أن الأناجيل الموجودة مشكوك فيها وقد ذهب هذا المذهب المسعودي (ت 345هـ/951م)، والبيروني (ت 440هـ/1048م)، وابن حزم (ت 456هـ/1064م)، والإمام الغزالي (ت 505هـ/1111م)، والسهروردي صاحب "عوارف المعارف" (ت 632هـ/1234م)، وابن تيمية (ت 728هـ/1328م)، وابن القيم (ت 751هـ)، وقد تناول هذه القضية بالتفصيل الإمام ابن تيمية في كتابه "الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح"، والعلامة ابن القيم في كتابه "هدية الحبارى"، والعالم الهندي رحمة الله الكيرانوي في كتابه "إزالة الشكوك"[3] وادّعوا أن الأناجيل الموجودة محرّفة لفظاً ومعنًى على السواء[4].

---

[1] فتح المنان، 46/4 وفي شدة النقد نسي العلامة ما يلي من آية القرآن: "قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين"، سورة آل عمران: 93

[2] خطبات بهاولفور، ص 309

[3] وله كتاب "إظهار الحق" الذي ألّف ردّاً على كتاب "ميزان الحق" لأب.

[4] وتعترف جماعة من العلماء والمحققين النصارى أن الأناجيل الحاضرة محرّفة فقد أثبت الكاتب الياباني الشهير الدكتور مل في 1707م وويت شتائن في 1751م بتحقيقهما وتدقيقهما أن العهد الجديد محرّف وقد ذكر الكاتب الشهير بوركيت (F.C. Burkit) في Encyclopedia Britannica (518/3) أمثلة عديدة للتحريف.
هذه التحريفات يتعلق معظمها بالنص، وما ذكره علماء الإسلام من أمثلة التحريف يتعلق كذلك بالنص إلا هذا النص يتعلق بالترجمة بل بترجمة الترجمة وذلك لأن الإنجيل الحقيقي لا يوجد فلنقرّ بأنما قاموا به من التحريفات في الأناجيل تتعلق بالترجمة والتفسير.
ولو نزعنا نص القرآن اليوم ووضعنا ترجماته وتفاسيره وقمنا بمقارنتهما فسنرى من الخلل المدهش في النص ما لا نراه في نص الإنجيل فسنرى فيها محاولات قبيحة للتحريف وإبداعات العقل الغير ناضج

نظرية الإمام الفراهي: ويمتاز ابن تيمية من بين القدامى كما يمتاز الإمام الفراهي من بين الجدد من العلماء من حيث أنهما كانا يعرفان اللغة العبرية وستجد كثرة كاثرة من الإشارة في كتابات العالم الأخير فما قام به الفراهي من تحقيق "المروة" في كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح" لن يمكن بدون معرفة هذه اللغة وكذا ما وجّهه من النقد الشديد على الترجمة الإنكليزية لكلمة "اليمين" العبرية يبدو منه أنه لم يكن يعرف اللغة العبرية فحسب بل كان يملك ناصيتها.

وستقدّر رغبة الإمام الفراهي في الإنجيل واهتمامه به من رسالته الغير تامة "الإكليل في شرح الإنجيل" فلو تمّت هذه الرسالة لكانت هي خدمة دينية وعلمية كبرى فيقول الإمام الفراهي في مقدمته عن معنى الإنجيل والهدف وراء بعثة المسيح عليه السلام:

"إن المسيح جاء مبشّراً بهذ النبي وبعثته وسوّى له الطريق كما قال ولذلك سمّى كتابه إنجيلاً أي بشرى وضرب أمثالاً كثيرة على سلب الشريعة الإلهية من اليهود وبشّر بنبي يأتي بعده"[1].

فيرى الإمام الفراهي أن لغة الإنجيل كانت عبرية[2] بينما كتب تلميذه الشيخ أمين أحسن الإصلاحي في تفسيره "تدبر قرآن" أنها كانت سريانية[3]. والصواب أنها كانت آرامية كما كتبناه آنفاً.

الجانب الديني للإنجيل: قد زلّت أقدام الكثير من علماء الإسلام في تعيين الجانب الديني للإنجيل فهم إما على إفراط أو على تفريط فاعتبره الواحد "ميلادنامه"[4] بينما برّأه الآخر عن

ولنضع أمام أعيننا بالنسبة لأهل الكتاب ما يلي من الآية القرآنية: "ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى"، سورة المائدة: 8

[1] الإكليل في شرح الإنجيل، الورقة: 1 (مخطوط)

[2] تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 36

[3] تدبّر قرآن، 264/8

[4] منصب نبوت اور اس کے عالی مقام حاملین، ص 232 (ميلادنامه: كلمة أردوية تعني ملحمة عن سيرة النبي وأصحابه ومن تبعهم)

أي خطأ باعتباره كتاباً سماوياً[1] والموقف الذي اختاره الإمام الفراهي منه هو مقتصد إلى حدّ بعيد وأقرب من الحق والصواب.

فيرى الإمام الفراهي أن الأصل هو القرآن الكريم ولا غير وما سواه فهو فرع. إنه وضع ثلاثة أشياء من الفروع؛ الأحاديث، وحقائق أخبار الأمم والأقوام، وصحف الأنبياء السابقة فهو يقول في مقدمة تفسيره نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان:

"من المآخذ ما هو أصل وإمام، ومنها ما هو كالفرع والتبع. أما الإمام والأساس فليس إلا القرآن نفسه وأما ما هو كالتبع والفرع فذلك ثلاثة: (1) ما تلقته علماء الأمة من الأحاديث النبوية (2) وما ثبت واجتمعت الأمة عليه من أحوال الأمم (3) وما استحفظ من الكتب المنزلة على الأنبياء. ولولا تطرق الظن والشبهة إلى الأحاديث والتاريخ، والكتب المنزلة من قبل لما جعلناها كالفرع، بل كان كل ذلك أصلاً ثابتاً يعضّد بعضه بعضاً من غير مخالفة"[2].

فيمكن لنا القول في ضوء هذا المقتبس إن الإنجيل، مثل صحف الأديان الأخرى، كان فرعاً لا أصلاً لدى الإمام الفراهي.

التحريف: كان الإمام الفراهي يقرّ بأن الإنجيل قد مرّ بالحذف والإضافة فهو يقول مؤيداً أفكار علماء الإسلام: "قد علمنا، وقد اعترف علماء المسيحيين بأن أصل الإنجيل مفقود، وإنما في أيدينا تراجم اختلط فيها أقوال المسيح وأقوال الرواة، والروايات مختلفة ربما يضادّ بعضها بعضاً مع اضطراب المتون وعدم السند فضلاً عن الاتصال والصحة"[3].

نوعية التحريف: إلا أن معظم العلماء قد جانبهم الصواب في فهم نوعية هذا التحريف فالإمام الفراهي أول عالم قام بالبحث والتحقيق في هذه القضية وعيّن نوعية التحريف الصحيحة فمن درس الإنجيل يعرف أن معظم أجزائه بأسلوب تمثيلي وقد استخدم

---

[1] راجع: عبقريات (المسيح) للعقاد

[2] تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 28

[3] إمعان في أقسام القرآن، ص 107

العديد من الألفاظ بمعانيها المجازية وهذا هو الأسلوب المجازي والتمثيلي الذي فتن أتباعه[1].

وقد نسي النصارى ما قاله هاديهم الحق "اللفظ يهلك والمعنى ينجي"[2]. فهم عكفوا على الألفاظ وبالتالي فقد ألقوا بأيديهم إلى التهلكة.

فمعظم تحريفات العلماء النصارى تتعلق بألفاظ معدودات بما فيها ابن، وأب، وربّ، وملكوت الله وما قاموا به من التحريف في الجمل هو مما أنتجه تأويل فاسد لتلك الألفاظ.

وقد قال الإمام الفراهي في كتابه "مفردات القرآن" عن الألفاظ الثلاثة الأولى (ابن، وأب، ورب) موضحاً مفاهيمها الحقة: "كلمة الابن في العبرانية تستعمل لمعنيين: (1) للنسبة، كابن السبيل، وابن الليل، أو كابن صبح، ابن حول وسنة. (2) للعبد، كالرجل، والفتى، والغلام. ولفظ "الابن" ليس كلفظ "الولد" صريح في الابنية ولذلك ترى في القرآن لم يشنّع إلا على لفظ "الولد"، وبيّن أن في استعمال لفظ "الابن" مضاهاة بالكفر، فينبغي أن يجتنب. كما أن لفظ "الرب" يشابه المعبود، فبيّن في القرآن أنهم أفرطوا في هذين اللفظين"[3].

---

[1] لم يضل العلماء النصارى بالأمثال فقط بل لم يفلت منها بعض علماء الإسلام والصوفية لاسيما صوفية الوجودية فمثلاً ذلك الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، الذي يقول فيه الله يوم القيامة: يا ابن آدم! مرضتُ فلم تعدني، قال: يا ربِّ! كيف أعودك؟ وأنت ربّ العالمين، قال: أما علمت أنّ عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم! استطعمتك فلم يطعمنين قال: يا ربّ! وكيف أطعمك؟ وأنت ربّ العالمين، قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلانٌ فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ ---"، رقم الحديث: 6556

فما فهمه محيي الدين ابن عربي من معنى هذا الحديث لا يخفى على العلماء وهناك أحاديث أخرى أخطأ في فهم معانيها الصوفية.

[2] إنجيل متى

[3] مفردات القرآن، ص 249-252 ويرى الشاه ولي الله المحدث الدهلوي أن "الابن" كان يستخدم في قديم الزمان للمقرّب، والحبيب، والمصطفى، وهناك نظائر عديدة لهذا المعنى في الإنجيل، راجع: الفوز الكبير في أصول التفسير، ص 18

ويؤيد هذه الفكرة التوراة فقد قال الله تعالى في صموئيل:

وبعدما أوضح معنى ومفهوم كلمة "الابن" قام بالبحث عما تدل عليه كلمتا "الأب" و"الرب" حقاً فقال "كل ما نجد في الإنجيل من "ابن الله" فهو "عبد الله" في المعنى وكل ما فيه من "أبونا" أو "أبونا وأبوكم" فهو: ربّنا وربّكم، كما ترجمه القرآن. وقد منع المسيح عليه السلام عن استعمال كلمة الرب لنفسه، وقال: "ربّنا واحد- وهو الله – وأنا وأنتم إخوة". وقد بدّلت النصارى هذا التعليم الواضح"[1]. ومن أوضح الأمثلة على تحريف هذا النوع ما جاء في متى:

"ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع والتحيات في الأسواق وأن يدعوهم الناس ربي ربي وأما أنتم فلا تدعوا ربي لأن ربكم واحد، المسيح وأنتم جميعاً إخوة ولا تدعوا لكم رباً على الأرض لأن ربكم واحد الذي في السماوات ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح وأكبركم يكون خادماً لكم فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع"[2].

وما نقلناه من المقتبس من إنجيل متى قد أخذناه من رسالة الإمام الفراهي "مفردات القرآن" فآيات الإنجيل، كما هو يصرح، كانت هذه هي فما تم التحريف في هذه الآيات قد كانت ذات صلة بكلمتي "الأب" و"الرب" ولذا فقد بدّل المحرّفون في طبعة بيروت "سيدي سيدي" بـ"ربي ربي" و"لأن ربكم واحد" بـ"لأن معلمكم واحد" كما بدّلوا "لأن ربا على الأرض" بـ"أبا على الأرض" و"لأن ربكم واحد" بـ"لأن أباكم واحد"[3]. ومن حسن الحظ أن الطبعة التي بأيدينا قد نشرت من بيروت وهي تمتلك نفس التحريف فاقرأوا:

"متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذي يخرج من أحشائك وأثبّت مملكته. هو يبني بيتاً لاسمي وأنا أثبّت كرسيّ مملكته إلى الأبد. أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً"، 12/7-14

وهذا من قواعد اللغة أنه كلما يريد أي كبير أن يعبّر عن لطفه ومحبته لمن هو أصغر منه فيخاطبه بابنه ولكن هذا من الأسف أن العلماء النصارى قد حمّلوه على الأصل فظنّوا المسيح ابن الله فضلّوا وأضلّوا.

[1] مفردات القرآن، ص 249-252

[2] إنجيل متى، 23/6-12

[3] مفردات القرآن، ص 249-252

"وأن يدعوهم الناس سيدي سيدي وأما أنتم فلا تدعوا سيدي لأن معلمكم واحد، المسيح وأنتم جميعاً إخوة ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السماوات"[1].

وقد كتب الإمام الفراهي عن ترجمة تلك الآيات الإنكليزية في الهامش الآنف الذكر أن كلمات "ربي ربي" قد بقيت فيها إلا أن البقية من التحريفات لم تنمح عن مكانها، وزدْ على ذلك ظلم المترجم الآخر أنه فصل "المسيح" عن "أنتم إخوة" بعلامة (:)، الأمر الذي أوصل "المسيح" بالآية السابقة بدلاً من "وأنتم جميعاً إخوة". وترجمة الإنجيل التي بين أيدينا وهي قديمة للغاية تمتلك نفس الفصل فاقرأوا الجمل:

"They like to have places of honour at feast and chief seats in synagogues, and greetings in the market, and to be called of men, Rabbi Rabbi. But be not ye called Rabbi: for one is your master, even Christ; and all ye are brother, and call no man your father upon the earth: for one is your father, which is in heaven"[2].

وفي ترجمة أخرى وهي باللغة الإنجليزية الحديثة قد حذف المترجم كلمة "المسيح" أصلاً وأقام مقامه كلمة "ربي" بالأحرف الجلية (Capital Letter)، اقرأوا تلك الترجمة:

"But you must not be called "rabbi"; for you have one Rabbi and you are all brothers"[3].

ولكن قول المسيح "إن ربكم واحد، الله ولا تدعوا لكم رباً سواه" قد بقي مكانه وسنتحدث عنه فيما بعد.

واللفظ الرابع هو ملكوت الله الذي قد أخطأ العلماء النصارى في تأويله لأجل قصر علمهم، وبالتالي فقد حرموا الدخول في ملكوت الله وحتى الآن يحرم أغلبيتهم هذه الفضيلة. وقد

---

[1] إنجيل متى (بالعربية)، 23/8-10

[2] إنجيل متى (بالإنجليزية)، 2/6-11

[3] The New English Bible، 2/6-11

أوضحنا في الصفحات السابقة أن عيسى قد جاء مبشّراً بنبي يأتي بعده وعلى هذا فقد بدأ دعوته بهذه البشرى فقد جاء في إنجيل متى:

"من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات"[1].

فماذا أراد عيسى بملكوت السماوات أو ملكوت الله؟ تختلف أقوال العلماء النصارى فترى جماعة منهم أن المراد منه ورود عيسى في الأرض مرة ثانية حينما يرجع إلى الأرض كابن آدم وربّ ويقيم ملكوت الله على الأرض، وتخالفها جماعة أخرى قائلة: إن هذه الأرض ستزول عن قريب وتقوم ملكوت الله على الأرض فيقول كاتب مقالة نشرت في موسوعة الأديان:

"The coming of God's kingdom implied the end of the world order as it was then known"[2].

ولكن حينما نتفكّر في المكان الذي جاءت هذه الكلمات في الإنجيل الحالي في ضوء السياق والسباق يتضح لنا خطأ كلتا الجماعتين النصرانيتين ونعلم جيداً أنه لا أريد به القضاء على الدنيا المادية ولا ورود عيسى الثاني وقيام ملكوت الله على الأرض بيده بل المراد به بعثة النبي الخاتم أصلاً.

وأغلب الظن أن العلماء النصارى القدامى قد عرفوا هذه الحقيقة ولذا فقد بذلوا أقصى جهودهم في تحريفها، وقد بيّن الإمام الفراهي في رسالته المذكورة أعلاه "الإكليل في شرح الإنجيل" اختلاف آرائهم عن ملكوت الله ناقلاً آيات متى ومرقس المتعلقة بالموضوع.

فقد جاء في متى أن عيسى عليه السلام سأل الفريسيين (فقهاء اليهود): ماذا تظنون في المسيح (أي ملك الموعود)؟ والآيات التي جاءت بعد هذا السؤال أي الآيات من "ابن من هو" إلى "من ذلك اليوم لم يحسر أحد أن يسأله" مما زادها الشرّاح النصارى لأنها ردّ لا يتعلق

---

[1] متى، 17/4

[2] Encyclopedia of Religion، 184/2

بالموضوع على السؤال المذكور فقد كان السؤال عن ملكوت الله لا عن النسب ولذا فنجد جملة الردّ غير واضحة ولا صالحة للفهم.

وأما إنجيل مرقس فقد حذف فيه هذا السؤال أصلاً فلم ينقل سوى "أية وصية هي أول الكل" فالردّ الذي قدّمه عيسى عليه السلام على هذا السؤال صدّقه أحد منهم (ولعله كان من الفريسيين) قائلاً بأنه مذكور كذلك في التوراة فلما سمع عيسى هذا التصديق قال: لستَ بعيداً عن ملكوت الله".

وهذا من العجب العجاب أن قد جاء السؤال عن ملكوت الله في متى ولو أنه ليس بواضح إلا أن الردّ عليه قد تم حذفه وما ذكر في مرقس من الرد ولكن السؤال الصحيح لا يوجد فيبدو منه أن مؤلفي كلا الإنجيلين قد حاولا أن يخفيا حقيقة ملكوت الله.

وقد جاء ذكر ملكوت الله في عظة مهمّة لعيسى تسمّت بـ"وعظ جبلي"، وقد فصّلت هذه العظة بالتفصيل في إنجيل متى. تبدو العظة بهذه الكلمات:

"طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانى، لأنهم يتعزّون. طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يشبعون. طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون. طوبى للأتقياء العقب --- لأن لهم ملكوت السماوات"[1].

وقد كتب الإمام الفراهي ناقداً ومحلّلاً هذه العظة: إن من قرأ نسخ الإنجيل هذه بالتأمل لا يخفى عليه أن المسيح عليه السلام إنما جاء مبشّراً بقرب ملكوت الله الظاهر الذي كان عبارة عن سلطة دينية. وقد كان أعطاه الله اليهود، وضيّعوه، ثم دارت عليهم الدوائر. وكانوا ينتظرونه مرة أخرى لوعد الله لهم، فبشّرهم المسيح بقربه، وعرّفه لهم بأمثال كثيرة تطابق مطابقة واضحة نبوةَ خاتم النبيين.

ولما لم يؤمن به جمهور قومه، وآيسه علماؤهم لقساوة قلوبهم وتعبّدهم لزخارف الدنيا، اصطفى من عامتهم البسطاء شرذمة قليلة لم يغلبهم الترف والحرص، لكيلا يعسر عليهم

[1] متى، 1/5-10

الدخول في ملكوت الله إذا ظهر، وحينئذ يكملون بالشريعة الكاملة. فأمرهم بوصايا تبقهم على حالة الفقر والمسكنة، ليبقوا على طهارة القلب والتقوى والصبر، ليتوب الله عليهم حسب سنته ووعده"[1].

ويردف الفراهي قائلاً: وإنما اخترنا هذا التأويل لأنه يجعل قول المسيح من أعظم البشرة ونبوة كبرى، ولا يخالف العقل ولا النقل. وذلك بأنه انطبق على أحوال المسيحيين، ووقع عليهم كلُّ ما أخبر عنه، فإن طائفة من أمته آثرت الفقر ونبذت المال. وطائفة آثرت الدنيا، وعبّروا الأوّلين بتسميتهم بالفقراء، وطردوهم، كما بشّر المسيح في أوّل هذه الخطبة.

ولم يكن ذنبهم إلا أنهم أعطوا أموالهم في سبيل الله وألزموا على أنفسهم الفقر، ولم يتركوا التوراة، وحرّموا الخنزير، وأوجبوا الختان، ولم يقولوا بألوهية المسيح، ولم يقبلوا إلا الإنجيل العبراني الذي ضيّعه الآخرون، وشنّعوا على بولوس الذي بدّل النصرانية"[2].

وما قام به العلماء النصارى من التحريف في آيات متى المذكورة أعلاه يكشف الفراهي عنه القناع ويقول[3]: إن هذه الوصايا إن أريد بها العموم والإطلاق تكون مخالفة لسنة أئمة الهدى كإبراهيم وداؤد وغيرهما. فإنهم قاتلوا، وانتصروا، وجمعوا الوفر، وأنفقوه في المواقع المحمودة، ولم يكونوا عيالاً على الناس.

ولدفع هذا الاعتراض زادوا في رواية متّى ما يحرّف الكلامَ عن معناه: فقال: طوبى للمساكين بالروح"، وكذلك "طوبى للجياع وللعطاش إلى البرّ لأنهم يشبعون".

وهذا لا يبدّل الكلام الذي فيه الخطاب إلى الفقراء والمساكين من جهة المال لا من جهة الروح"[4].

---

[1] إمعان في أقسام القرآن، ص 112

[2] المصدر نفسه، ص 112-113

[3] وقد قام العلماء النصارى بالتحريف في معظم الأماكن لأنهم قد عجزوا عن فهم محتوى الكلام كما يتضح من هذا المقتبس.

[4] إمعان في أقسام القرآن، ص 110

فقد اتضح جلياً من هذا الحديث أن الإنجيل قد مرّ بالحذف والإضافة باسم الشرح والتفسير فلم يكشف الفراهي القناع عن هذه الحريفات فحسب بل قام بإصلاحها وإعادة الأصل إلى مكانه.

تقديس الإنجيل: ولا ينبغي لأحد أن يسيئ الظن بالفراهي بأنه لا يقدّس الإنجيل ولا يبجّله كما يبدو من دراسة كتابات معظم علماء الإسلام فبالرغم من بعض التحريفات في الإنجيل يقدّس الفراهي الإنجيل ويقدّره حقاً فإنه من إرشادات القرآن الكريم أن يؤمن الإنسان بكافة الكتب السماوية بدون أيّ تفريق بينها.

فقد كتب الإمام الفراهي بكل أسف على من لا يقيم للإنجيل وزناً من بين العلماء المسلمين فقال: وكذلك نرى بعض المسلمين يسخرون من بعض عبارة الإنجيل، ولو أوّلوها إلى تعليم القرآن لكان أجدر بهم، وأمرنا في القرآن بالإيمان بما تشابه في القرآن ولا نرى علة لانطواء هذا الحكم عن سائر الكتب المقدّسة والتكذيب ممن جهل التأويل ذنب عليه. كما قال الله تعالى: "بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله كذلك كذّب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين" (سورة يونس: 39) وكذلك يأمرنا قول النبي الكريم ﷺ بأن "لا تصدّقوا أهل الكتاب (يعني فيما رووا عن الكتب المقدّسة فإنهم لم يحفظوه) ولا تكذّبوهم" (فإنه يمكن أننا لم يأتنا تأويله)"[1].

فبدا من هذا المقتبس أن الإمام الفراهي قد قام بتحليل الإنجيل كداعٍ مخلص كما راعى ما كان يقتضيه وبناءً على هذا فإنه لم يستخدم أسلوباً جدالياً، حين انتقاد وتحليل آيات الإنجيل، أسلوباً لا يراد به سوى ترديد نظرية المعارض وتنقيصها، فما قام به علماء الإسلام من الانتقادات على الإنجيل وأتباعه يملؤه أسلوب الجدل والمناظرة، الأمر الذي أسفر عن إبعاد النصارى عن القرآن الكريم.

[1] تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص 36-37

فكان الفراهي لا يحبّ هذه المعاملة الغير حكيمة وقال بأسلوب ملؤه حزن وأسف: وأنت ترى بعض المسلمين يسخرون بآيات الإنجيل، وإلى الله المشتكى ممن يسخر بالمسيح نفسه، وقد نهينا عن الجدال إلا بالتي هي أحسن وعن سبّ أربابهم، فلم يزدهم إلا تنفراً وتباعداً، فحرموا قبول الحق، واتسع بيننا الشق. ولما أن الحق يعلو على الباطل، والنور يمحو الظلمة لا حجة أبلغ من أن نضعهما معاً، ليصطفي العاقل منهما خيرهما"[1].

وهذه هي العاطفة الدعوية للفراهي التي جرّته إلى فكرة قيامه بشرح الإنجيل لكي يسدّ نقص ضلال أتباع الإنجيل ويفتح لهم السبيل إلى قبول الحق فقال في موضع من تفسيره: ونذكر في مقدمة أخرى بعض ما ضلّت فيه النصارى، فمنه ما هو قطب رحى دينهم. الأول: لفظ الابن والأب، والثاني: أن الخبز والشراب ينقلب لحم عيسى ودمه، والثالث: أنه قاعد في يمين الرب وينزل في فوج الملائكة، ويحكم عليهم يوم القيامة، والرابع: أنه يرسل فارقليط، فيعلّمهم تفاصيل الشريعة واضحة، والخامس: أن رجال قرنه يرون ما أنذر به"[2].

قد بدأ الإمام الفراهي بكتابة هذا الشرح باسم "الإكليل في شرح الإنجيل" إلا أنه لم يوفّق إتمامه ولكن مع ذلك هذه الرسالة الغير تامة تشهد حقاً على أنه كان يطوي بين جنبيه نصحاً مخلصاً لأهل الإنجيل وكان يقدّسه بالرغم من بعض التحريفات فيه.

هل يوجد الحق في الإنجيل؟ وحينما نقول بأن الإنجيل محرّف فيفهم الناس به عادة أنه لا يوجد الحق فيه الآن، ونقعد حيارى حينما نسمع مثل هذا القول من أفواه العلماء، وذلك لأنهم لا يمعنون النظر في الإنجيل. ودع الإنجيل فإنه محرّف لديهم، كم من المسلمين يقومون بتدبر القرآن الكريم. والواقع أن الإنجيل يطوي بين دفتيه أنواعاً من الحق إلى الآن. وإذا تفكّرت فيه في ضوء سياق آياته وسباقها ونظائرها الموجودة في الإنجيل، وفوق ذلك في ضوء القرآن الكريم فسينكشف لك التحريف بل تفوز بإرشاده الحقيقي.

---

[1] المصدر نفسه، ص 37-38

[2] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

وملخص ما قام به الفراهي من التحقيق في هذا الباب أن الحق يوجد في الإنجيل حتى الآن فقال محيلاً إلى حديث للمسيح عن ترك الدنيا: وهو أنه لا كمال في ترك الدنيا بأسرها، فبيّن لهم أنّ هذا كمال إضافيّ: وهو التطهر عن الذنوب بالفرار عن الامتحان. وكان ذلك سنته تعليماً للذين عجزوا عن كمال أكمل، فقال "ليس التلميذ أفضل من معلّمه بل كل من صار كاملاً يكون مثل معلّمه (لوقا).

والمبتدعون لم يرضوا بأن تكون سنته كمالاً إضافياً، فزادوا في رواية متّى: "فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات كامل". وفي رواية لوقا عوض هذه الجملة: "فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم".

هيهات هيهات! هل يساوي العبد ربَّه؟ ولكن الحقّ غالب، يبقى على رغم معانديه، ويطمس على عيونهم، فانظر إلى تصريحه بما ينفي شائبة الشرك، ويبيّن أن كماله كمالٌ إضافي مما يختصّ بالفقراء"[1].

وأما قول الفراهي "الحقّ غالب، يبقى على رغم معانديه" فيحتل أهمية كبرى كما أنه يحمل الكثير على الاستعجاب فيناسبنا هنا أن نفصّل هذا القول شيئاً ما ولهذا الهدف نأخذ تلك الألفاظ الثلاثة التي قد تعرّضت لتحريف العلماء النصارى؛ الرب وملكوت السماوات (ملكوت الله) وأحمد (فارقليط).

فقد تناولنا كلمتي "الرب" و"ملكوت الله" فيما سبق فلا نناقشهما إلا قدرما يثبت أن معاني تينك الكلمتين قد بقيت كما هي بعد أن مرّتا بالتحريف الشديد.

فتعتقد النصارى اليوم أن عيسى ربّهم (Lord) وهو سيرجع إلى هذه الدنيا كربّ ولكن هذه العقيدة تعارض تعليم عيسى الحقيقي فقد صرّح المسيح بكلمات واضحة عن ألّا يعتبروا أحداً ربّهم سوى الله ولو هو ذاته ولكن من جاؤوا بعده بدّلوا هذا الإرشاد وقد نقلنا، فيما

[1] إمعان في أقسام القرآن، ص 108-109

سلف، مقتبساً من إنجيل متى بهذا الشأن فالمرجو منكم إلقاء نظرة خاطفة على ما يلي من الكلمات:

"ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع والتحيات في الأسواق وأن يدعوهم الناس ربي ربي وأما أنتم فلا تدعوا ربي لأن ربكم واحد، المسيح وأنتم جميعاً إخوة ولا تدعوا لكم رباً على الأرض لأن ربكم واحد الذي في السماوات ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح وأكبركم يكون خادماً لكم فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع"[1].

وكما قلنا سالفاً أن "لأن معلمكم واحد" أقيم مقام "لأن ربكم واحد" من هذا المقتبس وذلك أن النصارى يعتقدون أن المسيح ربهم (Lord) والحال أن هذه الآية تقطع دابر هذه العقيدة، وإن اعترفنا، لمدة قصيرة، بأن "معلمكم واحد" كانت الآية كما تدعي النصارى فستكون هذه الجملة غير مرتبطة حسب نظم الكلام، ومع ذلك أن هذا الإرشاد الخاص لم يحتج إليه هنا بالإطلاق لأن هذا الإرشاد قد جاء بعد آية في هذه السلسلة للإرشادات فقيل "ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح" فهل لا يتضح من هذا أن العلماء النصارى قد بدّلوا الآية الحقيقية "لأن ربكم واحد" بـ"لأن معلمكم واحد".

ولكنه بالرغم من هذا التبديل أن الإرشاد الحقيقي يصان في غير هذا من مواضع الإنجيل فتوجد الآية التالية في بداية إنجيل متى حيث ابتلي عيسى عليه السلام بيدي إبليس:

"حينئذ قال له يسوع اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد"[2].

ففي هذه الآية جاءت كلمة "الرب" والتي تبادلها كلمة "Lord" بالإنجليزية، وهنا قد استخدمت كصفة لله تعالى، وبعبارة أخرى أن الله هو رب العالمين. وقد جاء هذا الإرشاد بصورة أوضح في موضع آخر من إنجيل متى فقد سأل الفريسيون (فقهاء اليهود) عيسى

---

[1] متى، 7/22-11

[2] المصدر نفسه، 4:10-11

عليه السلام لكي يبلوه: يا معلّم أية نصيحة هي العظمى في الناموس؟" فقال: "تحبّ الربّ إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك، هذه هي الوصية الأولى والعظمى"[1] فترى في هذه الآية أيضاً أن كلمة "الرب" جاءت مع "الله" لذات واحد فكأن الذي هو الله هو الرب ولا ربّ سواه، وفي الإنجيل مواضع أخرى تشبهها.

فهل يمكن لأحد أن يقول بعد هذه الآيات إن الإنجيل لا يوجد فيه تعليم التوحيد، وأما السؤال: لم يعتبر النصارى عيسى عليه السلام ربّاً بعد هذه الآيات؟ فالردّ عليه واضح تماماً فقد جاء في غير موضع من القرآن بكلمات واضحة أن كافة الأنبياء كانوا بشراً والنبي الخاتم أيضاً كان بشراً ولكنه بالرغم من هذا الإرشاد الواضح لم يعتبر أغلبية المسلمين نبيهم الخاتم ما فوق البشر؟ والسبب واحد في كلا الأمرين وهو العلماء السوء الذين يبدّلون الإرشاد الإلهي الحقيقي بتأويلهم الباطل.

ومراد عيسى عليه السلام من "ملكوت الله"، كما مضى، كان بعثة النبي الخاتم ولذا فقد أضاف العلماء النصارى كلمات أو جملاً في كافة المواضع التي جاء فيها ذكر هذه البشرى لكيلا تنطبق هذه الآيات على خاتم النبيين محمد ﷺ، وقد نجحوا في محاولتهم هذه في بعض الأماكن إلا أن هناك مواضع في الإنجيل حتى الآن بفضل الله جلّ وعلا، تشهد واضحاً على أن المراد من ملكوت السماء ليس إلا بعثة النبي الخاتم ﷺ.

ونذكر على سبيل المثال أنّ عيسى عليه السلام فقال: كان إنسان ربّ بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجاً وسلّمه إلى كرّامين وسافر. ولما قرُب وقت الأثمار أرسل عبيده إلى الكرّامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرّامون عبيده وجلدوا بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً. ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأوّلين. ففعلوا بهم كذلك. فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابني. وأما الكرّامون فلمّا رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلمّوا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه. فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرّامين. قالوا له. أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً ردياً ويسلّم

[1] المصدر نفسه، 22/36-37

الكرم إلى كرّامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها. قال لهم يسوع أما قرأتم قط في الكتب. الحجر الذي رفضه البنّاؤون هو قد صار رأس الزاوية. من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا. لذلك أقول لكم إنّ ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره ومن سقط على هذا الحجر يترضّض ومن سقط هو عليه يسحقه"[1].

وقد ذكرت أمثال أخرى بليغة لطيفة في إنجيل متى في هذا الشأن، نصرف عنها الذكر مخافة التطويل[2].

والهدف الثاني لتحريف العلماء النصارى كان "أحمد" فقد جاء في سورة الصف:

"وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد"[3].

ففي هذه الآية ذكر عيسى اسم النبي الذي يتبعه أحمد ولعل أندر مثال في تاريخ الأنبياء أن نبياً بشّر برسول يأتي بعده بتعيين اسمه البديهي أن الإيمان بالرسول الخاتم كان سهلاً للنصارى بعد هذه البشرى الواضحة المبينة ولكن العلماء النصارى قد قاموا بالتحريف في هذا الاسم حين ترجمة الإنجيل لأجل عصبيتهم القومية والدينية.

الترجمة الأولى للإنجيل تمت باللغة اليونانية فاللغة البديلة لأحمد في هذه اللغة هي Periclytos[4] ولكن هناك كلمة أخرى تشبهها وهي Paracletus فاستغلّ العلماء النصارى هذه المشابهة اللفظية فترجموها بـ"معزٍّ" ولكن هذا التحريف قد محا بشرى النبي الخاتم عن الإنجيل؟ لا، فقد بقيت هذه البشرى بكلمات صريحة بالرغم من محاولاتهم المتعبة فاقرءوا الآيات المذكورة أعلاه من إنجيل يوحنا:

---

[1] المصدر نفسه، 21/33-45

[2] راجع: متى، 13/24-34، و18/1-6، و20/1-16، و22/1-14

[3] سورة الصف: 6

[4] وترادفها بالسريانية "منحمنا" وبالرومية (اللاطينية) "برقليطس" انظر: سيرة النبي، 1/149

"وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد[1]"[2]

"بهذا كلّمتكم وأنا عندكم وأما المعزّي الروح القدس[3] الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلّمكم كل شيئ ويذكّركم بكل ما قلته لكم"[4]

"ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب فهو يشهد بي"[5]

"لا أتكلّم أيضاً معكم كثيراً لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له فيّ شيئ"[6]

"لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي"[7]

"إنّ لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية"[8]

فهل يقول نصراني عدل بعد ذلك إن الآيات المذكورة أعلاه لا تطوي ذكر تلك البشرى عينها التي جاء ذكرها في سورة الصف فالآيتان الأخيرتان المشار إليهما (16/12-13) تنطبقان

---

[1] وما يلحقها من الآية "روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله" زائدة.

[2] 14/16-17

[3] هذه جملة تفسيرية للعلماء النصارى ألحقوها إليها ولنضع هنا بأعيننا أننا نجد اختلاف القرآت عندنا فمثلاً يقرأ ابن عباس "ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج" بينما قد عزيت إلى عائشة قرأة "والصلوة الوسطى، صلوة العصر" ولكن هذه الجمل التفسيرية ليست بملحقة إلى النص القرآني والحمد لله على ذلك.

[4] 14/25-26

[5] 15/26

[6] 14/30

[7] 16/7

[8] 16/12-13

تماماً على النبي الخاتم ﷺ فكلماتها "أنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به" تشبه ما جاء في سورة النجم معنًى ومحتوًى من "وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى"[1].

فبدا من هذا أن الحق موجود حتى الآن في الإنجيل بالرغم من بعض التحريفات فيه والسبب من ورائه أسلوبه التمثيلي الذي لم يدع المحرّفين أن ينجحوا في أهدافهم السيئة تماماً وإن لم يكن الحق موجوداً فيه فلم يؤمر النصارى بإقامته في القرآن الكريم، فاقرءوا الآيات التالية وهي حجة دامغة على ما قلنا:

"قل يا أهل الكتاب لستم على شيئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم"[2].

وقال في موضع آخر:

"ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم"[3].

فما جاء في هذه الآيات من إقامة التوراة والإنجيل يعني جلياً أنهما تطويان الحق بين طياتهما فإن إقامة الكتاب المحرّف لا تعني شيئاً ولكن علماء الإسلام لم يقبلوا هذا المعنى وادّعوا أنه لم يرد من هذين الكتابين التوراة والإنجيل اللذان يوجدان إلى الآن بل أريد بهما ذانك الكتابان السماويّان اللذان كانا موجودين في العهد النبوي إلا أنهما قد ذهب بهما الدهر الآن.

ولكن هذه الفكرة لا تصح فأقدم نسخة للإنجيل تم العثور عليها تتعلق بالقرن الرابع الميلادي فهي تردد فكرة علماء الإسلام تلك أن الإنجيل المتواجد الآن لا يمت إلى العهد النبوي بصلة. وبالرغم من هذا فلو أمعنوا النظر في الآيات المذكورة أعلاه فلم يقطعوا في هذا الخطأ فلم يأمر القرآن أهل الكتاب بأن يقيموا التوراة والإنجيل فحسب بل يشملها

---

[1] سورة النجم: 3-4

[2] سورة المائدة: 68

[3] السورة نفسها: 66

إقامة القرآن الكريم أيضاً فقد أشير إلى هذا الجانب في كلمات "وما أنزل إليكم من ربكم"، ولنضع أمام أعيننا أن القرآن قد اعتبر مهيمناً[1] على هذه الكتب أي القرآن قد صان مبادئ التوراة والإنجيل فهو يقوم مقياساً حين الاختلاف.

من له إلمام بنفسيات الأقوام وعصبياتهم القومية والدينية يقدر جيداً على فهم السبب وراء أمر أهل الكتاب بإقامة التوراة والإنجيل بجانب إقامة القرآن الكريم. إن هذه الآية بإمكانها أن تثبت معلماً في سبيل تبليغ الدين بين ظهراني غير المسلمين فلو استفاد المسلمون من حكمة الدعوة هذه لأمكن أن يتجلّى بنور الإسلام عدد لا يحصى من القلوب ولكن من الأسف أننا معشر المسلمين لا نتذكّر حكمة الدعوة هذه.

وما قمنا به من تقديم نظرية الإمام الفراهي عن الإنجيل في الصفحات السابقة بدا منه أن الإمام الفراهي قد استعرض الإنجيل كداعٍ مخلص، إنه لم يكشف القناع عن التحريفات في الإنجيل لكي يبتلي النصارى بالشعور بالدناءة الدينية في جانب وفي جانب آخر يبتلي المسلمين بالشعور بالاستعلاء بل أراد به أن يتجلّى الحق للنصارى، وعلى هذا فقد أشار بالبنان إلى تحريفات الشارحين النصارى في جانب وفي جانب آخر أوّل الآيات المحرّفة تأويلاً صحيحاً في ضوء الإنجيل ذاته. وهذا الموقف يميّز الإمام الفراهي عن غيره من النقّاد المسلمين ويهدي العلماء والباحثين إلى الصراط السوي خلال دراسة الكتب السماوية.

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. Encyclopedia Britannica، 1950م

[1] فقال تعالى: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ---"، سورة المائدة: 48

3. Encyclopedia of Islam، ليدن، 1971م
4. Encyclopedia of Religion، نيويورك، ليدن، 1987م
5. Holy Bible، لندن، 1611م
6. Jews' Encyclopedia، لم يذكر اسم المطبع وسنة الطبع
7. The New English Bible، مطبعة جامعة أوكسفورد، جامعة كيمبريج، 1961م
8. ابن منظور: لسان العرب، بيروت، 1956م
9. ابن هشام: سيرة النبي، مطبع محمد علي الصبيح، الأزهر الشريف، القاهرة، سنة الطبع لم تذكر
10. أبو الحسن علي الندوي: منصب نبوت اور اسکے عالی مقام حاملین (النبوة والأنبياء)، لكناؤ، سنة الطبع لم تذكر
11. الإمام الرازي: العلل، مصر، لم يذكر اسم المطبع وسنة الطبع
12. أمين أحسن الإصلاحي: تدبر قرآن، شركة تاج، دلهي، 1989م
13. حميد الله، الدكتور: خطبات بهاولفور، إداره تحقيقات إسلامي باكستان، 1985م
14. رشيد رضا المصري: تفسير المنار، مصر، 1234هـ
15. الشاه ولي الله الدهلوي: الفوز الكبير في أصول التفسير (الترجمة الأردوية)، مكتبة برهان، دلهي، 1963م
16. عبد الحق الحقاني: فتح المنان، لاهور، 1364هـ
17. عبد الحميد الفراهي: الإكليل في شرح الإنجيل (مخطوط)
18. عبد الحميد الفراهي: إمعان في أقسام القرآن، دار القلم، دمشق، 1994م
19. عبد الحميد الفراهي: مفردات القرآن، دار الغرب الإسلامي، 2002م
20. عبد الحميد الفراهي: نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، 2008م
21. العلامة الزمخشري: الكشّاف، اسم المطبع لم يذكر، مصر، 1354هـ
22. الكتاب المقدس (كتب القديم والعهد الجديد)، اسم المطبع لم يذكر، بيروت، 1930م

23. محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس، بيروت، لم يذكر اسم المطبع وسنة الطبع
24. محمود العقاد: عبقريات المسيح، اسم المطبع لم يذكر، القاهرة، 1952م
25. ناصر الدين البيضاوي: أنوار التنزيل (التفسير البيضاوي)، مطبع نولكشور، لكناؤ، 1382ھ

منهج الحـــوار وقبول الآخـــــر

في هدي الرسول محمد ﷺ

- د. سند أحمد عبد الفتاح

وصاحب عالم الأعظمي الندوي

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلّ اللهم وسلّم وبارك على رسولنا ونبينا الكريم محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين... أما بعد!

فلكل حضارة عبر عصور التاريخ صفاتها التي تميّزها عن غيرها من الحضارات الأخرى التي تكسبها طابعاً مميزاً خاصاً عن الحضارات السابقة عليها واللاحقة بها. وقد كانت الحضارة الإسلامية باعتراف الجميع شرقاً وغرباً من أعظم الحضارات التي عرفها العالم لما تحويه من صفات إنسانية وعالمية هدفت إلى خير الإنسان وسعادته والعمل على السموّ به إلى أعلى المستويات روحياً وفكرياً ومعيشياً.

من هذا المنطلق حفلت الحضارة الإسلامية بالكثير من المفاهيم والمصطلحات التي تتباين في أصولها وتكوينها وطابعها العامّ وأهدافها، ولكنها يرتبط بعضها مع البعض برباط مشترك هو صالح الفرد والمجتمع، ومن تلك المفاهيم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهّرة (**الحواروقبول الآخر**)؛ هذا المصطلح الحتمي الذي فرضته طبيعة الحياة بالعلاقة المباشرة بين طرفين تقوم على التعبير وتبادل الأفكار والحجج والبراهين بهدف التواصل والإقناع والتأثير والتعايش طالما أن هذا التعايش لا يمسّ شئون العقيدة أو الثوابت الدينية.

والثابت من خلال كتب الصحاح والسنن أن النبي ﷺ وضع قواعد الحوار ومنهجية الاختلاف مع الآخر، وضرب لنا أروع الأمثلة على التعايش مع الآخر حتى ولو كان على غير دينه، أو اختلفت عاداته وتقاليده عما نشأ عليه النبي ﷺ من عادات وتقاليد، وهو ما يوضح أن النبي ﷺ كانت له منهجية في هذا الأمر تستحق الدراسة؛ ويكفي شاهداً على ذلك تلك المكتبة العربية الإسلامية المليئة بالكتب التي تناولت بالدراسة "الحوار: آدابه وضوابطه وشروطه ومقوماته"؛ والتي ما هي إلا "**استشراف مستقبلي**" من حوارات الرسول ﷺ مع المسلمين وغير المسلمين خلال الطورين المكّي والمدني؛ وحينما نتحدّث عن المحاور الأول في الإسلام وهو الرسول ﷺ فإنما نتحدّث عن أدب الحوار القرآني من قبل النبي ﷺ؛ الذي كان قرآناً يمشي على الأرض.

حقيقة ليس من السهل إفراد بضعة وريقات لموضوع الحوار وقبول الآخر في هدي الرسول محمد ﷺ؛ والأولى أن تفرد له المجلدات؛ فحواراته ﷺ جدّ كثيرة يصعب حصرها، ويحسب للمملكة العربية السعودية ممثلة في الجامعة الإسلامية اهتمامها بهذا الموضوع في هذا العصر الممزوج بالدخن والمخاصمة؛ والذي نحن أحوج ما نكون فيه إلى التمسك بآداب الحوار عند الرسول ﷺ من خلال حواراته العملية والتعليمية والتي خرجت بسفينة الإسلام من غياهب الظلمات إلى برّ الأمان والنور. وصدق الكاتب الإنجليزي برنارد شو في قوله: "لو أن محمداً بن عبد الله كان موجوداً في زماننا هذا لحلّ مشاكل العالم وهو يتعاطى فنجاناً من القهوة"، لذا كان لا بدّ من تسليط الضوء على هذا الموضوع الجلل من خلال حوارات الرسول ﷺ خلال عصر النبوة.

وتتناول هذه الورقة البحثية منهجية الحوار وقبول الآخر في هدي الرسول محمد ﷺ من خلال عدة محاور:

المحور الأول: إشكالية المصطلحات والمفاهيم: أولاً: الحوار والجدل: المفاهيم والمصطلحات وثانياً: ضوابط وآداب الحوار مع الآخر من خلال هدي الرسول محمد ﷺ:

المحور الثاني: الرسول ﷺ ومنهجية الحوار وقبول الآخر مع الصحابة.

المحور الثالث: الرسول ﷺ ومنهجية الحوار وقبول الآخر مع من هم من غير ملة الإسلام: أولاً: حواره ﷺ مع متحنفي العرب. وثانياً: حواره ﷺ مع المشركين. وثالثاً: حواره ﷺ مع اليهود. ورابعاً: حواره ﷺ مع النصاري.

المحور الرابع: حقوق الرسول ﷺ من خلال كتابات المستشرقين المحدثين، وإنصافهم له.

والورقة البحثية مذيلة بخاتمة بها أهمّ النتائج والتوصيات التي وصلت إليها خلاصة البحث، بالإضافة إلى قائمة من المصادر والمراجع التي رجع إليها الباحث لاستيفاء بحثه.

المحور الأول: إشكالية المصطلحات والمفاهيم

أولاً: الحوار والجدل: المفاهيم والمصطلحات: أجمعت معظم المصادر الإسلامية على أن الحوار في اللغة من الحور: وهو الرجوع عن الشيء إلى الشيء، والمحاورة: المجاوبة، والتحاور: التجاوب. والمحاورة: مراجعة المنطق، والكلام في المخاطبة"[1].

والمحاورة والحوار: المرادّة في الكلام، ومنه التحاور"[2].

والحوار في الاصطلاح من المعاني المتقدمة تدل - في الأصل - على وجود طرفين - فردين أو أكثر - في مواجهة، يريد كلّ منهما إثبات رؤيته أو وجهة نظره حقاً كانت أم باطلاً، ويتّسع المصطلح ليشمل أشياء كثيرة غير هذا، فليس بالضرورة في الحوار أن يكون بين طرفين متعارضين، إنما قد يكون بين أطراف متحدة أو متقاربة في المنهج والرؤية، وذلك لحلّ قضية أو مسألة أو تعلّم أو استخبار.. إلخ، وهذا كله يعود إلى المحاورة والمرادّة في الكلام حتى يكون الحوار مثمراً ومجدياً، وبعيداً عن الخصومة والتعصب[3].

---

[1] لسان العرب، 217/4؛ والمقاييس في اللغة، 217/1؛ وعقائد اليهود من خلال الحوار مع النبي ﷺ، ص3 ؛ وأدب الحوار، ص8-9.

[2] المفردات في غريب القرآن، 137/1.

[3] الحوار أصوله وآدابه وكيف نربي أبنائنا عليه، ص30.

هذا، وورد استعمال القرآن الكريم للمادة اللغوية (حور) في ثلاثة عشر موضعاً أحدُها بمعنى الرجوع، أي العودة إلى الحياة بعد الممات في قوله تعالى "إنه ظنَّ أنْ لنْ يحورَ"[1]، وبمعنى "بياض العين في سوادها" وذلك بلفظ "حُور" في صفة نساء الجنة في أربعة مواضع، منها "مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ"[2]. واستعملت بمعنى أنصار عيسى عليه السلام في خمسة مواضع، منها "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ"[3]واستعملت بمعنى الحوار والمحاورة في ثلاثة مواضع؛ قوله تعالى "فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً"[4]. وقوله "قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً"[5]. وقوله "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِير"[6] وقدّم لنا القرآن الكريم نماذج كثيرة من الحوار، فوردت فيه كلمة "قال" حوالي خمس وعشرين وسبعمائة مرة للدلالة على وجود حوار بين طرفين، ومن الصعب استقصاء نماذج الحوار في القرآن الكريم لكثرتها؛ نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ما دار بين الله عزّ وجلّ وملائكته بصدد خلق آدم عليه السلام[7]، وما دار بين الله سبحانه وتعالى وإبراهيم عليه السلام بمعرض طلبه من ربّه كيف يحيي الموتى[8]، وحوار موسى عليه السلام حين طلب من ربّه أن يسمح برؤيته[9]، وحوار عيسى عليه السلام بصدد طلبه من ربّه أن ينزل عليه مائدة من السماء[10]، وحوار قصة أصحاب الجنتين في

---

[1] سورة الانشقاق: 14؛ وعن معنى الاشتقاق اللغوي لتلك الكلمة انظر: الحوار أصوله وآدابه، ص 28-29.

[2] سورة الطور: 20.

[3] سورة الصف: 14.

[4] سورة الكهف: 34

[5] السورة نفسها: 37.

[6] سورة المجادلة: 1.

[7] سورة البقرة: 30-32.

[8] السورة نفسها: 260.

[9] سورة الأعراف: 143.

[10] سورة المائدة: 116.

سورة الكهف[1]، وحوار إبراهيم مع ولده إسماعيل في قصة الذبح[2]، وحوار قارون مع قومه[3]، وداوود عليه السلام مع الخصمين[4]، ونوح عليه السلام مع قومه[5]، وفي شعيب عليه السلام مع قومه[6]، وحوار ابني آدم[7]، وحوار موسى والعبد الصالح[8]، وغيرها كثير بين ثنايا الآيات القرآنية وجميعها يدلّ على أهمية الحوار وخطورته[9]. أما عن مشتقات كلمة الحوار في السنّة النبوية فوردت في عدة أحاديث منها قول الرسول ﷺ "من دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدوّ لله، وليس كذلك إلا حار عليه"[10]، أي رجع عليه بالكفر، ومنها قوله ﷺ إذا سافر "اللهم إني أعوذ بك من الحور بعد الكور" أي الرجوع من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية[11]. أما عن الجدل فهو اللدد في الخصومة والقدرة عليها، ومقابلة الحجة بالحجة ويقال: جادلت الرجل فجدلته جدلاً أي غلبته. ورجل جدِل، إذا كان أقوى في الخصام. وجادله أي خاصمه مجادلة وجدالاً"[12]. وذُكر لفظ الجدل في القرآن الكريم تسعاً وعشرين مرة كلها في سياق الذمّ، إلا في ثلاثة مواضع[13]، أما بقية المواضع في القرآن[14] فإما أن تكون في

---

[1] سورة الكهف: 32.

[2] سورة الصافات: 102.

[3] سورة القصص: 76.

[4] سورة ص: 21، 22.

[5] سورة الأعراف: 59.

[6] سورة هود: 84.

[7] سورة المائدة: 27 -29.

[8] سورة الكهف: 65.

[9] للمزيد عن نماذج الحوار في القرآن الكريم بالتفصيل انظر ما يلي: الحوار الناجح في ضوء حوارات الأنبياء والرسل، ص 27 وما بعدها؛ والحوار في القرآن الكريم، ص 27 - 99؛ وفي أصول الحوار، ص 13، 14 .

[10] مساويء الأخلاق، ص37 والحديث: 13 (باب ما يكره من لعن المؤمن وتكفيره).

[11] جامع الترمذي، 327/4؛ والجامع لأحكام القرآن، 195/1؛ والحوار لموسى، ص77-78.

[12] لسان العرب، 105/11؛ والمفردات في غريب القرآن، 163/1؛ وعقائد اليهود، ص4 -5؛ والحوار لموسى، ص31-32؛ وأدب الاختلاف في الإسلام، ص21.

[13] سورة النحل: 125؛ وسورة العنكبوت: 46؛ وسورة المجادلة: 1.

[14] سورة الزخرف: 58 ؛ وسورة غافر: 4-5 على سبيل المثال لا الحصر.

سياق عدم الرضا عن الجدل، وإما عدم جدواه، أو يفتقد شرطاً أساسياً كطلب الحق، أو يكون بغير علم أو نحوه.

والجدل في نصوص القرآن والسنة على نوعين متباينين: الأول: الجدل المذموم؛ وهو الذي يدور في طلب المغالبة لا الحق، أو الذي فيه نوع من الخصومة واللدد، مثل قوله تعالى: "وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قومٌ خصمون"[1]، ومثله قوله تعالى في ذمّ جدال الكافرين "ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلّبهم في البلاد"[2]، وقوله تعالى: "وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق"[3]، وقوله تعالى: "لا جدال في الحج"[4]، وبيّن ابن منظور أنه "لا ينبغي للرجل أن يجادل أخاه، فيخرجه إلى ما لا ينبغي"[5].

وقد بوّب الأئمة في كتبهم نقلاً عن الرسول ﷺ ما يدلّ على كراهية الجدل المذموم، من قبيل قول الرسول ﷺ "المراء في القرآن كفر"[6]، وحديث السيدة عائشة رضي الله عنها حيث قالت "تلا رسول الله ﷺ هذه الآية "هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات متشابهات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ---[7]، فقال ﷺ: يا عائشة إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عناهم الله فاحذروهم"[8]، وحديث "ما ضَلَّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أُوتوا الجدل" ثم تلا قوله تعالى

---

[1] سورة الزخرف: 58

[2] سورة غافر: 4

[3] سورة غافر: 5.

[4] سورة البقرة: 197.

[5] لسان العرب، 105/11.

[6] فضائل القرآن، 313/1، رقم الحديث: 642، (باب المراء في القرآن).

[7] سورة آل عمران: 7.

[8] سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، ص45 رقم الحديث: 25.

"بل هم قوم خصمون"[1]. والمراد بذلك كله الجدل على الباطل وطلب المغالبة به، لا الجدل بحثاً عن الحق وفي طلبه[2].

والثاني: الجدل المحمود، وهو الذي يكون في طلب الحق بالأسلوب الحسن بعيداً عن الخصومة؛ حيث ورد الجدل في آيتين مقيداً بقوله تعالى: "وجادلهم بالتي هي أحسن"[3]، والقيد بالتي هي أحسن يفيد المعنى الواسع لكلمة الأحسن، بما يشمل الطرق والأساليب والمناهج والآداب والأخلاقيات، وإذا كان القرآن الكريم قد دعا إلى الجدل بالتي هي أحسن فمن باب أولى أن يكون الحوار بالتي هي أحسن؛ لأن الحوار هو الأصل والجدل هو الاستثناء؛ فالحوار سلوك طبيعي مفترض بين الناس،عكس الجدل هو سلوك لحالات خاصة، خاصة إذا ما علمنا أن أصل استعمال القرآن الكريم لكلمة الجدل هو الذمّ[4].

وقد ورد عن الرسول ﷺ قوله "ما مجادلة أحدكم في الحقّ يكون له في الدنيا، بأشدّ من مجادلة المؤمنين لربّهم الذين أدخلوا النار"[5]؛ فبيّن الحديث أن المجادلة إنما تكون في الحق. وهو بهذا المعنى مرادف للحوار، قال تعالى واصفاً حديث المرأة إلى النبي ﷺ بالحوار والجدال، فقال: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع عليم"[6]. والمراد من يحاوره أي يجادله"[7].

صفوة القول أن الجدل لم يُؤمر به ولم يمدح في الكتاب أو السنّة على إطلاقه، وإنما الممدوح منه ما قُيّد بالحسنى أو بالحق كما في قوله تعالى "وجادلهم بالتي هي أحسن" وقوله "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن"، وبناءً عليه فقد تبيّن الفرق بين الحوار

---

[1] سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، ص88 رقم الحديث: 48؛ وجامع الترمذي، 629/3 .

[2] مناهج الدعوة وأساليبها، ص162.

[3] سورة النحل: 125.

[4] أدب الحوار في الإسلام، ص85 وما بعدها.

[5] سنن النسائي، 113/8.

[6] سورة المجادلة: 1.

[7] تفسير القرآن العظيم، 112/2.

والجدل؛ إذ أنهما يلتقيان في كونهما حديثاً أو مراجعة للكلام بين طرفين، ويفترقان في أن الجدال فيه لدد في الخصومة، وشدة في الكلام، مع التمسك بالرأي والتعصب له، وأما الحوار فهو مجرد مراجعة الكلام بين الطرفين دون وجود خصومة بالضرورة، بل الغالب عليه الهدوء والبعد عن التعصب ونحوه، فالحوار أعمّ من الجدل من هذا الوجه[1].

ثانياً: ضوابط وآداب الحوار مع الآخر من خلال هدي الرسول محمد ﷺ: للحوار آداب ومقومات وضوابط؛ وجميعها تم توافرها في حوارات الأنبياء في القرآن الكريم، وحوارات الرسول ﷺ مع المسلمين وغير المسلمين[2]؛ كما سيأتي تفصيلاً بين ثنايا تلك الورقة البحثية؛ بل يمكن القول أن الرسول ﷺ وضع استشرافاً لضوابط الحوار ومقوماته وآدابه للعصور التالية له، بحيث من يستطع تطبيق تلك الآداب والضوابط فسوف تكون له الحجّة والبرهان والغلبة في الحقّ، ويمكن إجمال ضوابط الحوار وآدابه من خلال مواقف الرسول ﷺ وحواراته فيما يلي:

النيّة الخالصة لله عز وجلّ، وخير شاهد على ذلك قوله تعالى "قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين[3]، كما أكّد عليها الرسول ﷺ في حديثه "إنما الأعمال بالنيّات... إلخ الحديث"[4]، والحوار عمل من الأعمال ليس المقصود منه إظهار المحاور لبراعته وثقافته وتفوقه على الآخرين، بل القصد منه إظهار الحق ونصرته[5].

---

[1] في أصول الحوار، ص11؛ والحوار في القرآن: قواعده وأساليبه، ص52.

[2] انظر بالتفصيل: أدب الحوار، ص15 وما بعدها؛ وأدب الحوار في الإسلام، ص93 وما بعدها؛ الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، ص75 وما بعدها.

[3] سورة الأنعام: 162.

[4] الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، 6/1؛ وصحيح مسلم، 1514/3، رقم الحديث: 1907.

[5] وعقائد اليهود، ص8؛ والحوار في السيرة، ص181 وما بعدها.

التدرج في ترتيب عناصره لضمان تحقيق الغاية من أقصر السبل وأيسرها[1]؛ ولعل في حوار الرسول ﷺ مع معاذ بن جبل حين أرسله إلى أهل اليمن أبرز الشواهد على ذلك؛ حيث خاطبه قائلاً: "ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم"[2]، وبرزت براعة الرسول ﷺ في حواره مع معاذ في الترتيب المتقن حيث بدأ بأصل الكليات وهو التوحيد والذي تبنى عليه الجزئيات والفروع من العبادات والمعاملات؛ فالرسول ﷺ يعلّم معاذ التدرّج في الحوار بما لا يمسّ العقيدة الإسلامية وضرورة ترتيب عناصر الموضوع بداية بأصل العقيدة كما هو حال حوار الأنبياء مع أقوامهم، وليس بغريب علينا أن حوارات الرسول ﷺ خلال الطور المكي للدعوة الإسلامية كانت قائمة على التعريف بالعقيدة وإعلاء كلمة التوحيد، أما حواراته في الطور المدني فشملت فقه العبادات والمعاملات بين المسلمين بعد أن ترسّخت الوحدانية في قلوب المسلمين.

التحاور مع من يستعد للحوار وبحث المسائل موضوع الخلاف، حتى لا يكون الجلوس مدعاة لضياع الوقت والجهد، فحوارات الأنبياء مع أقوامهم كانت لا تنقطع حتى آخر لحظة حين يحلّ عليهم العذاب المقيم لتعنتهم ورفضهم لأصول الحوار[3]، ولنا في رسول الله ﷺ خير شاهد حيث حاور قومه فقال لعمّه أبو طالب: أي عمّ! أو لا أدعوهم إلى ما هو خير منها؟ قال: وإلام تدعوهم؟ قال: أدعوهم إلى أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم، قال: فقال أبو جهل من بين القوم: ما هي؟ وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها، قال: تقول: لا إله إلا الله، قال: فنفروا وتفرّقوا وقالوا: سلْنا غير هذه، فقال: لو جئتموني

---

[1] الحوار في السيرة، ص183.

[2] صحيح البخاري، 104/2، رقم الحديث: 1395؛ صحيح مسلم، 48/1، رقم الحديث: 19؛ انظر أيضاً: الحوار في السيرة، ص183.

[3] الحوار في السيرة، ص187.

بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها، قال: فغضبوا وقاموا من عنده غضبى، وقالوا: والله لنشتمنّك وإلهك الذي يأمرك بهذا"[1].

والرسول ﷺ يعلم جيداً أنه في حال بلوغ الحوار إلى طريق مسدود يجب على المرء أن يسكت لأن السكوت يكون أبلغ من الكلام، فقد يجرّ ذلك إلى مزيد من البلاء والجهل؛ تآسياً بقوله تعالى "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً"[2]، وقوله "وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإمّا ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعدَ الذكرى مع القوم الظالمين"[3]، وهكذا ينهانا الرسول ﷺ عن التمسك بنوعية الحوار المبني على الرأي مسبقاً، لأنه سيكون حواراً عقيماً، لا جدوى منه، وأكد على ذلك بقوله: "إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وهَوًى مُتَّبَعًا، ودُنْيَا مُؤْثَرَةً، وإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، ودَعْ أَمْرَ الْعَوَامِ"[4].

الإعراض عن المحاور المجادل المتكبر الذي يأتي في حواره بحجج واهية باطلة[5]؛ فحينما خرج الرسول ﷺ إلى ثقيف نزل إلى ثلاثة إخوة من سادتهم هم: عمرو ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمير، فدعاهم الرسول ﷺ إلى كلمة التوحيد ونصرة الإسلام ومؤازرته، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلّمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أردّ عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلّمك[6]. وهنا كان على الرسول ﷺ أن يغلق باب الحوار معهم عملاً بقوله تعالى "وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه

---

[1] كتاب المغازي لابن شيبة، ص111-112؛ وتاريخ الرسل والملوك، 2/325-326؛ وقد ذكر ابن سعد أيضًا هذا الحوار كاملاً وما ترتب عليه من نتائج انظر: الطبقات الكبير، 1/172.

[2] سورة الفرقان: 63.

[3] سورة الأنعام: 68.

[4] تهذيب الكمال في أسماء الرجال، 4/104 رقم الحديث: 1784.

[5] الحوار في السيرة، ص189.

[6] تاريخ الرسل والملوك، 2/344-345؛ والحوار في السيرة، ص190.

لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون"[1]، وأكّد ﷺ على ذلك بقوله : "أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخصم"[2].

الإلمام بموضوع الحوار وعدم الخوض فيما لا يعلم؛ فينبغي على المحاور أن يلمّ بعناصر موضوعه وأن تكون لديه الحجج الدامغة والمعلومات المناسبة التي يفاجيء بها خصمه، وتجعله يقف على أرض ثابتة[3]؛ ولعل خير شاهد على ذلك حوار الرسول ﷺ مع اليهود في قضية الزاني والزانية؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أتى بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟، قالوا: نُسود وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما، قال: "فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين". فجاءوا بها فقرءوها حتى إذا مرّوا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مُره فليرفع يده. فرفعها فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما[4]. وحوار الرسول ﷺ هنا يدل على علمه التامّ بحكم الزنا في التوراة، ورغبته في إظهار كذب اليهود وتحريفهم لها، وتأكيداً لدلائل نبوته ﷺ.

إظهار احترام المحاور؛ فالإنسان فُضّل على كثير من المخلوقات بدليل قوله تعالى "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً"[5]، وكان الرسول ﷺ يظهر الاحترام الكبير لكل من خالفه في الدين إذا لم

---

[1] سورة الزخرف: 58.

[2] صحيح البخاري، 131/3، رقم الحديث: 2457 .

[3] الحوار لأحمد، ص85.

[4] صحيح البخاري، كتاب الحدود، 206/4، رقم الحديث: 3635؛ 37/6، رقم الحديث: 4556؛ 165/8، و172، رقم الحديث: 6819 و6841؛ وصحيح مسلم، كتاب الحدود، 1326/3 رقم الحديث: 1699؛ ومن هذا القبيل انظر المثال الآخر في: مسند أحمد بن حنبل، 286/4؛ وسنن أبي داوود، 154/1؛ وعقائد اليهود، ص90؛ والتعامل مع غير المسلمين في العهد النبوى، ص168.

[5] سورة الإسراء: 70.

يكنّ منه اعتداءً أو أذًى؛ ولا ريب في ذلك فقد تأدّب الرسول ﷺ بأدب القرآن، وكانت أخلاقه هي أخلاق القرآن العليا؛ ولم لا، وقد خاطب الأنبياء أقوامهم من قبلُ بأرفع الألفاظ وأحسنها رغم أنهم على ملّة الكفر؛ فهذا نبيّ الله إبراهيم في حواره مع الملك لم يسبّه رغم ادعائه الألوهية، ويخاطب قومه بلفظ "يا قوم" ويخاطب أباه "يا أبت"، وسار على نهجه كل الأنبياء حيث خاطبوا أقوامهم بلفظ "يا قوم"، أما عن أدب خاتم الأنبياء والمرسلين فحدّث ولا حرج فيكفي على سبيل المثال بنظرة واحدة إلى مكاتباته إلى ملوك العجم ككتابه إلى قيصر الروم والذي بدأه قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى... "، فالرسول ﷺ راعى حالة المرسل إليه وأظهر الاحترام له لمكانته في قومه[1].

وليس أدلّ على احترام المحاور مما رواه مسلم عن أبي أَيُّوبَ أَنَّ أَعْرَابِيّاً عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِزِمَامِهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ وُفِّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ، قَالَ: كَيْفَ قُلْتَ؟ قَالَ: فَأَعَادَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَعْبُدُ اللَّهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ"[2].

فالنبي ﷺ كان رفيقاً رحيماً، يستوي عنده الناس في المعاملة، فكما أظهر الاحترام في مكاتبة الملوك والأمراء ودعاهم ووعظهم، احترم عامة الناس رجالاً ونساءً وحاورهم ودعاهم بالحسنى، وفي الحوار السابق مدح الأعرابي الذي سأله ذلك السؤال الجامع وهو على ناقته بقوله: "لَقَدْ وُفِّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ" بل زاد على ذلك أن استعاده السؤالَ ثانيةً ليسمع أصحابه ويتعلم الناس، ثم وعظه بجوامع الخير من العبادة وصلة الرحم.

عدم التكبّر على المحاور؛ فالهدف من المحاورة هو إظهار الحق والإصلاح عملاً بقوله تعالى "فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا

---

[1] الحوار في السيرة، ص193 وما بعدها.

[2] صحيح مسلم، 42/1 رقم الحديث: 13.

الكيل وتصدّق علينا إن الله يجزي المتصدّقين"[1]، فلا ينبغي أن يبدأ الحوار بتخطئة الآخر فلماذا الحوار إذاً؟ ولم يثبت قط في حوار للرسول ﷺ أنه سبّ محاوره أو لعنه أو قبحه أو انتقص من قدره حتى في أشد الأزمات وأحلكها[2]؛ ولعل في حواره في صلح الحديبية خير شاهد على ذلك، فحينما أملى الرسول ﷺ شروط الصلح مع قريش على عليّ بن أبي طالب بحضور سهيل بن عمرو ممثلاً لقريش، قال النبي ﷺ لعليّ: "اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال: سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله: اكتب باسمك اللهم فكتبها، ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيلَ بن عمرو، قال: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال: فقال رسول الله: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ بن عمرو[3].

المحاورة بالتي هي أحسن: فاتباع الحسنى في القول كافٍ في جذب القلوب والعقول الواعية، لذا كان الأمر للمسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلّا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون"[4]؛ فالحوار بالحسنى أدب قرآني أُمر به المرسلون على مرّ التاريخ علّمنا به الله كيف نحاور المخالف بالتي هي أحسن؛ وسار الرسول ﷺ على أدب القرآن في الحوار بالحسنى مع المسلمين والمخالفين له عملاً بقوله تعالى "أدع إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين"[5]، وبناءً عليه حاور الرسول ﷺ اليهود مراراً وتكراراً فما سبّ أحدٌ منهم ولا تنقصه بل كان على الدوام يحاورهم بالحسنى ويظهر احترام محاوريه ورغبته الشديدة في هدايتهم إلى الحق حتى حين كانوا يشتدون في القول وينشرون الأكاذيب كعادتهم؛ ففي

---

[1] سورة هود: 88.

[2] الحوار في السيرة، ص196 وما بعدها.

[3] سيرة ابن هشام، 784/2؛ والحوار في السيرة، ص196-197.

[4] سورة العنكبوت: 46.

[5] سورة النحل، الآية 125.

غزوة خيبر حاورهم الرسول ﷺ بقوله: هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألت عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسئوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً[1].

كما يعلّمنا الرسول ﷺ صفة الحلم ورحابة الصدر والجدال بالحسنى في هذا الحوار الجميل مع عتبة بن ربيعة؛ الذي أخذ في بداية حديثه يوجّه السباب للرسول ﷺ قائلاً: "إن في قريش ساحراً، أو كاهناً، ما رأينا سخلة أشأم على قومك منك"؛ وأخذ يعرض عليه مالاً ليترك دعوته، ويعرض عليه الزواج، ويعرض عليه الرئاسة، ويعرض عليه طبيباً إن كان قد أصابه الجنون؛ إلا أن الرسول ﷺ أعرض عن هذا وغضّ الطرف عنه؛ بل أجابه بأدب جمّ، قائلاً: "قل يا أبا الوليد أسمع... أفرغت يا أبا الوليد؟"، فقال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل[2]، وحسن الاستماع من النبي ﷺ للرجل جعله يجلس ويستمع كذلك، وإن لم يهتد فتلك قضية أخرى؛ فالحوار ليس لفرض الرأي.

الهدوء وتجنب الغضب والعفو عند المقدرة؛ وقد أكّد على ذلك الرسول ﷺ مراراً وتكرارا؛ لأن خروج المحاور عن شعوره يفسد الحوار ويحدث اللدّ والخصومة والعداوة، فحينما أصبحت مكة دار إسلام، وزالت عنها الجهالة وارتفع الحق، أبدى النبي ﷺ من الرحمة والرأفة والعفو ما يبهر العقول؛ غير أن رجلاً من المشركين همّ بقتله وضمر ذلك في نفسه، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ: "أ فضالة؟ " قال: نعم فضالة يا رسول الله. قال: "ماذا كنت تحدث به نفسك؟" قال: لا شيء، كنت أذكر الله. قال: فضحك النبي ﷺ ثم قال: "استغفر الله". ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري

---

[1] صحيح البخاري، 4/99-100، رقم الحديث: 3169؛ والحوار في السيرة، ص 199.

[2] سيرة ابن هشام، 1/193؛ وفقه السيرة النبوية قراءة سياسية دعوية حركية، 1/288؛ ومنهج النبي ﷺ في مواجهة التحديات الدعوية، ص85؛ والحوار في السيرة، ص217؛ وموقف النبي ﷺ من الديانات الثلاث الوثنية واليهودية والنصرانية، ص24؛ وعقائد اليهود، ص8؛ والحوار أصوله وآدابه، ص 85-86؛

حتى ما من خلق الله شيء أحبّ إليّ منه[1]. فهدوء النبي ﷺ وابتسامته أبدلا العداوة إلى ودّ جارف لشخصه ﷺ.

وتجنب الغضب من الأمور العظيمة التي يتحلى بها المحاور، ولنا في رسول الله أسوة حيث حزن حزناً شديداً وغضب غضباً كبيراً عقب مقتل حمزة بن عبد المطلب على يد وحشيّ؛ وها هو وحشيّ بعدما أسلم يقصُّ لقاءه وحواره مع رسول الله ﷺ، قال: "بعد ذلك قدمتُ على رسول الله ﷺ المدينة، فلم يرعْه إلا بي قائماً على رأسه أتشهّدُ بشهادة الحق؛ فلما رآني قال: أ وحشيٌّ؟ قلت: نعم يا رسولَ الله، قال: اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة، قال: فحدثته.. فلما فرغت من حديثي، قال: فهل تستطيعُ أنْ تغيّبَ وجهَك عني؟" قال: فكنت أتنكّبُ رسولَ الله ﷺ حيث كان لئلا يراني، حتى قبضه الله"[2]. فلم يسُبه النبي ﷺ أو يتعرض له بأذى رغم فداحة الجُرم الذي ارتكبه.

التحلي بالصبر والتواضع للمحاور؛ ومما لا شكّ فيه أن الرسول ﷺ لقي من الناس إبان دعوته ألواناً من التطاول فما ضجر وما سبّ وما لعن، فعن أنس قال "كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت فضحك ﷺ ثم أمر له بعطاء[3].

وليس أدلّ على سعة الصبر لدى الرسول ﷺ مما رواه سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَى رَهْطاً وَسَعْدٌ جَالِسٌ، فَتَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَكَ عَنْ فُلانٍ؟ فَوَ اللَّهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِناً، فَقَالَ: أَوْ مُسْلِماً، فَسَكَتُّ قَلِيلاً، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي فَقُلْتُ: مَا لَكَ عَنْ فُلانٍ؟ فَوَ اللَّهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِناً، فَقَالَ: أَوْ مُسْلِماً، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا

---

[1] سيرة ابن هشام، 417/2؛ والحوار في السيرة، ص203.

[2] صحيح البخاري، 100/5، رقم الحديث: 4072؛ وسيرة ابن هشام، 593/2؛ والتعامل مع غير المسلمين، ص133- 134.

[3] صحيح البخارى، 94/4-95، رقم الحديث: 3149؛ والحوار في السيرة، ص202.

أَعْلَمُ مِنْهُ فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي وَعَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ يَا سَعْدُ، إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ"[1]. فمن أدب الحوار وفقهه في هذا الحديث أن النبي ﷺ صبر على مراجعة سعد له وتكراره مقولته، وأنه أعاد الجواب نفسه ليعلم سعداً والمسلمين في مسألة التزكية المباشرة، لأن مرتبة الإيمان أعلى من مرتبة الإسلام، ففي كلام سعد لون من التزكية للرجل وهو جالس معهم.

ومن آداب الحوار التي انتهجها الرسول ﷺ أنه لم يقتصر على الرقة والتودد في حواراته، بل كان يتجاوز ذلك إلى **ثناء ومدح المحاورين له**، ففي صلح الحديبية سنة 6هـ يمدح سهيل بن عمرو أحد قادة المشركين قائلاً للمسلمين: "لقد سهل أمركم"[2]؛ لما يعلمه من سهولة أمر سهيل بن عمرو وحسن طباعه، ثم تتجلى براعة الرسول ﷺ حين يحاور الوليد بن الوليد أخي خالد بن الوليد – وكان خالد على ملة الشرك – ويقول له "أين خالد؟ فقال الوليد: يأتي به الله، فقال الرسول ﷺ "ما مثله جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقدمناه على غيره"[3]، ومما لا شك فيه أن هذا الحوار غير المباشر حينما وصل إلى خالد بن الوليد قد مسّ رقاق قلبه وجعله يسرع في الدخول في الإسلام، فبالرغم مما أذاقه خالد للمسلمين في غزوة أحد من مرارة الهزيمة، إلا أن ذلك لم يمنع الرسول ﷺ من أن يثني عليه وعلى خبرته العسكرية وإمكانياته القتالية الفذة، ويعلن أنه لو انضم للمسلمين فسوف يقدمه على غيره من السابقين إلى الإسلام، وليس سهلاً مطلقاً على قائد أن يمدح عدوّه إلا إذا كان على درجة عالية من الأخلاق والحكمة والنزاهة، غير أن عبقرية الرسول ﷺ مكّنته من أن يرسل كلمات حوارية بطريقة غير مباشرة لخالد جعلته يسرع بالدخول في الإسلام.

المحور الثاني: الرسول ﷺ ومنهجية الحواروقبول الآخرمع الصحابة

---

[1] صحيح مسلم، 132/1، رقم الحديث: 237.

[2] صحيح البخاري، 194/3، رقم الحديث: 2732؛ وفن التعامل النبوي مع غير المسلمين، ص80.

[3] تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، 293/1؛ وفن التعامل مع غير المسلمين، ص81.

استخدم الرسول ﷺ طريقة الحوار لتعليم المسلمين أمورَ دينهم وعقيدتهم؛ حين كان يجيب عن أسئلة جبريل عليه السلام، فمما روي عن عمر بن الخطاب أنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحدٌ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله: الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقّه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان، ثم انطلق، فمكثت ملياً، ثم قال لي: يا عمر أ تدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: هذا جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم"[1].

وعن مثالية حوار الرسول ﷺ مع الصحابة، وحلوله لمشكلات معقدة عن طريق الحوار المنطقي؛ نجد ما رواه البخاري من "أن رجلاً أنكر ولده أتى إلى رسول الله فقال: يا رسول الله إن إمرأتي ولدت غلاماً أسودَ، فقال رسول الله: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: ما لونها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق؟ قال: نعم، قال: فمن أين ذلك؟ قال: لعل عرقاً نزعه، فقال رسول الله: وهذا الغلام لعل عرقاً نزعه[2].

استمرّ الرسول ﷺ في حواراته التعليمية مع المسلمين؛ فروى الإمام أحمد هذا الحوار الجميل بين النبي ﷺ وأحد الشباب فقال: "إن فتًى شاباً أتي النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل عليه القوم فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: أدنه، فدنا منه قريباً، قال:

[1] صحيح مسلم (كتاب الإيمان)، 36/1

[2] صحيح البخاري، 35/7، رقم الحديث: 5305.

فجلس، قال: أتحبّه لأمّك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبّونه لأمّهاتهم، قال: أتحبه لابنتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبّونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال ولا الناس يحبّونه لأخواتهم، قال: أفتحبّه لعمّتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبّونه لعمّاتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبّونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر له وطهّر قلبه وحصّن فرجه، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1]، واستخدام الرسول لحواره السلس مع حمّية الشباب جعل قلب الشاب يتحوّل كلية من التفكير في المعصية إلى الهدى.

واستمرّ الرسول ﷺ في حلّ مشكلات الصحابة بالحوار البنّاء معهم، فرُوي عن المقداد أنه قال: يا رسول الله؛ أ رأيت إن لقيت رجلاً من الكفار، فقاتلني فضرب إحدى يديّ بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال: أسلمت، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟ فقال الرسول ﷺ: لا تقتله. قال: فقلت: يا رسول الله إنه قد قطع يدي، ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله؟ قال الرسول ﷺ: لا تقتله فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال[2].

أما عن أعظم صورة للمحاور الناجح فقد تجلّت في شخص الرسول ﷺ وبطريقة مثالية عقب غزوة حنين في حواره مع صحابته؛ فقد وزع الرسول ﷺ الغنائم ولم يعط الأنصار منها شيئاً، فغضب بعضهم ونطق أحدهم بعبارة "لقي والله رسول الله قومه"، فدار هذا الحوار الناجح للرسول ﷺ مع الأنصار؛ حيث دخل عليه سعد بن عباده قائلاً: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت فقسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء، فقال رسول الله: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلا

[1] مسند أحمد بن حنبل، 545/36 والحوار أصوله وآدابه، ص 83-84.

[2] شرح صحيح مسلم للنووي، 106/2.

من قومي، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فخرج سعد فجمع الأنصار فأتاهم رسول الله فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم، قالوا: بلى والله ورسوله أمنّ وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل، فقال: أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدّقتم: أتيتنا مكذباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار لعاعة من الدنيا تألفت بها قلوب قوم ليسلموا ووكلتم إليّ إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاه والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً[1].

وفي هذا الحوار دروس بليغة ومفيدة ينبغي استشرافها من الرسول ﷺ؛ فالنبي ﷺ لم يلُمْ سعداً لأنه لم يردّ على الأنصار الذين غضبوا، ولم يناقشه في حجته التي فيها ما فيها، ولا سأله عن الشخص الذي قال "لقي والله رسول الله قومه"، ولكنه سأل سؤالاً عاماً، ليجعل الحديث للجميع وليواجه المشكلة من أساسها. وكان من الطبيعي أن يجول في قلوب الأنصار أنهم آووا الرسول ﷺ ونصروه وأعطوه وصدّقوه، وهذه كلها مزايا، وهي حق لهم، لذا فإنه قالها نيابة عنهم، ليقرّ لهم بالجميل، وبعد أن عاتبهم من ناحية وأرضى قلوبهم من ناحية، ختم كلامه معهم بأن أقرّ لهم أنهم أعلى كعباً في الإسلام من غيرهم، لذلك وكّلهم إلى إسلامهم، ثم بيّن لهم المنّة الكبري التي فازوا بها؛ إذ يذهب الناس بالشاة والبعير، أما هم فإنهم يعودون بخاتم الأنبياء وأفضل الخلق، ثم دعا لهم بالرحمة ولأبنائهم وأحفادهم،

[1] سيرة ابن هشام، 147/4، 148؛ الحوار لموسى، ص81-83.

لذلك لا غرابة إن وجدنا الأنصار يبكون فرحاً ويقولون في غبطة وسعادة "رضينا برسول الله قسماً وحظاً"، وفي هذا أكبر مثال على ضرورة تفعيل الحوار اقتداء بالرسول ﷺ.

كما نلمس أيضاً الجانب التعليمي في حوار الرسول ﷺ مع صحابته حين ورد نبأ وفاة النجاشي صاحب الحبشة فقال رسول الله ﷺ: "صلّوا عليه"، قالوا: يا رسول الله نصلّى على عبد حبشي؟ فأنزل الله: "وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ"[1].

وقد يعتاد الإنسان على ثقافة معينة فيرفضها عقلك تماماً، وتتعامل معها بنفور، وربما امتدّ تأثير هذا الأمر عليك، فيجعلك تفرض رأيك على من حولك، وترفض الحوار في هذه النقطة تحديداً، غير أن الرسول ﷺ يرفض هذا الأسلوب في التعامل مع مجريات الأحداث، ويرفض أن نتعامل مع البشر من حولنا بفرض ما تقبله نفسك مع الآخرين؛ فقد كان الصحابي خالد بن الوليد من محبي أكل الضبّ وقدّمه ذات يوم للنبي ﷺ، ولم يمنع خالداً من أكله، بل ترك له حرية فعل ما يحلوا له في ذلك الأمر، كما أنه تعامل بذوق في هذا الاختلاف حيث بيّن لخالد أسباب عدم أكله له، حتى لا تأخذ الأفكار بخالد نحو طريق من شأنه أن يجعله يترك ما اعتاد عليه وأحبّه؛ فورد في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ امتنع عن أكل الضبّ فقيل له: أحرام هو؟ قال: لا، ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه[2]. وبذلك لم يحرم النبي ﷺ ثقافة الأفراد والبيئات، وإن كان رافضاً لها من الناحية النفسية طالما أنها لا تخالف الدين.

كذلك لم تقتصر حوارات الرسول ﷺ على الصحابة من الرجال بل تعدّاه إلى الحوار مع النساء لتفقيههن في أمور دينهن وتعليمهن أمورَ عقيدتهن؛ فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ؛

---

[1] سورة آل عمران: 199؛ وصحيح البخاري، 86/2، 88، رقم الحديث: 1320، و1327.

[2] صحيح البخاري، 155/3، رقم الحديث: 2575 ؛ و71/7، رقم الحديث: 5391.

فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ، قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا"[1].

وهكذا درج الصحابة على محاورة الرسول ﷺ في قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وطبيعية وتاريخية وعقائدية، فكان يربيهم على الحوار المتصل الذي ينشط العقل ويحرك الذهن، ويحفز القابلية للتعلم ومتابعة الترقيات الروحية والفكرية. والعقلُ المحاور نقيض العقل المتعصب؛ فالأول يرتقي بصاحبه إلى أفق العلماء، بينما العقل المتعصب يقعد بصاحبه عن زمرة العلماء.

المحور الثالث: الرسول ﷺ ومنهجية الحواروقبول الآخرمع من هم من غيرملة الإسلام

أولاً: حواره ﷺ مع متحنفي العرب: ظلّ متحنفو العرب الباحثين عن دعوة التوحيد، وعلماء أهل الكتاب من العرب والعجم، زمن فترة الرسل من رفع المسيح عليه السلام إلى مبعث النبي محمد ﷺ ينتظرون نبأ مبعثه وظهوره ﷺ لمعرفتهم بخبر مبعثه من دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام نبي الحنيفية القديمة وابنه إسماعيل أبي العرب المستعربة ونبيهم، وورود البشارة بمبعثه ﷺ في التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى عليهما السلام[2]، إذ أخذ الله سبحانه وتعالى عهد جميع الأنبياء والرسل الأقدمين وميثاقهم هم وأتباعهم على نصرة النبي الخاتم ﷺ عند ظهور أمره والدخول في دينه والنهوض بدعوته مصداقاً لقوله تعالى "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ

[1] صحيح مسلم، 86/1، رقم الحديث: 132.

[2] انظر: سيرة ابن هشام، 222/1-232؛ وطبقات ابن سعد، 360/1- 363.

رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ"[1].

ولما كان متحنفة العرب في الجاهلية على علم بمبعثه ﷺ بصفته ونعته ومنهم من خرج للبحث عن دين الحنيفية ودعوة التوحيد والنبي الخاتم المنتظر، وسألوا عنه علماء أهل الكتاب ببلاد الشام، فأخبروهم أنه ﷺ قد أظل زمانه، وأن مبعثه وظهوره ﷺ ببلاد العرب، كما جاء في أنباء بحث علماء ومتحنفي قريش في الجاهلية عن الدين وهم عثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله بن جحش[2]، فمن الطبيعي أن يكون متحنفة العرب هم أول من قدموا على النبي ﷺ مكة في فجر الدعوة الإسلامية، حين ذاع نبأ ظهوره ومبعثه ﷺ بين قبائل العرب، واحتالوا على كفار قريش حتى جلسوا إلى النبي ﷺ سراً، فقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وعادوا إلى بلادهم وديار قومهم ليدعوهم إلى الإسلام ويبلغوهم عن النبي ﷺ، كما أوصاهم وأمرهم بذلك بعد إسلامهم على يديه بمكة، ولنضرب هنا أروع الأمثلة في حوار الرسول ﷺ وتعامله مع الآخر - وهو في فترة الطور المكي - مع بعض من متحنفة العرب من قبيل: أبو ذر الغفاري، وأسعد بن زرارة الخزرجي، فرُوي عن ابن عباس أنه "لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ طلب من أخيه أن يذهب إلى مكة ويأتيه بخبره وبعضاً مما يتلوه على الناس، فذهب أخوه وعاد وأخبره بخبر الرسول ﷺ، فتزود أبو ذر وسافر إلى مكة ودخل على النبي ﷺ فسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري، وإسلام أبي ذر في مكانه دليل على أنه كان يعرف علامات النبي ﷺ، فلما تحقّقها لم يتردّد في الإسلام بعد أن نزل حواره مع الرسول ﷺ برداً وسلاماً على قلبه[3].

---

[1] سورة آل عمران: 81.

[2] سيرة ابن هشام، 225/1 - 232؛ وجمهرة نسب قريش وأخبارها، مجلة المجمع العلمي 1962، ص408.

[3] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، 173/8-176.

ومما لا شك فيه أن الرسول ﷺ انتهج في حواره مع المخالفين له المنهج الذي أمره به الله في كتابه العزيز بقوله "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ[1].؛ فالرسول ﷺ في حواره كان يبيّن لهم جوهر عقيدة الإسلام القائمة على التوحيد ونفي الشرك بالله والإقرار بنبوته ﷺ وبلاغه عن الله تعالى، وتصديقه بما جاء به من عند الله، وما أنزل عليه من قرآن، ولا شكّ أن ذلك كان مشمولاً بقلب ليّن ولسان رطب عذب الكلمات حتي يؤتي الحوار ثمرته، ويصل إلى تحقيق مقاصده[2]، وجسّد القرآن ذلك بقوله تعالى "فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إن الله يحبّ المتوكلين"[3].

ولنتأمل هنا روعة حوار الرسول ﷺ في عرضه الإسلام على قبائل العرب ودعوتهم إلى عبادة الله، ومثال ذلك حواره مع وفد قبيلة بني شيبان بن ثعلبة حيث قال لهم: أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تؤوني وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد، قال له مفروق بن عمرو الشيباني: وإلام تدعو يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله ﷺ "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[4]، فقال له مفروق: وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فو الله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه، فتلا رسول الله ﷺ "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

---

[1] سورة النحل: 125.

[2] سيرة ابن هشام، 422/1؛ والبداية والنهاية، 138/3.

[3] سورة آل عمران: 159.

[4] سورة الأنعام: 151.

وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"[1]، فقال له مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك[2].

واستمر الرسول ﷺ في حواره مع بني شيبان يدعوهم إلى الدخول في الإسلام غير أنهم كانوا خائفين من كسرى الفرس، ولم يستغل الرسول ﷺ هذا الموقف من قبلهم ليطعن في شرفهم ويصفهم بصفات الجبن وعدم نصرة المظلوم والتردد وغياب الحسم والحزم، بل احترم في حواره معهم خصلة الصدق وقدّر لهم ذلك، وأعلنوا للرسول ﷺ أنهم سيدخلون في الإسلام حال النصر على كسرى الفرس، فما كان من الرسول ﷺ إلا أن بشّرهم بفتح بلاد فارس المجاورة لبلادهم ومنازلهم بأرض العراق في حوار ولا أروع وصفته لنا المصادر الإسلامية حيث قال لهم: أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم ويفرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟ فقال له النعمان بن شريك الشيباني: اللهم وإن ذلك يا أخا قريش. فتلا رسول الله قوله تعالى "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً"[3] وهذا الحوار يُبيّن مدى عظمة الرسول ﷺ في حواره مع القبائل خلال فترة الطور المكي، ويعتبر من المواقف المحورية التي يجب أن يتمثّلها المسلمون في حوارهم مع غير المسلمين، فالرسول ﷺ لم يمتنع عن ذكر محاسنهم وفضائلهم دون كذب أو رياء، إنما يذكر الحق الذي رآه، وفي هذا إحقاقاً للحق، وفي الوقت نفسه ترقيقاً لقلوب المخالفين والمعارضين، مما يجعل خلافهم مع المسلمين أقلّ حدة وأضعف شوكة[4].

---

[1] سورة النحل: 90.

[2] والبداية والنهاية، 3/139-140.

[3] سورة الأحزاب: 45-46.

[4] ودلائل النبوة، 2/422-427؛ والبداية والنهاية، 3/164-165؛ ودلائل النبوة، ص 67؛ وفن التعامل مع غير المسلمين، ص82-83.

ومن أروع حوارات الرسول ﷺ مع حكماء العرب وعلمائها خلال الطور المكي، حواره مع سويد بن الصامت أحد علماء وحكماء أهل يثرب، ومن المطلعين على الكتب السماوية وكتب الحكمة القديمة، فدعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام، ويروي ابن إسحاق حوار الرسول ﷺ مع سويد قائلاً: "قدم سويد بن الصامت مكة حاجاً أو معتمراً، وكان سويد إنما يسمّيه قومه فيهم (الكامل) لجلده وشعره وشرفه ونسبه، فتصدّى له الرسول ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له الرسول ﷺ: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان – يعني حكمة لقمان – فقال له الرسول ﷺ: اعرضها عليّ، فعرضها عليه، فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا؛ قرآن أنزله الله عليّ، هو هدي ونور. فتلا عليه الرسول ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إن هذا لقول حسن[1]، وذهب سويد إلى يثرب يبشّر قومه فقتله الخزرج وهو مسلم بعد حواره مع الرسول ﷺ، ومما لا شك فيه أن هذا النص يبيّن روعة الرسول ﷺ في حواره مع سويد حيث لم يلفظ ما عرضه عليه من كتاب لقمان بل طلب منه الرسول ﷺ أولاً أن يسمعه بعض ما فيه من حكمة لقمان بل واستحسنها وقبلها ﷺ، ثم بدأ في عرض ما معه من آيات القرآن الكريم بحيث كانت سبباً في إسلامه، وكان لهذا الحوار البنّاء من قبل الرسول ﷺ أكبر الأثر في بذر بذرة الإسلام في مدينة يثرب والتي كلّلت جهودها ببيعة العقبة الأولى بعد ذلك.

كما أفاض ابن هشام[2] في ذكر خبر الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ والنضر بن الحارث الثقفي وكان عالماً بالكتب القديمة وقصص الأنبياء وتواريخ ملوك الفرس وأساطير الأولين، وقد

---

[1] سيرة ابن هشام، 1/425-427.

[2] للتفصيل راجع: سيرة ابن هشام، 1/321-328؛ وأخرج الترمذي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئًا نسأل هذا الرجل: فقالوا سلوه عن الروح قال فسألوه عن الروح فأنزل الله: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً"، سورة الإسراء: 85، راجع: صحيح سنن الترمذي للالباني، رقم الحديث: 3140، ص294 -309؛ والمعلقة العربية الأولى، ص37-52.

استعان النضر بأحبار يهود يثرب لسؤال الرسول ﷺ في حواره معه، فطلبوا منه سؤاله عن ثلاثة أشياء: الأول عن قصة أهل الكهف، والثاني عن قصة ذي القرنين، والثالث عن الروح، فلما حاور النضر الرسول ﷺ بهذه الأسئلة، أجابه الرسول ﷺ بما نزل من سورة الكهف فقطعت جدل قريش واليهود حول دلائل نبوته ﷺ وصدق أقواله عن الله.

ثانياً: حواره ﷺ مع المشركين: من بين ثنايا السيرة النبوية العطرة نلمس ذلك الحوار الهادىء بين الرسول ﷺ وبين أحد المخالفين والذي تكلل في نهايته بدخول المخالف في الإسلام؛ فعن أَنَسٍ قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ أَجَبْتُكَ، فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ، فَقَالَ: سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ، فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصلّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ، آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنْ السَّنَةِ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ آللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ."[1]. وتكمن براعة آداب الحوار هنا تلك اللهجة الجافة من ضمام بمناداته للرسول ﷺ في بداية الحوار "يابن عبد المطلب" وما يقابلها من لين الكلام من الرسول ﷺ وسعة الصبر.

وعن براعة الاستهلال وحسن الاستقبال وعذوبة الحوار من قبل الرسول ﷺ؛ نلمس ذلك الحوار مع قبائل عبد القيس؛ فعن ابن عباس قَالَ: "إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ الْقَوْمُ أَوْ مَنْ الْوَفْدُ؟ قَالُوا: رَبِيعَةُ، قَالَ: مَرْحَباً بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلا نَدَامَى. فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا

[1] صحيح البخاري، 23/1، رقم الحديث: 63 .

الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ، وَسَأَلُوهُ عَنْ الأَشْرِبَةِ، فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصِيَامُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنْ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ، وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ الْحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ -وَرُبَّمَا قَالَ: الْمُقَيَّرِ - وَقَالَ: احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ"[1]. فمن أدب الحوار النبوي في هذا الحديث ترحيبه ﷺ بهم وإخباره عنهم بأنهم غير خزايا ولا ندامى، وهو من كمال رحمته ورفقه بالمسلمين وحسن استقبال الغرباء ومجالستهم والاستماع إليهم ووعظهم.

ومن جمال حوار الرسول ﷺ وعفوه وقت المقدرة مع أعدائه ما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أنه قال: "غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ، فَأَدْرَكَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا، قَالَ: وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْوَادِي يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ رَجُلاً أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ فَأَخَذَ السَّيْفَ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلا وَالسَّيْفُ صَلْتاً فِي يَدِهِ فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ، قَالَ: فَشَامَ السَّيْفَ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ، ثُمَّ لَمْ يَعْرِضْ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"[2]. وفي هذا الموقف يتضح خلق العفو عند رسول الله ﷺ، فلو أنه قتل الأعرابي ما كان عليه من حرج، ولكنه رسول الرحمة للناس جميعاً، ولعل هذا الموقف يؤثر في الأعرابي فيُسلم فينقذه الله تعالى من النار بإذنه، جراء ذلك الحوار العذب الذي لمسه من الرسول ﷺ.

ثالثاً: حواره ﷺ مع اليهود: مما لا شك فيه أن حوارات الرسول ﷺ مع اليهود كان يخرج منها الرسول ﷺ ظافراً منتصراً، ولو أن اليهود كانوا يبتغون من وراء الحوار الوصول إلى الإيمان بالله، لآمنوا به وبرسوله ﷺ وبكتابه، غير أن حوارهم معه كان ابتغاء الجدل والتعنت وإثارة

---

[1] صحيح البخاري، 20/1، رقم الحديث: 53؛ وصحيح مسلم، 46/1، رقم الحديث: 17.

[2] صحيح مسلم، 1784/4، رقم الحديث: 843؛ والتعامل مع غير المسلمين، ص152-153.

الفتن والشبهات في قلوب المسلمين، والثابت أن اليهود لهم طبيعة خاصة قائمة على الاستفزاز بحيث تجعل من يتحاور معهم يخرج عن شعوره بكذبهم وافترائهم وتجرأهم على ذات الله سبحانه وتعالى، فقد وصفوه سبحانه وتعالى بأخس وأحبط الصفات، فتارة يصفونه بصفات البشر بأن له جوارح كجوارح البشر، وأخرى يصفونه بالفقر واستقراض المال، وثالثة بالربا[1]، وجلّ جهدهم من حوارهم مع الرسول ﷺ هو إحراجه بالأسئلة المتعنتة لإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة مطالبهم[2].

والثابت من خلال المصادر أن الرسول ﷺ حينما استقر بالمدينة المنورة بدأ الحوار والمناظرات مع اليهود؛ فكان ﷺ يدخل بنفسه مدارس اليهود – أماكن عبادتهم ودراستهم للتوراة وأسفارهم الدينية – فيحاورهم ويجادلهم ويدعوهم إلى الإسلام، ويظهر لهم ما حرّفوه وبدّلوه من أمر دينهم وشريعتهم وكتبهم السماوية[3].

وقد أدّى حوار الرسول ﷺ مع أحبار اليهود إلى إسلام بعضهم بعد تثبتهم من صفة ونعت وأعلام ودلائل نبوته ﷺ كما جاءت في التوراة وبعد سماعهم للقرآن الكريم، وتصديقهم به وحياً من عند الله، وقد أشارت آيات القرآن إلى من أسلم من أحبار يهود يثرب[4]. ومن هؤلاء الأحبار الذين أسلموا وعنتهم آيات القرآن عبد الله بن سلام كبير أحبار اليهود بالمدينة،

---

[1] للمزيد بالتفصيل عن ذلك انظر: حوار الرسول ﷺ مع اليهود، ص17-41-73-103، وحيث قسم حوار النبي إلى أربعة فصول الفصل الأول يتعلق بالحوار الجدلي والثاني بالحوار التشريعي والثالث بالحوار الاجتماعي والرابع بالحوار المصيري.

[2] سيرة ابن هشام، 46/3؛ ومجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ، ص393؛ والعنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، 126/2 وما بعدها؛ ويهود المدينة في العهد النبوي أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ص257.

[3] انظر بالتفصيل: سيرة ابن هشام، 552/1 -558؛ وقد ذكرت آيات القرآن الكريم المدنية بعضاً من حوارات ومناظرات الرسول ﷺ مع يهود يثرب في الآيات 47-50، 65، 68-69، 77-80، 104 من سورة المائدة.

[4] انظر الآيات 121 من سورة البقرة؛ وقارن هذه الآية بالآيات 158 -159، 170 من سورة الأعراف؛ وانظر أيضاً الآيات 113-115 من سورة آل عمران، وقارنها بالآية 75 من سورة آل عمران أيضاً، والآيات 160 – 162 من سورة النساء؛ وانظر: فتح الباري، 486/6.

وأخوه ثعلبة؛ كان عبد الله بن سلام عالم اليهود وحبرهم المقدم في المدينة، وحين وصلت الأنباء إلى المدينة بدخول النبي ﷺ إلى قباء كان عبد الله يعمل في نخل له، فلما سمع بذلك ترك نخله وأسرع إلى النبي ﷺ.

ويروي عبد الله بنفسه الحوار الذي دار بينه وبين النبي ﷺ والذي انتهى باعتناقه الإسلام، قائلاً: "لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَقِيلَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ... فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَثْبَتُّ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلامٍ ". وقد كانت للنبي ﷺ علامات معروفة عند أهل الكتاب، تحقق عبد الله من بعضها، ثم إنه أراد أن يتحقق من علم النبي ﷺ ليزداد إيماناً، فسأله أسئلة لا يعلم الجواب عنها إلا نبيّ. ويروي البخاري في صحيحه عن أنس أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله ﷺ مقدمَه إلى المدينة فقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاثٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إلا نَبِيٌّ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمَا بَالُ الْوَلَدِ يَنْزِعُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ ﷺ: أَخْبَرَنِي بِهِ جِبْرِيلُ آنِفاً، قَالَ ابْنُ سَلامٍ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلائِكَةِ!! قَالَ ﷺ: أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُهُمْ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوتِ، وَأَمَّا الْوَلَدُ فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَتِ الْوَلَدَ.قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي قَبْلَ أَنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلامِي. فَجَاءَتِ الْيَهُودُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَأَفْضَلُنَا وَابْنُ أَفْضَلِنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ؟ قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ!! فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ.فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، قَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَتَنَقَّصُوهُ، قَالَ: هَذَا كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ"[1].

[1] انظر خبر اسلام عبد الله بالتفصيل في: سيرة ابن هشام، 1/516-518؛ صحيح البخاري، 5/69، رقم الحديث: 3938.

ويروي الطبري[1] في تفسيره مدى تجرؤ اليهود على الله عز وجل، ومدى تحمّل الرسول ﷺ لهم خلال حواره معهم؛ فعن سعيد رضي الله عنه أنه قال: أتى رهط من اليهود إلى الرسول ﷺ، فقالوا: يا محمد، هذا الله خلق الخلق فمن خلقه؟ فغضب النبي ﷺ انتقع لونه، ثم ساورهم غضباً لربه، فجاءه جبريل فسكّنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه، قال: يقول الله "قل هو الله أحد... "، فلما تلاها عليهم الرسول ﷺ، قالوا: صفْ لنا ربك، كيف خلقه، وكيف عضده، وكيف ذراعه؟ فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول، ثم ساورهم، فأتاه جبريل فقال مثل مقالته، وأتاه بجواب ما سألوه عنه "وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً..".

والجدير بالذكر أن حوارات الرسول ﷺ مع اليهود كانت تتم بصدر رحب ودون أيّ محاولة منه للمسّ بثقافتهم؛ حيث كان يعاملهم بأخلاقيات الإسلام؛ فيزور المريض منهم، ويتحمّل إساءة الجار اليهودي، ويقوم لجنازة رجل يهودي؛ فروى البخاري أن رسول الله مرّت عليه جنازة يهودي، فقام النبي ﷺ، وسلّم عليها، فقيل له: إنها جنازة يهودي، فقال أ ليست نفساً[2]؛ فالنبي ﷺ هنا يؤدّب الصحابة بأدب القرآن باحترام النفس البشرية أيّاً كانت ديانتها.

وعن حلم الرسول ﷺ وعظمته في حواره مع اليهود والذي كان يخرج منه ظافراً معلياً لكلمة الله، نضرب هذا المثل الذي أخرجه ابن سعد عن جرير بن حازم: حدثني من سمع الزهري يُحدّث أن يهودياً قال: ما كان بقي شيء من نعت رسول الله في التوراة إلا رأيته إلا الحلم، وإني أسلفته ثلاثين ديناراً إلى أجل معلوم، فتركته حتى إذا بقي من الأجل يوم أتيته فقلت: يا محمد اقض حقي، فإنكم معاشر بني عبد المطلب مطل، فقال عمر: يا يهودي يا الخبيث، أما والله لولا مكانه لضربت الذي فيه عيناك، فقال رسول الله: غفر الله لك يا أبا حفص، نحن كنا إلى غير هذا منك أحوج إلى أن تكون أمرتني بقضاء ما عليّ، وهو إلى أن تكون أعنته في قضاء حقه أحوج، قال: فلم يزده جهلي عليه إلا حلماً، قال: يا يهودي إنما يحل حقك

[1] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 28/24.

[2] صحيح البخاري، 85/2، رقم الحديث: 1311 و1312.

غداً، ثم قال: يا أبا حفص اذهب به إلى الحائط الذي كان سأل أول يوم فإن رضيه فأعطه كذا وكذا صاعاً وزده لما قلت له كذا وكذا صاعاً، فإن لم يرض فأعطه ذلك من حائط كذا وكذا"، فأتى به الحائط فرضي تمره فأعطاه ما قال رسول الله وما أمره من الزيادة، قال: فلما قبض اليهودي تمره، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، ما حملني على ما رأيتني صنعت يا عمر إلا أني قد رأيت في رسول الله صفته في التوراة كلها إلا الحلم، فاختبرت حلمه اليوم فوجدته على ما وصف في التوراة، وإني أشهدك أن هذا التمر وشطر مالي في فقراء المسلمين. فقال عمر: فقلت: أو بعضهم، فقال: أو بعضهم. قال: وأسلم أهل بيت اليهودي كلهم[1].

كما روى ثوبان رضي الله عنه قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سمّاه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: "إن اسمي محمد الذي سمّاني به أهلي". فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال له رسول الله ﷺ: "أ ينفعك شيء إن حدثتك؟" قال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: "سل". فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: "هم في الظلمة دون الجسر". قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: "فقراء المهاجرين". قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: "زيادة كبد النون". قال فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: "ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها". قال فما شرابهم

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد، 361/1؛ والمستدرك على الصحيحين، 678/2؛ والدر المنثور في التفسير المأثور، 577/3؛ ومؤمنو أهل الكتاب ومكانتهم في الإسلام، ص34-37، وتؤكد مخطوطات البحر الميت التي تم اكتشافها أن هناك فرقة من اليهود تسمّي الآسانيين أو القمرانيين تتهم الفرق اليهودية الأخرى بتحريف التوراة وقتل الأنبياء وتعذيبهم، وأن هذه الفرقة كانت تؤمن بمبعث نبي آخر الزمان ومن صفته أنه يحمل في كتفه خاتم النبوة، وأنها تنتظر مجيئه لتحارب الفرق الضالة، وله صفات أخرى موجودة في التوراة، للمزيد عن هذا الموضوع انظر: حياة المسيح، ومخطوطات البحر الميت لمحمود، ومخطوطات البحر الميت لحسين وتاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص95.

عليه؟ قال: "من عين فيها تسمّى سلسبيلاً". قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: "ينفعك إن حدثتك؟" قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلَا مني الرجل مني المرأة أ ذكراً بإذن الله، وإذا علَا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله". قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبيّ. ثم انصرف فذهب، فقال رسول الله ﷺ: "لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به"[1].

رابعاً: حواراه ﷺ مع النصارى[2]: كانت النصرانية منتشرة في عدد من الحواضر والقبائل في بلاد العرب، وكان أهلها أهل كتاب ذوي علم، وقد وصلتهم دعوة النبي ﷺ، فكان لبعضهم وفود وأفراد جاؤا إلى المدينة وقابلوا رسول الله ﷺ وآمنوا به[3]. ومن أهم القبائل النصرانية

---

[1] صحيح مسلم، 252/1، ورقم الحديث: 315؛ والسنن الكبرى للنسأي، 337/5؛ والمعجم الكبير، 93/2؛ والمستدرك، 548/3؛ والسنن الكبرى للبيهقي، 169/1؛ ويهود المدينة في العهد النبوي، ص260؛ والحوار أصوله وآدابه، ص 88-89.

[2] لقد قام كثير من علماء الشرق والغرب بإعداد الأبحاث حول الحوار الديني بين الرسول ﷺ والنصارى واعتبروها مدخلًا مهمًا إلى الحوار الإسلامي المسيحي، ومن أهم هذه الأبحاث باللغة العربية: يوسف درة الحداد، مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي وبسام داؤد عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، وهناك بعض الدراسات الإنجليزية الرائعة في هذه المجال ومن أهمها:

1. Abbas Al-Jirari: Dialogue from Islamic point of view (Rabat: ISESCO, 2000)
2. Miriam Sabirah Ashki: Islamic Approaches to Dialogue," Salam Institute: Fellowship Papers.
3. Robert M. Landau: What the world needs to know about interfaith Dialogue (Beliefnet e-book 2001)
4. Muhammad Shafiq: Interfaith Dialogue: A guide for Muslims (The International Institute of Islamic Thought, 1428AH/2007CE, USA.

[3] للتفصيل راجع : العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص93

التي جاءت إلى المدينة للمقابلة مع رسول الله ﷺ، وفد الداريين[1]، وفد تغلب[2]، وفود طي[3]، وفد فروة بن عمرو الجذامي[4]، إضافة إلى وفود قبائل غسان[5]، وفادة عدي بن حاتم[6]، وفد نصارى نجران.

ففي العام التاسع من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، قدم عليه وفد نصارى نجران من أرض اليمن لمحاورته ومناظرته ﷺ وسماع القرآن، والتثبت من دلائل نبوته وصفته ونعته كما جاءت في الإنجيل؛ فحاورهم الرسول ﷺ وبيّن لهم ما حرفوه من أمر دينهم، ودعاهم إلى الإسلام؛ فكان الحوار كما أورده ابن هشام كالتالي: "فلما كلّمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ: أسلما، قالا: قد أسلمنا، قال: إنكما لم تسلما فأسلما، قالا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليبَ وأكلكما الخنزيرَ، قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهما رسول الله ﷺ فلم يجبهما، فأنزل الله تعالى سورة آل عمران ببلاغ السماء لحلّ هذا اللغز العقدي الذي أعيى النصارى وكنيستهم طوال عصر

---

[1] وهم من نصارى العرب الذين وصلتهم دعوة الإسلام، وقد قدم عشرة منهم إلى النبي ﷺ في المدينة بعد عودته من تبوك. راجع : طبقات ابن سعد، 296/1؛ والعلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، ص157.

[2] كانت إحدى أهم قبائل العرب النصرانية، فيها العلماء والأحبار النصارى ذوي التأثير بين قومهم وغيرهم من القبائل وذوي التأثير بين قومهم وغيرهم من القبائل، للتفصيل راجع: طبقات ابن سعد، 273/1.

[3] طي قبيلة عربية قحطانية، قدم وفد منها على الرسول ﷺ في السنة التاسعة للهجرة، للتفصيل راجع: طبقات ابن سعد، 277/1.

[4] جذام قبيلة عربية من كهلان. وكان فروة بن عمرو عاملًا للروم على عرب معان، وكان على النصرانية فبلغته دعوة رسول الله ﷺ، فأسلم وبعث وفدًا إلى المدينة ومعه هدية لرسول الله ﷺ. للتفصيل راجع: سيرة ابن هشام، 237/4-238؛ وطبقات ابن سعد،305/1.

[5] غسان قبيلة عربية مشهورة، وكان أهلها على النصرانية، وقد قدم ثلاثة نفر منهم على النبي ﷺ في رمضان من السنة العاشرة للهجرة، راجع: طبقات ابن سعد، 292/1.

[6] وهو ابن لحاتم طي أشهر العرب الجاهليين بالكرم، أحد زعماء طي المشهورين، كان من زعماء النصرانية بين العرب. راجع: ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد،338/5

الفترة بين عيسى عليه السلام ومحمد ﷺ[1]، بقوله تعالى "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون"[2]، بل إنّ المفسرين ذكروا أن الآيات من أول سورة آل عمران إلى ثلاث وثمانين منها نزلت في مناسبة مجيء وفد نصارى نجران إلى النبي ﷺ[3]. وفي الجزء المذكور من السورة آيات كثيرة في محاجّة أهل الكتاب، حيث فتح باب الحوار معهم في المدينة، وحين وصل الحوار إلى طريق مسدود بشأن إسلامهم، وأبوا إلا البقاء على دينهم، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالمباهلة، قال تعالى "فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ"[4]. غير أنهم أحجموا خشية أن يبوءوا باللعنة لإقرارهم لبعضهم البعض بصدق نبوة الرسول ﷺ، واضطرارهم لخلافه، لكونهم من النصرانية على دين الامبراطور البيزنطي "قيصر الروم"، وكان الروم هم الذين بنوا لهم الكنائس بنجران ومنحوهم الألقاب والخلع الكهنوتية، وأغدقوا عليهم الأموال والهبات، لذا عادوا إلى بلادهم مظهرين خلاف النبي ﷺ مع إقرارهم بدفع الجزية السنوية له ولدولة الإسلام؛ فكانوا أول من دفع الجزية من أهل الكتاب[5].

وجاء في صحيح البخاري عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: "جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدَانِ أَنْ يُلاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لا تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيّاً فَلاعَنَّا لا نُفْلِحُ نَحْنُ وَلا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلاً أَمِيناً وَلا تَبْعَثْ

---

[1] سيرة ابن هشام، 573/1-584؛ وفتوح البلدان، ص76-77؛ طبقات ابن سعد، 357/1؛ وتاريخ الرسل والملوك، 139/3؛ والمغازي لابن شيبة، ص409؛ وفتح الباري، 259/16؛ وموقف النبي ﷺ من الديانات الثلاث الوثنية واليهودية والنصرانية، ص119؛ ومرويات السيرة النبوية لابن هشام عن موقف النصارى من نبوءة الرسول ﷺ ودعوته، مجلة جامعة الملك عبد العزيز: الآداب والعلوم الإنسانية، 86/1995/8-87؛ وأدب الحوار، ص10؛ والحوار أصوله وآدابه، ص90-91.

[2] سورة آل عمران: 59.

[3] تفسير القرآن العظيم، 480/1 وما بعدها.

[4] سورة آل عمران: 61.

[5] وكتاب الأموال، ص188؛ طبقات ابن سعد، 266/1، 287-288؛ وجامع البيان، 468/5 – 469؛ والحوار أصوله وآدابه، ص92؛ ومرويات السيرة النبوية، ص87-88، 89.

مَعَنَا إلا أَمِيناً، فَقَالَ ﷺ: لأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلاً أَمِيناً حَقَّ أَمِينٍ، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ"[1]. وأجاز ابن حجر - من خلال حوار نصارى نجران - مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعينت مصلحته، وفيها مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة"[2].

وهكذا نتعلم من حوارات الرسول ﷺ مع وفود النصارى مدى حرصه ﷺ على الأدب الجميل في المعاملة والحلم على المجادلين، وقد كانوا في مدينته وتحت سلطانه ولم يمسَّهم بأذًى، بل أكرم وفادتهم والتزم بأدب الجدال معهم بالحسنى كما أمره ربه، وكان حريصاً على إظهار الحق ليقيم الحجة على مجادليه، وانتهى الحوار معهم بإقرارهم بالحق مع إعراضهم عنه، إذ لو صدقوا لباهلوا ولكنهم جبنوا عن المباهلة لعلمهم أنه نبي، وذلك كما فعل آل فرعون مع آيات موسى عليه السلام "وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً"[3].

ومن أروع حوارات الرسول ﷺ مع النصاري حواره مع عدي بن حاتم الذي انتهى باعتناقه الإسلام؛ وكان عَدِيّ سيّد قومه طيّء من قبائل اليمن، وكان فيهم شريفاً مطاعاً، وتنصّر وصار يأخذ لنفسه ربع غنائمهم، واقتنع بهاتين: النصرانية المحرّفة والسلطان، قال: فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، وكان عدي يعلم أن دعوة الإسلام ماضية إلى الأمام، فكل الشواهد والحوادث تدل على ذلك، فلا مجال للمكابرة، ولذلك أمر راعياً له أن يجهز إبلاً سماناً قوية على مقربة منه، وقال له: إذا سمعت بجيش محمد قد وطئ أرضنا فآذني، ثم هرب إلى الشام وكانت أخته "سفانة بنت حاتم" قد وقعت في أسر المسلمين،[4]. ولما وصلت إلى النبي ﷺ أخبرته أنها ابنة الكريم حاتم الطائي، وطلبت منه أن يمنّ عليها، فأطلق سراحها وقال لها: "قد فعلت فلا تعجلي بالخروج حتى تجدي ثقة يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني". تقول: فأقمت حتى قدم رهط من بلي أو قضاعة، فقلت: يا رسول الله، قدم رهط من قومي

---

[1] صحيح البخاري، 171/5، رقم الحديث: 4380؛ ومرويات السيرة النبوية، ص85.

[2] فتح الباري، 697/7.

[3] سورة النمل: 14.

[4] انظر: وتاريخ الرسل والملوك، 112/3 –113.

لي فيهم ثقة وبلاغ، فكساني رسول الله ﷺ، وحملني، وأعطاني نفقة، فخرجت حتى قدمت الشام على أخي عدي بن حاتم[1]. فأخبرته بما لاقت من حسن المعاملة على يد الرسول ﷺ، وأقنعته بوجوب عودته وإسلامه[2]. فقرّر العودة ودار بينه وبين الرسول ﷺ هذا الحوار الجميل الذي ورد على لسان عدي قائلاً: "فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده فسلّمت عليه فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم. فقام رسول الله ﷺ فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلّمه في حاجتها، قال: فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك، ثم مضى رسول الله حتى دخل بيته فتناول وسادة من أدم محشوة ليفاً فقذفها إليَّ فقال لي: اجلس على هذه، قال قلت: لا، بل أنت فاجلس عليها، قال: لا، بل أنت، فجلست وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك! ثم قال: إيه يا عدي بن حاتم، ألم تك ركوسياً؟ قال: قلت: بلى، قال: أولم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال: قلت: بلى، قال: فإن ذلك لم يكن يحلّ لك في دينك!! قال: قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل. قال ثم قال: لعله يا عديَّ بن حاتم إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكنَّ المال يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ولعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكنَّ أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله، ولعله إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيمُ اللهِ ليوشكنَّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت، قال: فأسلمت.

---

[1] ومعرفة الصحابة، 255/5.

[2] والبداية والنهاية، 269/7.

فكان عديّ بن حاتم يقول: مضت الاثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونَنَّ!! قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فُتحت، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف شيئاً حتى تحجَّ هذا البيت، وأيمُ اللهِ لتكونَنَّ الثالثة، ليفيضَنَّ المالُ حتى لا يوجدَ من يأخذُه"[1].

لقد أراد النبي ﷺ بالأسوة الحسنة والفعل المباشر أن يعلّم عدياً بعضاً من حقيقة النبوة، فهي الرحمة والتواضع للناس والبعد عن الترف وزخرف الحياة الدنيا طمعاً في وعد الله بالنعيم المقيم في الآخرة، هكذا تعلم عدي في طريقه إلى بيت النبي ﷺ وحين دخل البيت لم يجد قصراً منيفاً ولا عيشاً ناعماً، بل وجد وسادة طرحها له النبي ﷺ ليجلس عليها.

هذا درس جليل من دروس النبوة المباركة، ثم يأتي الحوار النبوي بعد ذلك ليجهز على البقية الباقية من الشك أو التردد عند عدي، لقد أخبره النبي ﷺ بحقيقة حاله ومخالفته قواعد الدين الذي كان يتبعه، ثم أخبره هذه الأخبار الثلاثة التي ستكون بإذن الله، عند ذلك لم يجد الرجل بداً من الاستجابة لصوت الحق، فأسلم وصار يحدّث بعد ذلك بحديث إسلامه هذا ليكون عبرة ودرساً للناس، وهكذا كان "نهج احتواء المخالف واللين معه سلوكاً نبوياً لم يزل ملازماً للنبي ﷺ في أصعب المواقف وأكثرها إثارة للغضب من قبل مخالفيه"[2].

المحور الرابع: حقوق الرسول محمد ﷺ من خلال كتابات المستشرقين

كثيرة هي الدراسات الغربية التي تعرضت للحديث عن شخص الرسول ﷺ بوصفه أبرز شخصية إسلامية، بل كما تصوره الوعي الأوروبي في العصور الوسطى هو صاحب الدين الجديد المسمّى الإسلام. وتنوّعت هذه الدراسات ما بين الهجوم على شخص الرسول ﷺ في الكتابات المتطرفة أو دراسة حياته وشخصيته بشكل موضوعي كما في الدراسات المعتدلة. وسوف نحاول في هذا المحور دراسة نماذج من المدرسة الموضوعية المعتدلة للوقوف بشكل عام على صورة الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ودلالاتها التاريخية والفكرية.

---

[1] تاريخ الرسل والملوك، 3/114- 115.

[2] فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، ص 60.

في مطلع القرن الثامن عشر تهيّأت أول فرصة للتحول الإيجابي في موقف الغرب من الرسول ﷺ، وكانت البداية من هولندا في عامي 1705م و1730م ففي العام الأول نشر مستشرق هولندي يدعى هادريان ريلاند كتاباً عن "الديانة المحمدية" قدم فيه عرض منصف عن الإسلام والرسول ﷺ وسرعان ما ترجم الكتاب لعدد من اللغات الأوروبية. وفي عام 1730م صدر كتاب لمؤلف يدعى "بولان فيليه" تضمن الإشادة العظيمة بالرسول ﷺ[1].

وسرعان ما سرت هذه الروح في باقي أجزاء أوربا، وإن اصطدمت أحياناً ببقايا الفكر العدائي الراسخ في أذهان الأوربيين. ولا أدلّ على ذلك من أن كاتباً مثل الفرنسى فولتير هاجم الرسول ﷺ بصورة لاذعة في مسرحيته الشعرية الشهيرة "محمد" التي عرضت لأول مرة عام 1741م والتي صُوّر الرسول ﷺ فيها في مسوح الدجالين مستعيناً بروح الكراهية التي سادت في الغرب لفترة طويلة نحو شخص الرسول ﷺ[2]. ثم سرعان ما عدل نظرته هذه في مقالة له نشرها عام 1756م امتدح فيها الرسول ﷺ باعتباره أحد المشرعين الثلاثة العظام في العالم، وأردف بقوله لقد كان بالتأكيد رجلاً عظيماً جداً، وقام بأعظم دور يمكن أن يقوم به إنسان[3].

كذلك نجد توماس كارلايل الذي يرفض اتهام محمد بالكذب والتضليل، وأعلن تقديره لرسالته التي ما زالت تضيء حياة الكثير من الناس، ودافع عن الرسول ﷺ باعتباره صاحب دين حقيقي[4].

وانتقلت هذه الروح إلى ألمانيا، وظهرت بعض المؤلفات التي تناولت الرسول ﷺ بإنصاف، مثل مؤلف هردر المسمّى "أفكار" الذي أثنى على حماسة النبي ﷺ وطريقة عبادته التوحيدية الخيرة،

---

[1] عالم المعرفة، العدد 194، لسنة 1995، ص180.

[2] المصدر نفسه، العدد 215، لسنة 1996، ص100.

[3] المصدر نفسه، العدد 194، لسنة 1995، ص181.

[4] سيرة النبي محمد، ص59.

وذكر أن فساد التقاليد اليهودية والمسيحية من ناحية، وفصاحة قومه ومواهبه الشخصية من ناحية أخرى كانت هي الأجنحة التي حلقت بالرسول ﷺ عالياً[1].

وسوف نحاول هنا أن نلقي الضوء على بعض نماذج الكتابات الغربية المعتدلة للرسول ﷺ، وخاصة المدرسة الألمانية. وسوف نركز على نموذجين من هذه المدرسة وهما "جوته وهونكه" باعتبارهما نموذجين يعبران بشكل كبير عن طبيعة وخصائص هذه المدرسة.

وكان اختيار المدرسة الألمانية يرجع لعدة أسباب:

1 – تميز هذه المدرسة بحياد نسبي عن الغايات السياسية أو الاستعمارية أو الدينية. فهي في عمومها لا تنطلق من خلفيات إيديولوجية استعمارية. فألمانيا لم تكن لها مستعمرات في البلدان العربية أو الإسلامية. كما أنها لم تُعنَ بنشر المسيحية، أو بالأحرى لم يترك الفرنسيون والإنجليز للألمان حرية العمل في هذا الحقل.

2 – روح هذه المدرسة المسالمة الخالية من العدائية للعنصر العربي، وغلبة الروح العلمية التي تبتعد عن الأغراض، وتتقصى الحقائق بتجرد وموضوعية؛ حيث إن معظم المستشرقين الألمان لم يتعمدوا تشويه الحضارة الإسلامية العربية، بل كثيراً ما نجدهم يُقدّرون التراث الإسلامي العربي، ويُبدون إعجابَهم به.

وفي ظل هذا المناخ ظهر النموذج الأول الذي اخترناه من المدرسة الألمانية وهو الأديب الألماني الكبير يوهان جوته (1749 – 1832م) الذي يعدّ من أشهر وأهمّ الشخصيات الأدبية في تاريخ الأدب الألماني والأدب العالمي. وقد شارك جوته بعض مفكري حركة التنوير نظرتهم المتفتحة وروحهم الليبرالية المتحررة في النظر إلى الإسلام ونبيه محمد ﷺ. ولم يسبق لأيّ شاعر ألماني في أيّ عصر من العصور أن قدم للرسول ﷺ هذا الثناء والمديح العظيم مثلما فعل جوته. وعلاقة جوته بالإسلام والرسول ﷺ تستحق منا الوقوف عندها بوصفها تمثّل علامة بارزة للفكر المعتدل في الغرب الأوربي بوجه عام، والفكر الألماني بوجه خاص، فكل

[1] عالم المعرفة، العدد 194، لسنة 1995، ص182.

الشواهد تدل على أنه كان في أعماق وجدانه شديد الاهتمام بالإسلام، وأن معرفته بالقرآن الكريم كانت بعد الكتاب المقدس أوثق من معرفته بأيّ كتاب من كتب الديانات الأخرى. وقد بلغ اهتمامه بالرسول ﷺ أن نظم وهو في سن الثالثة والعشرين قصيدة رائعة أشاد فيها بالنبي محمد ﷺ[1].

وتصوّر القصيدة النبي ﷺ بصفته هادياً للبشر، في صورة نهر يبدأ بالتدفق رفيقاً هادئاً، ثم لا يلبث أن يجيش بشكل مطرد ويتحول في عنفوانه إلى سيل عارم. وهي تصوّر اتساع هذا النهر وتعاظم قوته الروحية في زحفها الظافر الرائع لتصبّ أخيراً في البحر المحيط، رمز الألوهية. والقصيدة منظومة في شكل حوار يدور بين فاطمة ابنة النبي ﷺ وزوجها علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه). ونقتبس منها هذا الجزء:

عليّ: انظروا إلى السيل العارم القوي، قد انحدر من الجبل الشامخ العلي.

فاطمة: لقد أرضعته من وراء السحاب ملائكة الخير في مهده بين الصخور.

عليّ: وكالقائد المقدام، الثابت الخطى، يجر في أثره جداول الربى والنجاد.

فاطمة: ويبلغ الوادي، فتتفتح الأزهار تحت أقدامه، وتحيا المروج من أنفاسه[2].

ولا ريب أن اهتمام جوته بالإسلام ونبيه ﷺ قد ارتبط بمساعي عصره وتوجهاته. فحركة التنوير التي سادتها فكرة التسامح، رأت أهمّ واجباتها أن تبين قيمة الأديان الأخرى غير المسيحية. ومن ثم بدأت أنظار دعاة التنوير في الاتجاه إلى الإسلام، ليس لسبب بسيط هو أنهم كانوا أكثر إلماماً به، ولأن معرفتهم في ذلك الحين بديانات الهند والشرق الأقصى لم تصل إلى الحد الكافي للكشف عن حقيقتها الفعلية.

وبوجه عام يمثّل جوته نموذجاً للفكر الغربي المعتدل في نظرته الموضوعية للإسلام والنبي محمد ﷺ، منذ أن أدخل الإسلام في دائرة اهتماماته وتعمق في دراسته بشكل مكثف، سواء

---

[1] المصدر نفسه، العدد 194، لسنة 1995، ص177.

[2] الشرق والإسلام في أدب جوته، ص39.

في مؤلفاته أو في أقواله مما يجعله في مقدمة أعلام المدرسة الألمانية المعتدلة المعنية بالفكر الإسلامي وقضاياه الهامة.

والنموذج الثاني الذي نتناوله من هذه المدرسة هي زيجريد هونكه (1913- 1999م) المستشرقة الألمانية المعروفة بكتاباتها في مجال الدراسات الدينية. وقد أظهرت هونكة احترامها البالغ للإسلام ونبيه محمد ﷺ وتناولتهما بموضوعية بالغة، فقد تحدثت عن الإسلام في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" بقولها: أن الإسلام هو ولا شك أعظم ديانة على ظهر الأرض سماحة وإنصافاً، نقولها بلا تحيز، ودون أن نسمح للأحكام الظالمة أن تلطخه بالسواد، إذا ما نحينا بعض المغالطات التاريخية الآثمة في حقه، والجهل البحت به؛ وإن علينا تقبل هذا الشريك والصديق، مع ضمان حقه في أن يكون كما هو[1].

وفيما يتعلق بشخص الرسول ﷺ نراها لا تخفي إعجابها باهتمام الرسول ﷺ بالعلم وحثه على طلبه فتقول: لقد أوصى محمد كلّ مؤمن -رجلاً كان أو امرأة - بطلب العلم، وجعل من ذلك واجباً دينياً. فهو الذي يقول للمؤمنين "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" ويرشد أتباعه دائماً إلى هذا فيخبرهم بأن ثواب التعلم كثواب الصيام وأن ثواب تعليمه كثواب الصلاة.

وتردف هونكه قائلة: كان محمد يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة للتعرف على قدرة الخالق. وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الإيمان مردّداً عليهم "اطلبوا العلم ولو في الصين". والرسول ﷺ يلفت أنظارهم إلى علوم كل الشعوب، فالعلم يخدم الدين، والمعرفة من الله وترجع إليه، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيّا كان مصدرها ولو نطق بالعلم كافر.

[1] شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية على أوروبا، ص101.

وتقارن بين تشجيع الرسول ﷺ لطلب العلم وموقف الكنيسة الغربية وآبائها من العلم وما أحدثه ذلك من هوة شاسعة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية في العصور الوسطى[1].

وفي إطار سعيها للدفاع عن الرسول ﷺ والإسلام، نراها في كتابها الذي يحمل اسم "الله ليس كذلك" ترفض تلك التسمية التي أطلقها الغرب على المسلمين وهي "المحمديون" وتعتبرها مغالطة واضحة ترجع لخرافات ذاعت بين الأوربيين في العصور الوسطى عن المسلمين في الأندلس وكيف أنهم يعبدون صنماً ذهبياً صنعوه للنبي ويقدمون له القرابين البشرية، وبمعنى واضح يعبدونه في طقوس وثنية واضحة. وتعزو ذلك إلى المعرفة السطحية للغرب الأوربي بالعرب والمسلمين[2].

ولم تكتف هونكه بلوم الغربيين من غير المثقفين على هذه النظرة والفكر تجاه الرسول ﷺ والإسلام، بل لامت المثقفين والدارسين الذين استخدموا هذا الفكر وتلك التسمية مثل آيرنولد توينبي التي لم تتورع عن التصريح بخجلها من سطحية تفكير عالم بقيمته على هذه النظرة غير الموضوعية للإسلام وشخص الرسول ﷺ[3].

صفوة القول؛ أن صورة الرسول ﷺ في كتابات الألمان المعتدلين تميّزت بالموضوعية والإعجاب بشخص الرسول ﷺ، هذا الإعجاب الذي وصل إلى حدّ الانبهار كما في حالة جوته، أو الاحترام العميق كما في حالة هونكه. وهذان النموذجان مثّلا إلى حد بعيد ملامح المدرسة الألمانية المعتدلة التي تعرضت للإسلام ورسوله بالبحث والدراسة.

وقبل أن نترك المدرسة المعتدلة يهمّنا هنا أن نتأمل ما كتبته إحدى المستشرقات عن شخصية الرسول ﷺ فتقول: كان محمد يعيش دائماً حياة بساطة وتقشف، حتى عندما أصبح أقوى سيد في بلاد العرب كان يكره الترف، وكان منزله كثيراً ما يخلو من الطعام، ولم

---

[1] المصدر نفسه، ص369.

[2] الله ليس كذلك، ص11.

[3] المصدر نفسه، ص11.

يكن لديه في يوم من الأيام أكثر من مجموعة واحدة من الملابس، وعندما كان بعض الصحابة يحثونه على ارتداء ملابس رسمية فاخرة، كان دائماً ما يرفض وكان يفضل القماش الخشن الغليظ الذي يرتديه معظم أفراد أمته[1].

كما صحّ لسان أحد المستشرقين المعتدلين حين اعتبر محاربة الوثنية من أهمّ خواصّ محمد ﷺ، وما جاءت الأنبياء والرسل إلا لتحقيق هذه البغية، ولم تزل أمنية كل غيور ومخلص وكل وليّ تقي وكل رسول ونبي، ومحمد ﷺ هو الذي بلغها على الكمال[2].

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر:

1. القرآن الكريم.
2. ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (عدة أجزاء) (تحقيق: السيد محمد عبد المعطي وآخرون)، القاهرة، 1980م.
3. ابن سعد: الطبقات الكبير، (عدة أجزاء)، مكتبة الخانجي، مصر (د.ت).
4. ابن سلام: كتاب الأموال، نشره عبد الله إبراهيم الأنصاري، الدوحة، 1987م
5. ابن شيبة: كتاب المغازي (تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم العمري)، دار اشبيليا، الرياض، 1999م.
6. ابن كثير: البداية والنهاية، (عدة أجزاء) (تحقيق: علي شيري)، دار إحياء التراث، 1988م
7. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (عدة أجزاء) (تحقيق: محمد أنس مصطفي)، بيروت، 2000م.
8. ابن ماجه: سنن ابن ماجه، المطبعة النظامية، دلهي، 1920م.
9. ابن منظور: لسان العرب، (عدة أجزاء)، بيروت (د.ت).

[1] سيرة النبي محمد، ص144.

[2] محمد المثل الأعلى، ص39-40

10. ابن هشام: السيرة النبوية (عدة أجزاء)، دار الفكر، 1981م
11. أبو داوود: سنن أبي داوود، (عدة أجزاء) (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد)، القاهرة، 1930م.
12. أبو نعيم: دلائل النبوة، (تحقيق: محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس)، بيروت، 1986م.
13. أبو نعيم: معرفة الصحابة، (عدة أجزاء)، (تحقيق: محمد حسن محمد)، بيروت، 2002م.
14. أحمد بن جنبل: المسند، (عشرون مجلداً)، (تحقيق: أحمد محمد شاكر)، القاهرة، 1995م.
15. الأصبهاني: المفردات في غريب القرآن، (عدة أجزاء)، (تحقيق: محمد سيد كيلاني)، القاهرة، 1961م.
16. الألباني: صحيح سنن الترمذي: تحقيق زهير الشاويش، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، 1408هـ
17. البخاري: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، (عدة أجزاء)، (تحقيق: محمد زهير)، دار طوق النجاة، 1422هـ
18. البلاذري: فتوح البلدان، (تحقيق: رضوان محمد رضوان)، القاهرة، 1932م.
19. البيهقي: السنن الكبرى، (عدة أجزاء) ، (تحقيق: محمد عطا)، مكة المكرمة، 1994م.
20. البيهقي: دلائل النبوة، (عدة أجزاء)، (تحقيق: عبد المعطي قلعجي)، بيروت، 1985م.
21. الترمذي: الجامع الصحيح سنن الترمذي، (عدة أجزاء)، (تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف)، القاهرة، 1964م.
22. الخرائطي: مساويء الأخلاق، (تحقيق: مجدي السيد إبراهيم)، القاهرة، 1989م.
23. الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (عدة أجزاء)، (تحقيق: مصطفي عبد القادر)، بيروت (د.ت).
24. الزبير بن بكار: جمهرة نسب قريش وأخبارها، (تحقيق: محمود محمد أبو فهر)، مجلة المجمع العلمي، 1962م.
25. السيوطي: الدر المنثور في التفسير المأثور، (عدة أجزاء)، بيروت، 1990م.
26. الطبراني: المعجم الكبير، (عدة أجزاء)، (تحقيق: حمدي بن عبد المجيد)، الموصل، 1983م.

27. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، (عدة أجزاء)، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر (د.ت).
28. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (عدة أجزاء)، (تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي)، الطبعة الأولى، عالم الكتب، الرياض، 2003م.
29. القاسم بن سلام: فضائل القرآن، (عدة أجزاء)، (تحقيق: أحمد بن عبد الواحد الخياطي)، الرباط، 1995م.
30. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، (عدة أجزاء)، (تحقيق وتصحيح: أبو إسحاق إبراهيم أطفيش)، القاهرة، 1967م.
31. القزويني: المقاييس في اللغة، (عدة أجزاء)، دار الفكر، بيروت، 1994م.
32. المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، (عدة أجزاء) (تحقيق: بشار عواد معروف)، بيروت، 1985م.
33. مسلم: صحيح مسلم، (عدة أجزاء)، (تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي)، القاهرة، 1955م.
34. النسائي: سنن النسائي، (عدة أجزاء)، مكتب المطبوعات الإسلامية، 1994م.
35. النووي: شرح صحيح مسلم، (عدة أجزاء)، القاهرة، 2003م.
36. النيسابوري: المستدرك علي الصحيحين، (عدة أجزاء)، (تحقيق: مصطفي عبد القادر)، بيروت، 1990م.
37. الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (عدة أجزاء)، مؤسسة المعارف، 1406هـ

ثانياً: المراجع:

38. أحمد الزغيبي: العنصرية اليهودية وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، جزآن، الرياض 1998م.
39. أحمد بن عبد الرحمن الصويان: الحوار أصوله المنهجية وآدابه السلوكية، الرياض 1413هـ
40. إسرائيل ولفنسون (أبوذؤيت): تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، طبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر ، 1914م.
41. بسام داؤد عجك: الحوار الإسلامي المسيحي، دار قتيبة دون ذكر مكان النشر، 1988م.

42. توماس كارليل: محمد المثل الاعلى، تعريب محمد السباعي، تقديم: محمود النجيري، مكتبة النافذة، القاهرة 2008م.
43. حسن خالد: موقف النبي ﷺ من الديانات الثلاث الوثنية واليهودية والنصرانية، دار الكتاب الإسلامي (د.ت).
44. حسين عمر: مخطوطات البحر الميت، الأردن، 1982م.
45. راغب السرجاني: فن التعامل النبوي مع غير المسلمين، القاهرة، 2010م.
46. رقية طه جابر العلواني: فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، السعودية، 2005م.
47. زغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية على أوروبا، ت. فاروق بيضون، كمال الدسوقي، بيروت، 1993م.
48. زيغريد هونكه: الله ليس كذلك، القاهرة، 1996م.
49. سالم نوري؛ فقه السيرة النبوية، دمشق، 1427هـ
50. سامي حمدان: يهود المدينة في العهد النبوي أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية غزة، 2004م.
51. سعد بن ناصر: أدب الحوار، الرياض، 2006 م.
52. السيد علي خضر: الحوار في السيرة، رابطة العالم الإسلامي، 1431هـ
53. سيف الدين شاهين: أدب الحوار في الإسلام، الرياض، 1992م.
54. طه جابر: أدب الاختلاف في الإسلام، أمريكا، 1991م.
55. عباس محمود العقاد: حياة المسيح، بيروت، 1978م.
56. عبد الرحمن صدقي: الشرق والإسلام في أدب جوته، القاهرة، 1986م.
57. عدنان أحمد: عقائد اليهود من خلال الحوار مع النبي ﷺ، رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية بغزة، 2010م.
58. علي جريشة: مناهج الدعوة وأساليبها، دار الوفاء، 1986م.
59. عمار دحماني: منهج النبي ﷺ في مواجهة التحديات الدعوية، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين الجزائر، 2009م.
60. عمر وفيق: مؤمنو أهل الكتاب ومكانتهم في الإسلام، الطبعة الأولى دار البشائر الإسلامية، 1998م.

61. عيسي الدريبي: الحوار الناجح في ضوء حوارات الأنبياء والرسل، الرياض، 2010م.
62. فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، دار القلم، دمشق، 1426هـ
63. كاتارينا مومزن: جوته والعالم العربى، ترجمة عدنان عباس علي، مراجعة، عبد الغفار مكاوي، عالم المعرفة، العدد 194، الكويت، 1995م.
64. كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ترجمة فاطمة نصر، محمد عناني، القاهرة، 1998م.
65. محسن بن محمد: حوار الرسول ﷺ مع اليهود، طبعة دار الدعوة للنشر والتوزيع، الكويت، 1989م.
66. محمد الندوي: مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ، دار الاعتصام، القاهرة، 1989م.
67. محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن: قواعده وأساليبه، بيروت، 2001م.
68. محمود العابدي: مخطوطات البحر الميت، الأردن، 1967م.
69. معن محمود عثمان: الحوار في القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة النجاح، فلسطين، 2005م.
70. موسي بن يحيي: الحوار أصوله وآدابه وكيف نربي أبنائنا عليه، المدينة المنورة، 1427هـ
71. ناصر محمدي: التعامل مع غير المسلمين في العهد النبوى، القاهرة، 2009م.
72. نجيب محمد البهبيتي، المعلقة العربية الأولي، الدار البيضاء، 1981م.
73. الندوة العالمية للشباب الإسلامي: في أصول الحوار، دار التوزيع والنشر، 1998م.
74. اليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ت: خلف محمد الجراد، مراجعة محمود حمدي زقزوق، عالم المعرفة، العدد 215، الكويت، 1996م.
75. يوسف درة الحداد: مدخل إلى الحوار الإسلامي المسيحي، المكتبة البوليسية، لبنان، 1986م.

المراجع الأجنبية:

76. Abbas Al-Jirari: Dialogue from Islamic point of view (Rabat: ISESCO, 2000)

77. Miriam Sabirah Ashki: Islamic Approaches to Dialogue," Salam Institute: Fellowship Papers.

78. Muhammad Shafiq: Interfaith Dialogue, A Guide for Muslims. The International Institute of Islamic Thought, Herndon, USA, 2007

79. Muhammad Shafiq: Interfaith Dialogue: A guide for Muslims (The International Institute of Islamic Thought, 1428AH/2007CE, USA.

80. Robert M. Landau: What the world needs to know about interfaith Dialogue (Beliefnet e-book 2001)

على هامش السيرة، دراسة تحليلية نقدية

- د. أورنك زيب الأعظمي

الدكتور طه حسين المصري من الباحثين والنقّاد الذين طار صيتهم في آفاق العالم العربي والإسلامي كأديب بارع وكاتب كبير وناقد لاذع فقد خلف الدكتور المصري مؤلفات ورسائل باللغة العربية، أثنى عليها البعض كما انتقدها البعض الآخر فهو بين ممدوح ومقدوح في ميدان الكتابة والتحقيق. نالت معظم مؤلفاته قبولاً وردّاً فاشتهرت في كافة الدوائر العلمية والأدبية ومن بين هذه المؤلفات "مع أبي العلاء المعرّي" و"فلسفة ابن خلدون" و"في الأدب الجاهلي" و"حديث الأربعاء" و"الأيام" و"على هامش السيرة".

مسّت يدي أوّل ما مسّت كتابه المشتهر "في الأدب العربي" حينما كنت في مدرسة الإصلاح بسرائ مير، أعظم كره (الهند) ثم قرأتُ سلسة إسلامياته بما فيها "على هامش السيرة" و"علي وبنوه" و"عثمان وبنوه" كما قرأت روايته "أديب" ثم حينما وصلتُ إلى دلهي والتحقت بجامعة جواهر لعل نهرو قرأت في سيرته الذاتية "الأيام" التي كانت إحدى الكتب المقرّرة الدراسية هنا فقمتُ بدراسته النقدية والتحليلية، الدراسة التي تمّ طبعها فيما بعد بعنوان "الأيام دراسة تعريفية تحليلية نقدية". وكذا قرأت في الجامعة "حديث الأربعاء" وكتاباته الأخرى التي عثرت عليها حيناً لآخر.

وهذا من فضل كلية شبلي الوطنية التي سنحتْ لنا الفرصة لاستئناف القراءة في هذا الكاتب والناقد المصري الكبير فندوته العلمية التي موضوعها الرئيسي "سيرة النبي في الآداب العالمية"[1] قد جدّدتْ ما قرأتُ ودعتنا إلى إعادة القراءة في كتابه الشهير "على هامش

[1] ألقيت هذه المقالة في تلك الندوة والتي عقدت في 26-2011/2/27م

السيرة"[1] ففيما يلي ما درستُ وما وصلتُ إليه من الرأي عن هذا الكتاب الأدبي الكبير الذي ينطق عن سيرة النبي الأميّ محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

الباعث على هذا التأليف: يبدو من دراسة مقدّمة هذه الرواية أنه لم يقم بكتابها على روية وفكر ولا بوعي خاصّ منه بل كان يقرأ منذ زمان صفحات الأدب العربي القديم وتاريخه وسيرة النبي التي كُتِبَتْ بلغة هي ليست بسهلة وليس عامة القرّاء بقادرين على أنْ يفهموها بسهولة فأراد الدكتور طه حسين أنْ يسهّل هذه العقبة وييسّر هذه الطريقة الوعرة فقام بكتابة هذه الفصول وبنشرها فيما بين عامة الناس فهي لم تكتب للباحثين ولا للمحقّقين الكبار. يقول هو في بداية هذه الرواية:

"هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين؛ لأني لم أرد بها إلى العلم ولم أقصد بها إلى التاريخ. وإنما هي صورة عرضت لي أثناء قراءتي للسيرة فأثبتها مسرعاً، ثم لم أرَ بنشرها بأساً. ولعلي رأيت في نشرها شيئاً من الخير؛ فهي تردّ على الناس أطرافاً من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم، فليس يقرؤها منهم إلا أولئك الذين أتيحت لهم ثقافة واسعة عميقة في الأدب العربي القديم. وإنك لتلتمس الذين يقرءونها ما كتب القدماء في السيرة وحديث العرب قبل الإسلام فلا تكاد تظفر بهم".[2]

ويمضي قائلاً:

"إنما يقرأ الناس اليوم ما يكتب لهم المعاصرون في الأدب الحديث بلغتهم أو بلغة أجنبية من هذه اللغات المنتشرة في الشرق، يجدون في قراءة هذا الأدب من اليسر والسهولة، ومن اللذة والمتاع، ما يُغريهم به ويرغبهم فيه، فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة، وفهمه أعسر، وتذوقه أشدّ عسراً. وأين هذا القارئ الذي يطمئنّ إلى قراءة الأسانيد المطوّلة، والأخبار التي

---

[1] صدرت من دار المعارف بمصر فصدر جزؤه الأول في 1962م بينما صدر الجزء الثاني في 1960م كما أن الجزء الثالث صدر في 1961م وقد أحلت إلى طبعاتها هذه.

[2] على هامش السيرة، 5/1

يلتوي بها الاستطراد، وتجور بها لغتها القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهيّن الذي لا يكلف مشقة ولا عناء!".[1]

وله بجانب هذا الباعث أهداف وغايات سأذكرها حينما أبحث عن أهدافه وراء كتابة هذه الرواية.

ما هو الأدب الحيّ الخصب: قبل أنْ أذكر النماذج التي تدلّ على الأدب الحيّ الخصب أودّ أنْ اتكلّم شيئاً عن هذا النوع من الأدب. فالأدب كما تكلم عنه الأدباء كلهم عبارة عن التجربة الذاتية في صورة موحية أي أنْ يكون الكلام، شعراً كان أو نثراً، دالاً على التجربة في عبارات وأساليب توحي وتثير في القرّاء عاطفة، وما سواه من الكلام ليس بأدب في معناه الاصطلاحي بل هو كلام منثور أو منظوم. وإلى هذا الجانب أشار الدكتور طه حسين في كتابه "على هامش السيرة" فهو يقول:

" --- إنما الأدب الخصب حقاً، هو الذي يلذّك حين تقرأه؛ لأنه يقدّم إليك ما يُرضي عقلك وشعورك، ولأنه يوحي إليك ما ليس فيه، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص، ويعيرك من خصبه خصباً، ومن ثروته ثروة، ومن قوته قوة، ويُنطقك كما أنطق القدماء، ولا يستقرّ في قلبك حتى يتصوّر في صورة قلبك، أو يصوّر قلبك في صورته، وإذا أنت تعيده على الناس فتلقيه إليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحيونها، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم، وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم. هذا هو الأدب الخصب. هذا هو الأدب القادر على البقاء ومناهضة الأيام."[2]

ويقول في روايته مشيراً إلى هذا الجانب الأدبي:

"وفي أدبنا العربي على قوته الخاصة، وما يكفل للناس من لذة ومتاع، قدرة على الوحي، وقدرة على الإلهام. فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة، ولم تحفظ

---

[1] المصدر نفسه، 5/1

[2] المصدر نفسه، 6/1

في صورة بعينها، وإنما قصّها الرواة في ألوان من القصص، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف. وقل مثل ذلك في السيرة نفسها؛ فقد ألهمت الكتّاب والشعراء في أكثر العصور الإسلامية وفي أكثر البلاد الإسلامية أيضاً؛ فصوّروها صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفني. وقل مثل ذلك في الغزوات والفتوح وقل مثل هذا في الفتن والمحن التي أصابت العرب في عصورهم المختلفة"[1]

وبما أنّ ذكر النماذج لهذا الأدب الحيّ سيجعل المقالة طويلة مملّة فأريد أنْ اكتفي بنموذج واحد وهو صورة لقاء بحيرى محمّداً صلّى الله عليه وسلّم و انطباعه عنه:

"قد ألقي في روعي أثناء النوم في صورة مجملة غامضة، ولا أكاد أتبيّن منها إلا أني أحسست في تلك الليلة أنْ سيحدث لي حدث ذو بال إذا كان الغد. فأصبحت وإني لأنتظر شيئاً، وأضحيت وإني لمستيقن أنْ سيحدث لي بعض الأمر. وما هي إلا أنْ يرتفع الضحا وإذا أنا أطلع من أعلى الصومعة فأرى ما يملؤني روعة وروعاً: أرى هذا الصبي ينفرد بهذا الظلّ دون أنْ يشعر بذلك أحد، ودون أنْ يلتفت هو نفسه إليه أو يشعر به، حتى إذا دنت القافلة وحطّت رحالها، جعل الصبي كلما انتقل انتقلت معه سحابته تلك، تظلّه وتقيه حرّ الشمس، ولا يشعر بذلك أحد، ولا يفطن لذلك إنسان. وأسأل من حولي: أ يرون ما أرى؟ فإذا هم كغيرهم من الناس لا يرون. وأدعو القوم إلى طعام قد أعددته لهم لما رأيت ولما كان قد ألقي في روعي! فكلهم يستجيب لدعوتي إلا هذا الصبي، فإنهم يخلفونه في رحالهم. فأسأل وألحّ في السؤال، حتى أعلم قد حضروا جميعاً طعامي إلا هذا الغلام، فألحّ في حضوره فيحضره القوم، وإنهم ليتلاومون على أنْ خلفوه! حتى إذا رفع القوم أيديهم عن الطعام، أخذت أحتال حتى أخلو إلى الشيخ الذي يصحب هذا الصبي. فما أزال أحتال اسأله وأستقصي أمره، حتى أعرف من حال الصبي ما حدثتك به. ثم أتحدّث إلى الصبي نفسه، فيا للوجه المشرق المطمئنّ يُنبئ عن نفس مشرقة مطمئنة! ويا للصوت العذب ينبئ عن خلق عذب! ويا للحديث الكريم ينبئ عن قلب كريم! وإني لأسأل الصبي واستحلفه بأوثان قومه،

[1] المصدر نفسه، 1:8

فلا أرى منه إلا نفوراً وازوراراً، وإذا هو ينبغي بأنه لم يبغض شيئاً قط كما يبغض هذه الأوثان. فأستحلفه بالله ليصدّقني الحديث فيما أسأل عنه، فيجيبني إلى ما أردت. وأنا أسأله عن أمره، جليه وغامضه، عما ينبغي أنْ يحدث له يقظان، وعما ينبغي أنْ يحدث له نائماً، وعما ينبغي أنْ يحدث له مجتمعاً إلى الناس، وعما ينبغي أنْ يحدث له خالياً إلى نفسه، فلا يجيبني إلا بما كنت أنتظر أنْ يجيبني به".[1]

الأهداف وراء تأليف هذه الرواية: وبجانب الباعث الذي ذكرته آنفاً فكان للدكتور طه حسين أهداف أخرى وراء تأليف هذه الرواية، أوجزها كما يلي:

1. <u>الترغيب في قراءة السيرة النبوية:</u> الهدف الأوّل الذي كان وراء تأليف هذه الرواية هو ترغيب القرّاء في قراءة السيرة النبوية. فيقول الدكتور وهو يشير إلى هذا الجانب من أهدافه:

"فليس في هدا الكتاب إذاً تكلف ولا تصنّع، ولا محاولة للإجادة، ولا اجتناب للتقصير، وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب التي لا أعدل بها كتباً أخرى مهما تكن، والتي لا أملّ قراءتها والأنس إليها، والتي لا ينقضي حبّي لها وإعجابي بها، وحرصي على أنْ يقرأها الناس. ولكن الناس مع الأسف لا يقرءونها؛ لأنهم لا يريدون أو لأنهم لا يستطيعون. فإذا استطاع هذا الكتاب أنْ يحبّب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة، وكتب الأدب العربي القديم عامة، والتماس المتاع الفنّي في صحفها الخصبة، فأنا سعيد حقاً، موفّق حقاً لأحبّ الأشياء إليّ، وآثرها عندي"[2]

2. <u>الترغيب في قراءة الحياة العربية الأولى:</u> والهدف الثاني الذي قد أراده الدكتور طه حسين وراء هذه الرواية هو ترغيب الشباب في قراءة الحياة العربية الأولى، فهو يقول مشيراً إليها:

---

[1] المصدر نفسه، 2/76-77

[2] المصدر نفسه، 9/1

"وإذا استطاع هذا الكتاب أنْ يلقي في نفوس الشباب حبّ الحياة العربية الأولى، ويلفتهم إلى أنّ في سذاجتها ويسرها جمالاً ليس أقلّ روعة ولا نفاذاً إلى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة المعقّدة، فأنا سعيد موفّق لبعض ما أريد"[1]

3. الترغيب في الحديث عنها بالتحقيق: والهدف الثالث الذي أراده الدكتور طه حسين عن طريق كتابة هذه الرواية هو دفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى تحقيقاً وكتابة وإنشاءً فهو يقول مشيراً إلى هذا الجانب من روايته:

"وإذا استطاع هذا الكتاب أنْ يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى، واتخاذها موضوعاً قيّماً خصباً لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدها، بل كذلك للإنتاج في الأدب الإنشائي الخالص، فأنا سعيد موفّق لبعض ما أريد"[2]

4. التفريق بين إفادية القديم والجديد: والهدف الرابع الأخير الذي أراد الدكتور طه حسين أنْ يتناوله هو خلق القوة الفارقة في أذهان الشباب بين القديم النافع والجديد الضارّ، فهو يقول مشيراً إليه:

"ثم إذا استطاع هذا الكتاب أنْ يلقي في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أنْ يهجر لأنه قديم، وأنّ الجديد لا ينبغي أنْ يطلب لأنه جديد، وإنما القديم إذا برئ من النفع وخلا من الفائدة، فإنْ كان نافعاً مفيداً فليس الناس أقلّ حاجةً إليه منهم إلى الجديد، فأنا سعيد موفّق لبعض ما أريد"[3]

أسلوب التأليف: كما للدكتور طه حسين أسلوب جديد متميّز في كل مؤلفاته ورسائله فكذلك له أسلوب حديث ومتميّز في كتابة هذه الرواية كذلك. إنه اختار لنفسه طرقاً

---

[1] المصدر نفسه، 9/1

[2] المصدر نفسه، 10/1

[3] المصدر نفسه، 10/1

وأساليب لبيان تاريخ العرب وحياة النبي الأمي وما إليهما من القضايا التاريخية والفكرية والعلمية. نشير فيما يلي إلى أشياء تدلّ القارئ على أسلوبه في كتابة هذه الرواية.

فأوّلاً أنّ تأليفه هذا ليس ببدع، كما أشار إليه الدكتور طه ، أو ليس بما يحوي حقائق وبحوثاً جديدة في تاريخ السيرة النبوية بل هو جمع ما خطر بباله بعد دراسة تاريخ العرب القديم وسيرة النبي العربي فقدّمها الدكتور المصري بأسلوب مثير للعواطف فهو يقول:

"... ولست أريد أنْ أخدع القرّاء عن نفسي ولا عن هذا الكتاب؛ فإني لم أفكّر فيه تفكيراً، ولا قدّرته تقديراً، ولا تعمّدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمّد المؤلفون؛ إنما دفعت إلى ذلك دفعاً، وأكرهت عليه إكراهاً، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسي، ويفيض بها قلبي، وينطلق بها لساني، وإذا أنا أملي هذه الفصول وفصولاً أخرى أرجو أنْ تنشر بعد حين.

فليس في هذا الكتاب إذاً تكلف ولا تصنّع، ولا محاولة للإجادة، ولا اجتناب للتقصير، وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب التي لا أعدل بها كتباً أخرى مهما تكن، والتي لا أملّ قراءتها والأنس إليها، والتي لا ينقضي حبي لها وإعجابي بها"[1]

ثم نرى الدكتور طه حسين، كما هو المعترف بما سنقول، أنه يوسّع في ذكر القصص والحكايات التي ليس لها علاقة بالدين. وعندما تتعلق هي بالدين أو بجانب من جوانب السيرة النبوية الطاهرة فهو يبني كلامه على الروايات والأحاديث المنقولة في كتب السيرة والحديث إلا أنه يشرحها لأجل العبرة فهو يقول كما يلي:

"وأنا أعلم أنّ قوماً سيضيقون بهذا الكتاب؛ لأنهم مُحْدَثون يُكبرون العقل، ولا يثقون إلا به، ولا يطمئنون إلا إليه ... وفرق عظيم بين من يتحدّث بهذه الأخبار إلى العقل على أنها حقائق يقرّها العلم وتستقيم لها مناهج البحث، ومن يقدّمها إلى القلب والشعور على أنها

[1] المصدر نفسه، 9/1

مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشرّ، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش.

وأحبّ أنْ يعلم الناس أيضاً أنّي وسّعت على نفسي في القصص، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجدْ به بأساً، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي، أو بنحو من أنحاء الدين؛ فإني لم أبح لنفسي حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدّمون من أصحاب السيرة والحديث، ورجال الرواية، وعلماء الدين .. إلا أنْ يكون تبسيطاً في الشرح والتفسير واستنباط العبرة والوصول بها إلى قلوب الناس"[1]

ولكم أمثلة عديدة في هذه الرواية حيث قام الدكتور طه حسين بتوسيع القصة والحدث فهو يوسّع واقعة حفر بئر زمزم ويكتب أكثر من ثماني صفحات في الجزء الأوّل من هذه الرواية؛ يبتدئ التوسيع من قوله التالي:

"كانت إليه رفادة الحاجّ وسقايته بعد عمه المطلب، فكان يطعم الناس إذا حجّوا البيت ويسقيهم، يجمع لهم الماء في أحواض من الأدم. وكان يجد في جمع هذا الماء لسقاية الحجيج جهداً وعسراً. فبينا هو نائم ذات يوم أو ذات ليلة أتاه آتٍ رأى شخصه ولم يتبيّن له سمة ولا شكلاً، وقال له في صوت رفيق غريب، في أنس وفيه وحشة: "احفر طيبة" وقال: "ما طيبة؟" فانصرف الشخص، وانقطع الصوت..."[2]

وينتهي على ما يأتي:

"قال: انعمي صباحاً يا سمراء! لقد طابت الحياة منذ اليوم. إنّ هذا الطائف الذي يلمّ بي منذ ليال، طائف خير يأتي بالنعمة والغيث. إنه يأمرني أنْ أحفر في فناء المسجد بئراً،

[1] المصدر نفسه، 1/10-12

[2] المصدر نفسه، 1/15

فلأفعلنّ منذ اليوم. ولئن ظفرت بها ليشربنّ الحجيج في غير جهد ولا عسر. هلمّ يا حارث! خذ معولاً ومكتلاً ومسحاة واتبعْ أباك"[1]

ومما يعتاد عليه الددكتور طه من أساليب الكتابة أنه يذيّل القصة أو الواقع بآية من القرآن أو حديث أو شعر بينه وبين الواقع مشابهة بحيث يثبت هذا المقتبس دليلاً عليه. فمثلاً يذكر الآية في نهاية ذكر منع الله عزّ وجلّ نبيه العربي عن الاستغفار لعمّه أبي طالب:

"ما كان للنبي والذين آمنوا أنْ يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبيّن لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبيّن له أنه عدوّ لله تبرّأ منه إنّ إبراهيم لأوّاه حليم"[2].

ويذيّل بعدما ذكر قصة زيد بن عمرو وصاحبه الرومي ناقلاً:

"قال ابن اسحاق: وحدّثت أنّ سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل وعمر بن الخطاب - وهو ابن عمه - قالا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "استغفر لزيد بن عمرو". قال: "نعم! فإنه يبعث أمة وحده".[3]

ومن جميل أساليب كتابته أنه يمزج الكلمات القرآنية أو الأحاديث النبوية بما حدث أو سيحدث من الواقع فمثلاً أنه يذكر ما انتهى إليه غارة أبرهة فيقول:

"وأذّن مؤذّن أنْ قد آن لأهل الدير أنْ يأووا إلى حجراتهم؛ فتفرّقوا وما في نفوسهم رغبة في سمر ولا ميل إلى حديث، وما منهم إلا من يفكّر في هذا البيت الذي أحجم عنه الفيل، ورجمته طير أبابيل، ترمي عدوّه بحجارة من سجّيل، فإذا هم كعصف مأكول".[4]

---

[1] المصدر نفسه، 23/1

[2] المصدر نفسه، 206/1

[3] المصدر نفسه، 136/2

[4] المصدر نفسه، 158/1

وليس هذا فحسب بل أنّ الدكتور طه حسين، كعادة الكتاب البارعين، يأخذ تلميحات جميلة من القرآن والحديث وكلام العرب لا سيما القرآن فكأنه محيط بجميع كتاباته، وعلى سبيل المثال أذكر فيما يلي بعض التلميحات الجميلة:

"أقبلْ أيها الصبح، الآمال العراض، ويضربوا للأحياء من حولهم مَثل التمرد والثورة، بغارة مطبقة لا تبقي ولا تذر، ثم أجمعوا أمرهم، وارتقى على جثثه إلى العرش، قد سُقط في أيديهنّ، أ مهتدِ هو قصدَ السبيل أم جائر هوعن هذا القصد، وأصبح كعصف مأكول، وما كان أصبرها على المشقة والجهد، ويرهقهم من أمرهم عسراً، وبأني أرتدّ عنه خاسئاً حسيراً، هذا الاضطراب الذي لا أستطيع عليه صبراً، أنّ هذا الطفل سيبلغ أشدّه يوماً ما، ويعرفها الراسخون في العلم، ولم يضلّ صوابه، لقد أخذ شبابه يتولّى عنه، هذا الشيب الذي جلّل رأسه، وكذلك تمّت كلمتهم على إنفاذ ما دبّروا".

المصادر التي استفاد منها: لا شكّ أنّ الدكتور طه حسين استفاد من كتب ومؤلفات عن تاريخ العرب وسيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم ولكنه لم يذكر من تاريخ العرب إلا تاريخ الطبري وأما المصادر عن سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم فهي سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وتاريخ الطبري والمصدر الأخير الذي استفاد منه في تاريخ العرب كذلك ومن عادته في الحيطة والحذر التام أنه يذيّل الواقع أو الحدث بإحدى الروايات المتعلقة بالباب. أما عدم ذكر المصادر عن تاريخ العرب فهو لأنه لا يعنى بتلك الحيطة التي عني بها في إعداد سيرة النبي وما شابهها من الأحداث والوقائع. فهو نفسه يقول:

"وأحبّ أنْ يعلم الناس أني وسّعت على نفسي في القصص، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأساً، إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي، أو بنحو من أنحاء الدين؛ فإني لم أبح لنفسي حرية ولا سعة، وإنما التزمت ما التزمه المتقدّمون من اصحاب السيرة والحديث، ورجال الرواية، وعلماء الدين"[1]

[1] المصدر نفسه، 11/1

صورة العرب في هذه الرواية: كانت العرب، كما نعرف جيّداً، قوماً لهم خصائص وميزات بما فيها أخلاقهم العظيمة من الاستضافة والشجاعة وعدم القناعة بالظلم عليهم والوفاء بالوعد والصدق والأمانة و و وقد قام الدكتور طه حسين بتصوير هذه الأخلاق تصويراً جميلاً فيقول، مثلاً، في أهل يثرب حينما غاروا على ولد تبع الذي شرع يظلم عليهم واستضافتهم جيش تبع الذي جاء مقاتلاً ضدهم:

" ---- عاد إذاً تبع سعيداً يرافقه الظفر والأمل. حتى إذا كان قريباً من اليمن وقف عند هذه المدينة الصغيرة التي كانت تسمّى "يثرب"، والتي ملكها لأوّل عهده بالخروج، والتي ترك فيها أحد أبنائه يشرف منها على بلاد العرب. أنكر شيئاً لم يكن يقدره ولا يفكّر فيه: لم يخرج ابنه للقائه من بعيد، ولم يخرج للقائه من قريب، ولم يرَ من حوله استبشاراً بمقدمه ولا إكباراً لمنزله، وإنما رأى حصوناً مغلقة وآطاماً قام عليها الجند كأنهم يتأهبون للقتال. لم يحتج تبّع إلى بحث واستقصاء ليعلم أنّ القوم قد غدروا ومكروا، وقتلوا ابنه غيلة، وأبوا أنْ يتسلط عليهم أحدٌ غيره، أو أنْ يسود فيهم من ليس منهم. وهم الآن يستعدّون للحرب، ويتأهبون للدفاع عن أنفسهم مستمعين في ذلك، مزدرين ما سيلقون من جهد، وما سينزل بهم من بلاء"[1].

ويقول بعد ذكر شروع تبع وجيشه في هجومهم على أهل يثرب:

"ولكن كتائبه لم تكد تتقدّم حتى تأخرتْ ولم تكد تهجم حتى ارتدّتْ وإذا هؤلاء النفر من الأوس والخزرج أشدّ مضاء وأحسن بلاء مما كان يظنّ، ومن كل من لقي في فتحه البعيد من الجيوش والأجيال. لقد كان استهان بأمرهم واستصغره؛ لأنهم لم ينصبوا له الحرب حين مرّ بهم غازياً، وإنما تلقّوه مذعنين له مؤمنين لسلطانه. ورأوا فيه رجلاً منهم فلم

[1] المصدر نفسه، 1/78-79

يمكروا به ولم يكيدوا له، حتى إذا رأوا من بغي ابنه وتجبره ما أحفظهم ثاروا للعزة، وغضبوا للكرامة، وقتلوا الطاغية وتأهبوا لحرب أبيه"[1].

ويقول الدكتور مشيراً إلى استضافتهم لأعدائهم عند ذكر استضافة أهل يثرب جيش تبع:

"رأى تبع هذا فازداد بالقوم إعجاباً ولهم إكباراً، ونصب لهم حرباً تلائم هذا الإعجاب والإكبار. ولكنه لم يلبث أنْ اشتدّ إعجابه وعظم إكباره حين أقبل الليل، فإذا لم يبلغ من القوم شيئاً، وإذا هم يعلنون إليه أنْ قد أقبل الليل، وأنّ حرب الليل ويل كلّ الويل، وأنهم يضيفون عدوّهم في الليل، ويقاتلون عدوّهم في النهار. هنالك لم يتمالك تبع أنْ عطفته الرحم على قومه، وأخذته الكبرياء بما فهم من عزة وكرم، وصاح: "إنّ قومنا لكرام". ثم أمر من أذن في الجيش بالموادعة حتى يشرق الصبح."[2]

ويقول وهو يصوّر مشاطرة السادة العرب ما كلّف عبيدهم به:

"وهو الآن ينظر إلى سيرة سادته معه وأمرهم فيه، فيرى عجباً. هؤلاء القوم الغلاظ الجفاة، الذين يحيون حياة خشنة كلها غلظة وشظف، قد رقّت قلوبهم لهؤلاء العبيد، وعطفت نفوسهم عليهم، فهم يخلطونهم بأنفسهم في أكثر ألوان الحياة، لا يكادون يمتازون منهم في شيئ إلا في هذه الأمور التي ترضى غرور الرجل البدوي.

هم لا يكلفونهم جهداً إلا وهم يتكلفون مثله، ولا يحملونهم مشقة إلا وهم يتحمّلون مثلها، ولا يؤثرون أنفسهم من دونهم بطيبات الحياة، وإنما يشاركونهم عن طيب نفس وقرة عين فيما يتاح لهم من هذا الرزق اليسير الذي تُنبِته لهم الأرض حين يبلّها الغيث. وهم لا يستمتعون بنعمة طارئة أو لذة عارضة إلا أشركوهم في بعض ما يستمتعون به. وإذا استأثروا من دونهم بشيئ فإنما يستأثرون بالجهد والمشقة: يستأثرون بالحرب مدافعين

[1] المصدر نفسه، 80/1

[2] المصدر نفسه، 80/1-81

ومهاجمين، مغيرين على العدوّ وذائدين عن الحرمات، وهم بعدُ لم يتحضروا ولم يتثقفوا، ولم يبنوا المدن، ولم يشيّدوا القصور ولم يستمتعوا بألوان اللذة والترف ..."[1]

بجانب تلك الأخلاق والخصائص التي امتاز بها العرب فقد صدر من قلم الدكتور طه حسين أشياء لم تكن للعرب أي صلة إليها. أذكر شيئاً وسيأتي بعض هذه الأشياء في ذكر الأخطاء والزلات التي وقع فيها الدكتور طه حسين. فهو يذكر قصة وصول عدّاس إلى بلاد العرب، يقول عدّاس لعتبة:

"... فلم أملك أنْ كلفت بالرحلة إلى بلادكم، وقلت: ما يمنعني أنْ أبعد في السفر؛ وما يمنعني أنْ أتصل بقافلة من قوافلكم هذه فأبلغ معها هذه الأرض، فأعلم من علمها. وأصيب من تجارتها!! ولعلي أظفر بما يتحرّق إليه هؤلاء الرهبان شوقاً. وأنتما تعلمان كيف كان الاتفاق بيني وبين تلك القافلة التي أمّنتني على نفسي ومالي، وضمنت لي أنْ أبلغ بلادكم هذه موفوراً فأصيب من تجارتها وأعود معها من قابل إلى الشام، حتى إذا بعدنا عن بلاد الروم وانقطعت أسبابي من أسباب قيصر، عدا أهل هذه القافلة على مالي فاحتجزوه، ثم عدَوا عليّ فاتخذوني وباعوني من صاحبكما ذاك الذي اشتريتماني منه قريباً من يثرب".[2]

يبدو من دراسة هذا المقتبس أنّ العرب البدو كانوا خادعين والواقع خلاف ذلك.

تصويره الرائع: عندما نقرأ هذه الرواية نشعر في غير موضع أنّ الدكتور طه حسن، كعادته في مؤلفاته ورواياته الأخرى، يقوم بتصوير رائع لأي حدث أو واقع يأخذه للتعبير عنه فهو قادر على بيان أي واقع تاريخي أو عاطفي أو ما يشابههما فمثلاً أنه يصوّر عذل الزوجة زوجَها فيعبر عما قالت زوجة عبد المطلب عندما سمعت أنه وهب ما وجده من الخزينة لدى حفر بئر زمزم:

---

[1] المصدر نفسه، 2/117-118

[2] المصدر نفسه، 146/3

"وراح عبد المطلب مع المساء إلى أهله محزوناً مكدوداً، راضياً مع ذلك، لم يفارق قلبه الأمل. فاستقبلته سمراء فاترة لم تسع إليه ولم تبتسم له، ولكنها لم تُعرض عنه ولم تتهجّم له. فلما سألها عن هذا الفتور أطالت الصمت. ولما ألحّ في السؤال، قالت: وبمَ أبتهج؟ ولمَ تريد أنْ أبتسم؟ لقد علمت منذ زفّني أبي إليك أني قد تزوّجت رجلاً لا كالرجال. لقد أحببتك ولكني أنكرتك. لقد أمّلت فيه ويئست منك، ثم عاد إليّ الأمل أوّلَ أمس، ثم ها أنت ذا تردّ إليّ اليأس مظلماً حالكاً قبيح الوجه، بشِع المنظر كأنه الغول. ماذا؟! يلمّ بك الطائف أربع ليال، يُهيبُ بك ويلحّ عليك، رمزاً حيناً ومصرحاً حيناً ومصرّاً دائماً، حتى إذا أذعنت لأمره وانتهيت إلى ما سيق إليك من خير وادّخر لك في الأرض من غنى، زهدت فيه وانصرفت عنه، وأشفقت أنْ تسلمه إلى قريش أو إلى بني عبد مناف، فيقال: ألقى بيده ونزل عن غنيمته؛ فصرفت ذلك عنك وعنهم إلى هذه البنية تحلّيها بالذهب وتعزّها بالسلاح! وماذا تصنع الأحجار القائمة بذهبك وسلاحك!! لله أنتم يا معشر قريش! إنكم لتكبرون من هذا البناء المنصوب ما لا نكبر نحن في البادية. ولولا حاجاتنا ومنافعنا لما هبطنا بطاحكم حاجّين ولا معتمرين ..."[1]

ويقول وهو يصوّر همّ أبي طالب وخديجة عندما أرسلا محمّداً للرحلة التجارية:

"وضاق أبو طالب بهذا الأمر أشدّ الضيق، فلم يستطع كتمانه على شدة ما حاول من ذلك، وإنما تحدّث به إلى بنيه وإخوته، ولمح لهم على استحياء بأنّ من الخير أنْ يلحق به منهم لاحق، يتكلّف ذلك، ويظهر حاجته إلى الرحلة، وندمه على التخلف عن القافلة. ولكن إخوته وبنيه نظروا إليه باسمين، وأجابوه مشفقين، وقالوا له: "تالله إنك لمسرف في الإشفاق على هذا الفتى، مغرق في الخوف عليه من كل شيئ، حتى تحدّث الناس عنك بذلك، فاتهموه بالضعف، وأنكروا عليك هذا الغلو في الخوف وإنا لنعرف رعايتك لهذا اليتيم، وحدبك عليه! ولكن من الحبّ ما يؤذي، والإسراف في الإشفاق والرعاية قد يسوء

[1] المصدر نفسه، ص 29/1

هذا الفتى. فخلِّ بينه وبين الحياة، ودعْه يضطرب في الأرض ليكسب قوته. فما أنت بباق له آخر الدهر، وما ينبغي له أنْ يقنع بهذا العيش الضيق الذي هو فيه.

وكذلك عاش أبو طالب مقسماً بين الخوف والرجاء، وبين اليأس والأمل، وبين اليقة والشكّ، وبين اللوم لنفسه والاعتذار عنها. وما أظنّ أنه شقي قطّ في حياته كما شقي في هذه الأيام التي فرّقت بينه وبين ابن أخيه.

ولم يكن أمر خديجة بأيسر من أمر عبد المطلب (أبي طالب)، ولم يكن خوفها بأهون من خوفه، ولم يكن إشفاقها بأقلّ من إشفاقه. ولكن خواطرها كانت من طراز آخر، ومن طبيعة أخرى! فهي لم تكن مؤتمنة على الفتى، ولا كافلة له، ولا موكّلة بحمايته ولا حياطته والقيام دونه. ولكنها كانت شيئاً آخر لعله أقوى من هذا كله، كانت تحبّ هذا الفتى. وحسبك بالحبّ مثيراً للخوف والقلق، وباعثاً للجزع والفزع، وحائلاً بين القلوب وبين ما تحتاج إليه من الهدوء والاطمئنان ... إنّ أمرها لعجب مهما تقلبه على وجوهه. ولكن ألمها شديد، وحزنها موجع، وقلقها مضنٍ. وقد تذكر أنها لم ترسله وحده إلى الشام، ولم تعرّضه وحده للأخطار، وإنما أرسلت معه غلامها القوي الفتى الأمين الناصح. وهو خليق أنْ يحوطه ويرعاه، وأنْ يلقى الموت في سبيل حياطته ورعايته. ولكن غوائل الدهر وعوادي الأيام جائرة وغاشمة، وهي أقوى من غلامها ميسرة مهما يكن قوياً، وأجرأ منه مهما يكن جريئاً، وأمضى إلى المكر والكيد منه إلى الحياطة والحماية والنصح.

وكذلك جعل هذان الشخصان يعيشان مع هذا الخوف الذي يفسد عليهما اليقظة والنوم، دون أنْ يستطيع أحدهما أنْ يفضي إلى صاحبه بما يجد أو ببعض ما يجد..."[1]

ويقول وهو يصوّر خدّامات الملك الحسان اللاتي يحيّينه بإقبال الصبح:

"أقبلن مع ضوء النهار يسعين سعي النسيم يسبقهن عرف المسك ونشر القرنفل، ويحملن من ندى الأزهار وشهيّ الثمار، ومن رطب الأغصان وجنى الريحان، ما يصوّر الطبيعة وقد

[1] المصدر نفسه، ص 154/2-156

أيقظها برد السحر ومسّ الندى وغناء الطير، فجرت فيها رعدة الحياة، ثم استقبلت ضوء الصبح باسمةً له مُقدمةً عليه، ثم منغمسة فيه تريد أنْ تعبر ما بين ساحليه من مطلع الشمس إلى مغيبها. وكنّ قاصرات الطرف فاترات اللحظ ساحرات العيون، وكنّ واضحات الجباه قاتمات الشعور، وكنّ مشرقات الوجوه باسمات الثغور، وكنّ أسيلات الخدود جميلات القدود نحيلات الخصور. وكنّ عذاب الأصوات ملاح الألفاظ فاتنات الألحان. وكنّ يتغنّين في يونانيتهنّ الحلوة أغنية الصباح، تلك التي تعوّدن أنْ يحملن بها تحية النهار إلى سيدهنّ الشابّ الفتى المترف".[1]

وأمثلة أخرى يطول بذكرها المقال.

تعقيباته واستنتاجاته من الأحداث: مما يُعجب القارئ من كتابات الدكتور طه تعقيباته واستنتاجاته التي يذكرها في نهاية الحديث أو خلال ذكر واقع أو حدث وإليكم أمثلة من هذه الرواية.

يعقّب على ما ذكر من وفاء النبي صلّى الله عليه وسلّم بذوي قربى حليمة وتحريرهم من الأسر فيقول:

"فإنّ هذا الوفاء بليغ التأثير في النفوس، وأبلغ منه هذه الحيلة الظاهرة البريئة في استخلاص السبي من الذين ملكوه؛ فيها وفاء ردّ الحرية على آلاف من الناس، وفيها إقرار للأمن والسلم في قبيلة ضخمة قوية من العرب، وفيها تخليص القلوب من الضغينة والموجدة للحقد، وتهيئتها لقبول الإسلام والنصح للمسلمين في صدق وإخلاص."[2]

ويقول وهو يعقّب على ما منع الله تعالى محمّداً عن الاستغفار لعمّه أبي طالب ثم على ما انطبع عنه من الفكرة:

---

[1] المصدر نفسه، 105/1

[2] المصدر نفسه، 204/1

"وإنما أرثى للناس الذين يبلغ بهم الخير فيجتنبونه، ويرون الشرّ فيتهالكون عليه. أرثى لهؤلاء الذين يبلغ بهم الضعف وخَوَرُ النفوس أنْ يظلموا الأبرياء ويعتدوا على الوادعين ليؤثروا أهلهم وقرابتهم بما ليس لهم بحق. ولو قد حاول الناس أنْ يتأثروا المثل العليا ويتأسوا بالأسوة الحسنة لكان لهم في مثل هذه القصة صارف عما يجترحون من السيئات، ورادع عما يقترفون من الآثام."

وأمثلة أخرى لا حاجة إلى ذكرها.

أخطاء في ذكر الأحداث: عندما يقرأ باحث هذه الرواية بإمعان يجد هناك أخطاء وزلات تاريخية أودّ أنْ أشير إلى بعض منها فمثلاً:

- ذكر الدكتور طه حسين لدى ظفر عبد المطلب ببئر الماء أنّ أهالي قريش خاصموه على من يملك مياه هذه البئر فأرادوا زيارة كاهنٍ يرشدهم إلى الصواب وخلال هذه الزيارة اندفق الماء من تحت خف راحلته، الماء الذي نقع غلّة صحبه من المخاصمين كذلك[1].

  ومن له أدنى إلمام بتاريخ العرب يعرف جيداً أنّه لم يحدث شيئ مثل هذا الحادث. وإنما هذا من قبل الدكتور طه حسين.

- يبدو من قراءة قصة أمّ المؤمنين خديجة في هذه الرواية أنّها زارت ورقة بن نوفل قبل زواجها منه صلّى الله عليه وسلّم لكي تسأله عما رأته من نبوءات الرسالة وما سمعت عنه[2].

  ولكنّنا نعلم جيداً أنها ذهبت إلى ورقة بن نوفل بعد زواجها منه لا قبل الزواج.

- يبدو من دراسة ما كتبه الدكتور طه حسين عن تصريع الآلهة أنّ هذا الحدث وقع بعد مولد النبي بكثير[1].

---

[1] المصدر نفسه، 1/33-34

[2] المصدر نفسه، 2/172 والصفحات التالية

والواقع أنه حدث لدى مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم.

- كتب الدكتور طه حسين ما كتب عما حدث مع النبي صلّى الله عليه وسلّم بعد وفاة عمّه أبي طالب وزوجته أمّ المؤمنين خديجة أنّه صلّى الله عليه وسلّم قعد في بيته خائفاً محزوناً[2].

والواقع أنه لا شكّ أنْ أصابه الهمّ ولكنه لم يمسّ الخوف جانبه وأنه لم يلزم بيته مثل الجاني الخائف.

- يبدو من قول الدكتور طه حسين: "يُلقى في قلب النبي حبّ زينب زوج زيد، ويُلقى في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور عنها"[3] أنّ هذا كان كيداً خفيّاً من الله تعالى.

والواقع أنّ هذا حدث لأجل أنّ زيداً شعر من قبل زوجته بأنها أشرف منه.

استدراكات وانتقادات: هذه الرواية القيّمة قد تمّت في ثلاثة مجلدات ففي المجلّد الأوّل يأتي بعد المقدّمة التي تشتمل على الشئون المتعلقة بالكتابة قصة حفر بئر زمزم وما تبعه من الأحداث ثم يأتي ذكر فداء عبد الله والد النبي الأمّي ثم يذكر الدكتور طه رحلته للتجارة التي تسفر عن مرضه ثم موته ثم تأتي حرمة مكة ويثرب وردّة عمر وقتل حسّان بن تبع وحزن عمر الشديد على تلك الجريمة ثم يأتي طغوى ابن عمر على جدّه للأم، الذي قد كان طغى على ملكه الموروث ومن حيث يُذكر البحث عن دين جديد مليئ بالأمن والسلام ثم يأتي ذكر الراهب وحملة أبرهة على مكة ومعاناته بالعاقبة السيئة. بعد هذا كله يأتي مولد النبي الأمي ثم حاضنته ثم مراضعه ثم تربيته من قبل جدّه وعمّه واستغفار النبي لمن أحسن إليه.

والمجلّد الثاني يبتدئ من الفيلسوف الحائر من الصفحة السادسة حتى الصفحة 136 وهو مشتمل على قصة كلكراتيس الذي هرب من حكم قيصر لدين المسيح ثم لقي الراهب ثم

---

[1] المصدر نفسه، 2/218-219

[2] المصدر نفسه، 3/140

[3] المصدر نفسه، 3/227

تركه للبحث عن النبي الموعود فأسر فلقيه زيد بن عمر الذي أراد أنْ يدلّه إلى مكة فقتل كلاهما في السبيل على أيدي اللخميين. يشمل هذا على 16 فصلاً بما فيها الفصول التي كتبت لأجل مواصلة الرواية فحسب ثم يأتي ذكر راعي الغنم حيث ذكر بدءاً من رعي النبي الأمي الغنمَ حتى زواجه من أمّ المؤمنين خديجة. هذا ينتهي في خمسة فصول. يتبعه حديث باخوم في بناء مكة ودور محمّد صلّى الله عليه وسلّم في توحيد العرب وقطع دابر الفتنة التي كادت أنْ تبرز. لهذا فصلان فقط ثم يأتي صاحب باخوم الذي هو قصة الرومي الباحث عن النبي الموعود وما ظهر خلاله من الأحداث. هذا في ثلاثة فصول. ينتهي هذا المجلّد على نادي الشياطين الذين جمعوا لمعارضة هذا الحدث المبارك والعرقلة ضدّه.

والمجلّد الثالث يبتدئ من صريع الحسد حيث ذكر الوليد بن المغيرة الذي منع عمرو بن هشام عن زيارته لورقة للاستماع إليه ونسطاص للتورط في الخلق السيئ ثم ذكر عمرو بن هشام عن قرب بعثة النبي واعتراف ورقة به ثم بغض عمرو بن هشام (أبي جهل) للنبي الأمين ثم لقاء النبي صلّى الله عليه وسلّم لجبريل وما سمع عنه ثم ذكر عداوة الشيطان للنبي المبعوث ثم معارضة كبار الكفّار ضدّ ما يدعو إليه النبي ثم من بدء الدعوة حتى رفع الحظر من على قومه في الشعب ثم من موت أبي طالب وخديجة حتى خروج النبي من بيته إلى يثرب ثم نشر دين محمّد في الآفاق كلها. ففي هذه الفصول العشرة ذكر الدكتور طه أنّ الدين الذي ضاقت له أرض مكة قد انتشر في العالم كله ثم يأتي عنوان "سيد الشهداء" وهي قصة شهادة حمزة بن عبد المطلب ثم "ذو الجناحين" وهي قصة جعفر الطيّار ثم "حديث عدّاس" وهو حديث ظلم أشرار ثقيف على النبي وكان له الحقّ أنْ يتقدّم ثم حديث مصعب بن عمير ويليه قصة صفوان وخبيب ثم نزيل حمص وهو قاتل حمزة الوحشي ثم ضحية كعب وأبيه في سبيل الله أي حتى الآن ذكر الضحايا التي قدّمها الصحابة في سبيل الدعوة ثم يأتي ذكر النبي بحيث إنه يداوي القلوب المرضى وتنتهي الرواية على العلاقة الودية بين محمّد صلّى الله عليه وسلّم وزيد رضي الله عنه.

يبدو من دراسة هذه الفصول أنّ الدكتور طه حسين نجح في اصطباغ تاريخ العرب وحياة النبي بصبغة الرواية ولكن نشعر بعد دراستها أنه لم يذكر تاريخ الجاهلية ولا ميزات العرب بل أشار فقط إلى ما كان لسلف النبي من خصائص وميزات. إنه كذلك لم يشر إلى أنّ الجوّ الديني الذي كان سائداً منذ قرون كاد أنْ يتغيّر ويتبدّل. وكذلك لم يشر الدكتور إلى ميزات المجتمع المدني الذي أسّسه النبي وكيف كان هو يعيش مع أهله وهكذا لم يذكر ضحايا الأصحاب الآخرين مثل أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وهم كبار الصحابة الذين قدّموا خدمات جليلة في تعضيد النبي ودينه. إنما كتب ما كتب بدون روية ولا فكر. ولكنها مع هذا وذلك رواية جميلة تثير في القرّاء رغبة في قراءة التاريخ العربي القديم وسيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم، الأمر الذي نجح فيه الدكتور طه حسين.

هذا ما تيسّر لي من دراسة هذه الرواية التي تجدر بأنْ نعتبرها أروع الروايات في الموضوع.

ورود الإسلام في مالابار، دراسة تاريخية

- البروفيسور احتشام أحمد الندوي

إن منطقة مالابار (Malabar) الواقعة على جنوب غرب الهند تحتل منزلة كبرى في تاريخ البلاد لاختصاصها الطبيعي والجغرافياوي، وتسمّى هذه المنطقة وما يلحقها من المناطق بـ"كيرالا" (Kerala).

موقعها: إن كيرالا تقع على جنوب غرب الهند في 8*18 و48*12 عرض البلد و52*74 و24*77 طول البلد، ويحيط بها من الشرق جبال المورد الغربي ومن الغرب بحر العرب. فكيرالا سلسلة 574 كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب عرضها ليست إلا 112 كيلومتراً والمنطقة كلها 38864 مربع كيلومتر. تقع مالابار على شمال كيرالا. كانت هي محافظة لولاية مدراس (تشناي: Chennai) من قبل، وكان يديرها الحاكم الإنكليزي للمديرية ولكنه لما وجدت ولاية حديثة للناطقين بلغة ملايالم فوجدت محافظات عديدة في منطقة مالابار هذه باسم كيرالا وهي تريتشور (Thrissur) وبالي غات (Palighat) وكاليكوت (Calicut) وكانّور (Kannur) ثم وجدت محافظة جديدة فيها أغلبية المسلمين باسم "ملابرم" (Malappuram) ومن ثم وجدت محافظتان جديدتان باسمي "وايانـاد" (Wayanad) و"كاسر غود" (Kasaragod). وهكذا فاشتملت مالابار على ست محافظات. وسكّان ملابرم أقل من سكّان تريفندرم (Trivandrum) وكوتشين (Cochin) وتريتشور (Thrissur). فالسكّان الحقيقيون في خمس محافظات المذكورة أعلاه وكذا سكّان تريتشور أقلّ نسبياً والمسلمون في كيرالا 33 بالمائة حسب إحصائية السنة 1991م.

مالابار وكيرالا لغة: يرى المؤرخون أن كلمة "مالابار" تحتوي على جزئين أولهما ملايالي والآخر عربي فـ"ملا" باللغة الملايالمية جبل و"بار" هي "برّ" التي تعني بالعربية الأرض وما ليس بالبحر، ولم يستخدم المؤرخون العرب سوى كلمة "مالابار" ولاسيما الرحّالات الذين زاروا

هذه المنطقة. إنهم كتبوا "ماني بار" أو "مالي بار" والبديهي أن المراد منها هي مالابار الحالية ولكنها كذلك تسمّى بـ"معبر".

وقد تمّ شرح كلمة "كيرالا" شروحاً عديدة فقال البعض إنها كلمة سنسكريتية تعني "أرض النارجيل" وهذا المعنى هو الذي ينشرح به الصدر، فـ"كيرم" تعني "النارجيل" و"الم" تعني "الأرض" أي أرض النارجيل. ولكن لم يتفقوا على هذا المعنى فيرى البعض الآخر أن هذه الكلمة (كيرالا) انشقت من "كيرا" وهي سلالة ملكية حكمت على كيرالا لقرون و"اليا" تعني "الأرض" فـ"كيراليا" أصبحت "كيرالا" وهي تعني "أرض كيرا". وهناك رأي آخر أن "كيرالا" هي "خير الله" وذلك لأن هذه الأرض تنبت التوابل والنارجيل والقرنفل والشأي والقهوة وجوز الطيب والفلفل والقاقلّة وأنها بضائع ثمينة فقد سمّيت هذه المنطقة بـ"خير الله". أدلى بهذا الرأي عبد الله المليباري الذي هو موظّف في قسم البريد بمكة المكرمة وهو كذلك شاعر للعربية.

علاقات العرب: كيرالا تنبت النارجيل والكاجو والتوابل وهي يتم تصديرها إلى العالم كله وبما أن المنطقة كلها تقع على السواحل فلم يزل الأجانب لاسيما العرب يرتحلون إليها منذ قرون فكان التجّار العرب يورّدون منها القرنفل والقاقلّة والجوز وجوز الطيب والنارجيل والخشب والفلفل وغيرها من البضائع والأمتعة وهم يأتونها إلى الآن فيقيمون بها لبضعة أشهر ويتزوّجون من بناتها، الأمر الذي يسمّى بـ"ديواهم" باللغة الملايالمية. ومن أيّ نوع من أنواع الزواج هذا؟ فهم يدفعون عشرين أو خمسة وعشرين ألف روبية إلى أولياء بنت مسلمة فيتزوّجون منها فيحملونها تارة إلى بلادهم وأخرى يتركونها في بلادها ويواصلون تقديم النفقات إليها فلما يعودون إلى الهند ينزلون في تلك العشيرة وهكذا فهم يفوزون بأقربائهم في هذه المنطقة وبمن يعينهم في النوائب ممن يشتري لهم خير البضائع والأمتعة وأجودها لدى أوان الحصاد ويخبرونهم بها نظراً للتجارة وهكذا فهم يبتعدون عن الخداع. فلما يعودون إلى بلادهم بعد شراء الأمتعة فيبقى أفراد عشرتهم هذه الجديدة بصيانة منافعهم التجارية، والنوع الثالث للزواج العربي هو أن هؤلاء التجّار يطلّقون تلك الفتاة

حين مغادرة البلاد وكثيراً ما يحدث كذلك وعلى هذا فقد حاول مصلحوا هذه المنطقة أن يقضى على مثل هذا الزواج ولكنهم لم ينجحوا في هدفهم هذا والسبب وراء ذلك أن تقليد "تِلَكْ"[1] متروّج إلى حدّ بعيد في جنوب الهند، وقد يتروّج فيما بين المسلمين تقليد تقديم النقود والأعراض من الذهب والفضة والبضائع والأمتعة الثمينة إلى الصهر حين الزواج وأما هؤلاء العرب فلا يطلبون منهم شيئاً بل يدفعون إليهم نقداً كبيراً في صورة الصداق وعلى هذا أو ذلك فلم يزل العرب يتزوّجون من بنات كيرالا، ولكن الطبقة الفقيرة تتأثر بمثل هذا النوع من الزواج فتنجذب إليه وإلى هؤلاء التجّار العرب، ففي بعض الأحايين ترتفع عشيرة بكاملها في المجتمع بفضل هذا النوع من الزواج.

وعلاقة العرب بهذه البلاد قديمة حتى نجد ذكر الفلفل في شعر امرئ القيس حيث يشبّه بعر الآرام بالفلفل فيقول:

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعـــانها كأنه حبّ فلفل

وبما أن علاقة العرب التجارية مع هذه البلاد سحيقة للغاية فلما سطع نور الإسلام في جزيرة العرب فوقعت أشعته على أرض كيرالا كذلك فاستفاد منه أهاليها ولكن الإسلام لم ينشر هنا بالسيف بل على أيدي التجار العرب، ولم يحكم المسلمون على هذه المنطقة أبداً فلم يبلغها المغول إلا أن حيدر علي والسلطان تيبو قد حكما عليها لمدة قصيرة ولكنهما لم يكادا يسيطران على كوتشين وهي بلدة لم يحكم عليها المسلمون البتة.

وهناك قصص وأحاديث لانتشار الإسلام بها وهي معظمها تبنى على حكايات العامة ولكنها بما أنها تفقد الدليل التاريخي فلا نقبلها كما هي إلا أن دراستها التحليلية تبدي لنا أن المسلمين قد حاولوا لنشر الإسلام في هذه المنطقة ومن الممكن أنما روي بالنسبة له صحيح إلا أن الدهر قد ذهب بصورته الحقيقية.

---

[1] تلك: مهر يتمّ تقديمه من قبل البنت

المسلم ماپلا: مسلمو منطقة مالابار يسمّون بـ"مابلا" أو "مابلّا" في كيرالا و"مابلا" باللغة الميالمية تعني صالحاً أوقابلاً أو عروساً ولكن معنى الكلمة هذا لا يتفق عليه الناس كلهم فيقول البعض الآخر إنها لقب أصلها "مها بلا" الذي تشرّف به حرّاس البحر من المسلمين الذين كانوا قد احترفوا حراسة البحر فالمسلمون يلقّبون بهذا اللقب في شمالي كيرالا بينما يتشرّف بهذا اللقب النصارى في جنوبي كيرالا فالمابلا أصلهم من هذه المنطقة إلا أن الطبقة الأخرى من بين المسلمين تسمّى "ثانغال" (Thangal) اللقلب الذي يعزّ به الصالحون والشرفاء من الرجال فقد تلقّب بهذا اللقب من توطّن هذه المنطقة من القبائل العربية من قريش وبني هاشم فكأن "السيد" تعادلها "الثانغال" وهم كانوا ينالون قبولاً عاماً من العوام وكذا يلحق أسمائهم العربية شيئ من المفردات الميالمية.

وقد اختلف المؤرخون في شرح كلمة "مابلا" فهذا الرأي العام أن العرب يردون سواحل الهند الغربية للتجارة وقد أقاموا أحيائهم الخاصة بسواحل كيرالا، وقد أقام بها الأجانب الذين وردوها جماعات ووحداناً، وذلك لأنهم كانوا يشعرون بالسهولة للاختلاط بأصحابهم الناطقين بلغتهم وعلى هذا فقد استخدمت كلمة "محفلة" لأحيائهم وهذه الكلمة قد تحوّلت إلى "مابلا" لكثرة استعمالها فكأن أصلها "محفل" وحق الأحياء التي قامت على سواحل كيرالا الجنوبية تسّمت بنفس الاسم "محفلة" وهم أيضاً يسمّون بـ"مابلا".

هذا التأويل لا يدخل القلب ولا يشرح الصدر فـ"محفلة" كلمة عربية خالصة تبدّلت فيها الحاء بالألف والفاء بالباء وزدْ على ذلك تشديد هذه الكلمة أي "مابلّا" وإن نظرنا إليها من هذه الجهة فيقعد هذا التأويل مستبعداً للغاية.

نشر الإسلام على أيدي التجّار: وعلى كل حال فلا شك في أن تجارة العرب وإقامتهم بهذه الديار قد روّجتا اللغة العربية وحبّبتا الإسلام إلى الناس فهم كانوا يردون هنا لأجل التجارة بصورة منتظمة وكانوا ربما يتزوّجون من بناتها لأجل معلوم وكانوا يرزقون الولد كذلك فهؤلاء المولّدون من الهنود يثبتون وكلاء للتجارة فيما بعد وهم يدعّمون آبائهم العرب في شئون التجارة وهكذا فهم يبيعون الفلفل الأسود والقرنفل والقاقلّة والتوابل والعاج

ويجمعونها لآبائهم وهكذا فيجد العرب البضائع بثمن بخس في أوان الحصاد، وبما أنهم ذوو قربى أولئك العرب التجّار فهم ينتفعون منهم فيمكن أن هؤلاء هم الذين جاءوا بالإسلام قبل كلٍّ من الدعاة وحتى الآن نجد صائدي السمك في كيرالا من المسلمين كما يتوطّن الجزائر المجاورة لكيرالا المسلمون ولا غير فيقول معظم المؤرخين، وقولهم صحيح، إن انتشار الإسلام فيما بين الهندوس قد سبّبه يقينهم بتعدّدية الطبقات فإن المرء كلما يدخل في الإسلام يكون على مستوى سويّ مع إخوانه الأشراف، الأمر الذي لا يناله لدخوله في دين آخر.

دور الصوفية في نشر الإسلام: والواقع أن الإسلام قد نشره الصوفية والدعاة والتجّار في كيرالا إلا أننا لا نقف على أسماء الصوفية في هذا الشأن فقد وقع عليه غطاء التاريخ ولكن مع هذا كله نجد المغنين في مالابار يغنّون القصائد الصوفية بعنوان "مالا"، التي تحتوي على ما تحتويه من كرامات الأولياء فيبدو منها أنهم قد تركوا آثاراً عميقة على عقول العلماء فقد نزل ابن بطوطة بمنطقة كيرالا وهو الذي ذكر العديد من صوفية هذه المنطقة في رحلته. ورد اين بطوطة هنا خلال الفترة ما بين 1342هـ و1345هـ، إنه لقي صوفياً بكاليكوت اسمه الشيخ شهاب الدين قُزارُنْ (Quzarun) كما لقي القاضي فخر الدين بن شهاب الدين وكذا لقي صوفياً بأرملا فيبدو من هذه الروايات أن الصوفية قد انتشروا في هذه المناطق ولكن لم يؤلّف كتاب يوثق به بهذا الشأن، يمكن به تصوير الأمر تصويراً حقاً، وعلى كل حال فقد جاء صوفي يسمّى "جلال الدين البخاري" بلياباتم (Baliapatam) في 900هـ/1492م وكان من حفدته السيد محمد مولا الذي كان يقيم بلكشاديف بجزيرة كافاراتي (Kavarati). وهذا من المعروف أن جزيرة لكاديف ومالديف كلها دخلت في الإسلام بفضل محاولاته. وفي القرن العاشر الهجري ورد هذه المنطقة صوفي آخر يسمّى بروئيل الشيخ عبد القادر التهاني (Al-Thani) وأدّى واجب تبليغ الدين. إنه قد لقي محمداً البكري (868هـ-952هـ) بمكة المكرمة.

محاولات التبليغ: ولو أن الإسلام قد انتشر في هذه المنطقة على أيدي التجّار ولكن لن نصرف النظر عن محاولات التبليغ فأول قصة نالت الشهرة أن ملك كدونغالور (Kodungallur) بيرومل (Paromal) قد اعتنق الإسلام، إنه قد شهد معجزة شق القمر فلما سمع عن أحوال النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم فترك الحكم وتوجّه نحو مكة وثم لم يرجع من هناك. هذه القصة يتداولها الناس حتى الآن ولكن الدليل التاريخي القاطع الذي يؤيّد هذه القصة هو ما ذكره صاحب "تاريخ فرشته". توفي في شحر وبه يوجد قبره.

وهناك مؤرخ آخر ينتمي إلى العصر الحديث وهو بالا كرشنان بلّائي (Krishna Pillai) يقول كما أرسل النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم رسلاً إلى كافة الملوك الحكّام فكذلك كتب إلى ملك كاليكوت، الأمر الذي سبّب إسلامه ولكن لا نجد رسالة إلى هذا الملك فيما بين رسائله التي بعث بها إلى ملوك العالم وسلاطينه.

وعلى كل حال فقد اتفق المؤرخون كلهم على أن ملكاً يسمّى "تشرامن بيرومل" (Charaman Paromal) قد آمن ولكنهم اختلفوا في هل كان العصر الذي آمن فيه عصر النبي أم لا؟ فإن هذا حدث يتعلق بالقرن الثاني الهجري فيقال أن جماعة من المسلمين كانت تريد لانكا قد نزلت بدولة بيرومل فتأثر بهم الملك لاسيما شيخ الدين فأعرب عن خياله بأنه يريد رفقتهم إلى الدول العربية فأعدّ العدة فذهب الملك أولاً إلى كولم (Pandalavini Kollam) من حيث وصل إلى دهرمادم (Dharmadam) ومن هنا مكان يسمّى حتى الآن بـ"بوياندو" (Poya Nadu) الذي يعني "مكان السفر" أي المكان الذي بدأ به الملك رحلته. ومن هنا وصل الملك إلى ساحل العرب الذي يسمّى بـ"شحر". ولا شك أن الملك قد حجّ بيت الله الحرام كما يمكن أن يزور مكة والمدينة ويستفيد من الجوّ الديني السائد هناك وإلا فالقيام بساحل العرب بعد الوصول إليه لا يعني شيئاً. يقال أنه أراد أن يرجع إلى مالابار ويبني المساجد في مختلف أماكنها تحت مشروع خاص ثم يبلّغ الدين ولكن أصابه المرض ولما لم يرج أن يشفى دعا مسئوليه من رفقائه وأقطعهم العقارات وأرشدهم إلى أن يبنوا المساجد بها ثم لبّى دعوة ربه للآخرة.

وبهذا الشأن نجد قصة أخرى وهي أن ملكاً كان يحكم على دهرمابتنم (Dharmapatnam) التي تسمّى الآن دهرمادم (Dharmadam) وهي تجاور تليتشري (Tellicherry)، قد حكمت عليها أسرته لمدة طويلة، أسرته كانت تسمّى "سلالة أراكل الملكية (Arrakal Royal Family) وهذه هي السلالة الملوكية الإسلامية التي حكمت على منطقة لمالابار. كانت حكومته من دهرمادم إلى كينانور (Kannur) إلا أن لكشاديب (لكاديب) كان تحت حكومته، ولما جاء الحكم البريطابي لم يبق لهم إلا ما بين دهرمادم إلى كينانور، الذي هو قصر علي راجا بعد الاستقلال ولكن حكومتهم قد ضاعت.

ويقول كلاندو ملّر (Kolondu Miller) عن تشرامان بيرول في كتابه "Mapalla Muslims of Kerala" (مسلمو كيرالا المابلا) إن بحثاً عن مابلا لن يكون نهائياً ما لا نستقصي ما روي عن تشرامان بيرول. إن هذا الملك كان يحكم على وسط كيرالا ولعل الملوك البيرول حكموا على منطقة واسعة للغاية باسم "الملك التشيرا" وثم تفرّقوا إلى دول عديدة.

ويروى عن بيرومل أنهم قد غيّروا دينهم في النهاية وقصته هي أن تشرامان بيرول الذي كان يحكم على كدنغالور (Kodungalur) قد رأى في المنام ما أدهشه فرأى أن قمراً جديداً طلع على أفق مكة ثم انشق إلى جزئين فوقع نصفه الأول في السماء بينما النصف الآخر وقع على الأرض ثم ارتبط الجزءان معاً وجعل القمر كله يبدو. وبعد هذا المنام بأشهر كانت جماعة من المسلمين تريد لنكا لزيارة قدم آدم فهي نزلت بكدنغالور وبهذه المناسبة ذكر المسلمون للملك بيرول كيف أرى محمد الكفّار واقعة شق القمر فآمن الكفّار على يديه، وبعدما سمع الملك هذا عزم على أن يدخل في الإسلام فخطّط سرّاً أن يسلم وأن يرافق الجماعة الإسلامية التي ترجع بعد زيارة قدم آدم إلى مكة وعلى هذا فقد فوّض إلى العمّال المحلّيين والحكّام الصغار في صورة المكتوب، وهكذا إنه أظهر بأنه سيرجع إلى العاصمة بعد زيارة تلك الديار. إنه سمّاه بـ"عبد الرحمن السميري". إنه خطّط أنه سيبني المساجد في مالابار بعد الرجوع إليها ولكنه قد أصابه المرض خلال هذه المدة وعلى هذا فقد طلب من إخوانه أن ينشروا "تشوثي ديد" بعد أن يرجعوا إليها، والمراد من التشوثي ديد لدى المابلا هو القرآن

الكريم فالديد الأول هو التوراة والثاني هو الزبور والثالث هو الإنجيل. يروى أن بيرومل قد مضى لسبيله، ودفن بظفر (Zupher) على ساحل العرب في 822م.

وصلت البعثة الملكية تحت قيادة مالك بن دينار إلى مالابار، وقد شملها عشيرته، وثلاثة أصحاب له فيروى أن هؤلاء وصلوا إلى مالابار بعد موت بيرومل بثماني سنوات ثم فوّضوا رسالته إلى حاكمها إلا أنهم قد أخفوا موته عليه فحيّاهم حكّام هذه الديار فطوّفوا في الديار كلها للدعوة إلى دينهم وبنوا تسعة مساجد وقرّر مالك بن دينار أفراد عائلته المختارين قضاة في هذه المساجد ثم رجع إلى وطنه العربي.

ويروى كذلك أن بيرومل قد رأى هذا المنام والنبي حيّ يرزق وشقّ بإصبعه القمر فسافر الملك ذاته إلى مكة ولقي النبي فدخل في دينه. كان هو يسمّى تاج الدين. إنه توفّي بمكة في 624م وعلى كل حال فإن هذه الرواية تعكس الرواية الأولى ويرجّحها مابلّا اليوم. وقد ناقش العديد من المؤرخين والباحثين قصة تشرامن بيرومل وجاءت نظريات يضادّ بعضها البعض فيقول أحدهم إن هنا دلائل معقولة على أن هذه الرواية يوثق بها في انتشار الإسلام في مالابار ولكن هناك نظرية ملؤها التشدد وهي أن هذه مما أوجده المسلمون بصورة مقدّسة، ولكن يقول مؤرخ مقتصد إن علينا أن نقرّ بأن هذه الرواية تطوي بين جنبيها صدقاً ما، ويصرّ مؤرخ كيرالا الشهير بي بدمانا بهان (P Padmanabhan) على أن هذه الروايات من الأساطير والخرافات فلا نجد حدثاً تاريخياً يصدّق هذه الروايات ولا توجد وثيقة تاريخية تكون موثوقاً بها ضدّها فالواقع أن الأسرة التشيرية (Cheras) حكمت من القرن التاسع الميلادي حتى القرن الثاني عشر الميلادي ثم قضي عليها، وأما تفاصيلها فهي لمّا تبدُ للعيان.

وبما أن مملكة الأسرة البيرومليلية قد فاجأها القضاء عليها في القرن التاسع الميلادي فقد أقام إنّس (Innes) وجهة أن أسرة كانت تحكم على كرنغانور (Cronganaore) آنذاك قد قضي عليها بينما بيرومل قد أسلم فلعلّ بيرومل، كما يرى كيرالا بوثي (Keralapothi)، قد ذهب إلى مكة إلا أنه قسم الحكومة بين عمّاله وحكّامه قبل أن يغادرها ولما أراد الرجوع توفّي بسرس مقالا

(Shars Muqala) ثم نعاه من كان يرافقه لأخته سري ديفي. وكذا دعوها إلى الإسلام، وأما ولد الملك بيرومل الذي تسمّى، فيما بعد، بمحمد علي والذي على اسمه تسمّت الأسرة كلها بـ"علي راجاز"، تقول عنه الوثائق التي توجد لدى أسرته بكينانور إلى الآن. وهناك تأويل آخر لـ"علي راجاز" أنه كان "أدّي راجا" فأدّي تعني البحر بالسنسكريتية أي ملك البحر. وثم في القرن الرابع عشر الميلادي حاول وارث بيرومل أن يستعيد حكومته ولكنه لم يكد يستطيع ضدّ زمورن الذي كان ينجده المسلمون والعرب كذلك.

ويمكن أن نستنتج منه في النهاية أن المسلمين قد بلغوا هذه المنطقة في بداية عصره فقد أدنى السفر الآمن والعلاقات الاقتصادية العرب من كيرالا فوجد الإسلام ساحة جديدة كانت توجد بها مستعمرات العرب وثم حرية الدين والتكريم والسخاء من قبل الحاكم وشعبه قد قوّى كل منها حركة الإسلام، ومن هنا لم تزل هذه العلاقات الثنائية تتطوّر، وفوق ذلك أنه كلما وجد جيل جديد باختلاط العرب بأهالي مالابار على الرغم من الاختلافات العرقية والوطنية، فبرز إلى حيز الوجود جيل جديد متكوّن من حضارتين مختلفتين؛ هندية وعربية.

وبهذه المناسبة تروى قصة طريفة أن أسرة "علي راجا" قد جاءت إلى حيز الوجود بأن أميرة من أسرة كولاثيري (Kolathiri) التي كانت عاصمتها تشيراكل (Chirakkal) قد سقطت في البحر إلا أنها قد صانها فتًى يسمّى "محمد علي" بوثبته في الماء وصدوره منه بها، ومن ثم فطن محمد علي أنها عريانة فأعطاها عمامته التي كانت طويلة للغاية ثم بلغ هناك والدها وعمّها، كلفت الفتاة بها وقالت إنه قد أخذ بيدي وأعطاني ملابس جديدة وعلى هذا فقد تزوّجت منه طبق تقليد الزواج الساري هنا فقرّر الحاكم الكولاثاري محمداً علياً وزيراً له وهكذا فقد برزت أسرة علي راجا.

ولو كان حكّام كينانور وزراء أو ملوكاً إلا أنهم قد أثّروا في مجتمع مالابار.

بعثة دعوية لمالك بن دينار: وبجانب أسرة علي راجا هذه هناك أمر يتعلق بالبعثة الدعوية لمالك بن دينار فيروى أن مالك بن دينار سافر إلى مالابار في جماعة دعوية فبنى بها عشرة مساجد توجد في كدنغانور، وكلّم، وبندلاياني، وتشاليم، ودهرمادم، وسري كندابرم، وأرمالا، وكاسر غود، وفنغلورس، وبكانو.

إنه أقام بها مراكز دعوية أسفرت عن نشر الإسلام فيما بين العامة، يوجد قبره على ساحل البحر في كاسر غود. بني به مسجد، ودارٌ للأيتام، ومستشفى على اسمه. ولا شك في أن الصحابة والتابعين وردوا في هذه المناطق فتركوا أثراً لهم معلوماً، وبهذا الشأن يقول القاضي أطهر المباركفوري ما ملخّصه:

"وممن ورد مالابار مع مالك بن دينار أولاده العشرة وزوجته. سمّاهم صاحب "تحفة المجاهدين" بحبيب ومحمد وعلي وحسين وتقي الدين وعبد الرحمن وإبراهيم وموسى وعمر وهمام، وقد صحبتهم خمسُ بنات له وهنّ فاطمة وعائشة وزينب وحليمة ومنيرة فنزلوا أولّ ما نزلوا بكودنغانور ومن هنا بدأ مالك بالدعوة فعيّن القضاة كما بنى المساجد ثم رجع إلى الوطن هو وولده حبيب، وفي الطريق إلى وطنهما رأيا قبر بيرومل بشحر. بعد فترة من الزمن عاد حبيب إلى مالابار فأقام بكينانور إلى أن وافته المنية".

ويبدو كذلك من هذا المقتبس أن مالك بن دينار قد بنى المساجد في أماكن كان يوجد فيها المسلمون من قبل ولأجل هذا قد قرّر القضاة، وعلاوة على ذلك فالأماكن العشرة التي اختارها لبناء المساجد توجد مسافة بعيدة فيما بينها فكدنغانور تبعد عن كاسر غود بعداً شاسعاً، الأمر الذي نستنتج منه أن المساجد قد تمّ بناؤها حيث قد انتشر الإسلام ولو قليلاً وكان بها المسلمون في عدد ملحوظ.

ويرى الشيخ زين الدين مخدوم أن الإسلام عادة نشر في مالابار في القرن الثاني الهجري ويؤيده جابي ضرائب مدينة مالابار السيد لاغن.

ومشيراً إلى ورود مالك بن دينار قال الشيخ زين الدين مخدوم إنه رجع مع ولده حسيب بن مالك إلى الوطن. أما الولد فقد وردها مرة أخرى ولكنه انتقل إلى خراسان.

وهناك أمران تجدر الإشارة إليهما (1) لو رجع مالك بن دينار إلى خراسان فكيف يوجد قبره في كاسرغود؟ (2) وكذا يقال أن قبره على بعد أميال من مدراس (تشنائ)، هذا وأمثاله من العديد من الشكوك التي تثور في الذهن. والواقع أن الحقائق تختفي على مرّ العصور ومن ثم قدسية تلك الأخبار وعلاقتها مع الملك قد صبغتاها لوناً أسطورياً.

يبدو أن الإسلام قد جعل ينتشر بفضل ورود الصحابة في هذه الديار وهو لم يزل ينتشر وتتسع دائرته فبرز إلى حيز الوجود في كيرالا مركزان كبيران للإسلام حتى القرن الخامس عشر الميلادي؛ أولهما مدينة كاليكوت التي كانت فيها أسرة القضاة تكوّن مركزاً للأنشطة الإسلامية وآخرهما تلك الأسرة الثانية كانت تسمّى بـ"مخدوم" التي جعلت بُنّائي مركزاً لها لخدمة الإسلام فقد وجّه العديد من أفراد هذه الأسرة خدمات جليلة للدين والأدب عن طريق الكتابة والتأليف، والشعر والتصوف.

تاريخ السامري: قال الشيخ زين الدين المعبري في كتابه "تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين" إن تاريخ السامري لا يتحقق عندنا. وأغلب الظن أن هذا الحدث وقع بعد القرن الثاني الهجري إلا أن الحدث الذي يشتهر في مسلمي مالابار أن زمورن (السامري) أسلم في زمن النبي صلّى الله عليه وسلّم حينما شهد معجزة شق القمر في الليل فارتحل إلى مكة بنفسه ولقي النبي ثم رجع إلى شحر وكان أن يغادرها في جماعة إذ فاجأه الموت.

ولعل كافة هذه الروايات كاذبة فالسامري تعريب زمورن فقد كان في قديم الزمان سلالة ملكية هندية "تشرومن بيرومل" كانت تحكم على مالابار والسامري كان أحد أولئك الملوك.

وعلى كل حال فيسهل لنا التمييز بين الحق والباطل، والحقيقة والخرافة فتدل علاقةُ العرب التجارية ونشرُ الإسلام على مستوى واسع ورواجُ العربية وحضارةُ المسلمين على أن

الإسلام قد أثّر قديماً على هذا المجتمع وقد لعب فيه العرب دوراً مباشراً فهم يسمّون أولادهم على عادة العرب مثل أحمد، ومحمد، وعمر، وأبو بكر، وعبد الله وغيرها.

آراء عن فجر تاريخها: إلا أن القاضي أطهر المباركفوري قد أقرّ بأن ملكاً من ملوك الهند قد أهدى إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم جرةً من الزنجبيل فيقول أبو سعيد الخدري إن النبي كان يطعمه أصحابه وقد أطعمني إياه، ويقول القاضي أطهر المباركفوري محيلاً القاضي الرشيد بن الزبير صاحب "كتاب الذخائر والتحف": لعل هذه الهدية قد أرسلها ملك بنغال إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم لأن مثل هذه الهدايا يعمّ إعطاؤها فيما بين أهالي بنغال. اعتقد أن هذا الرأي ليس بصائب فإننا لا نجد أي معلومات عن علاقة العرب مع بنغال في أي عهد من عهودها. والواقع أن العرب قد ألقوا رحالهم في جنوب الهند لاسيما سواحل مالابار وكانت بها كثرة كاثرة لمزارع الزنجبيل والنارجيل والدلي لأنها تنشأ في الظلال فلا يستبعد أن هذه الهدية قد وصلت إلى حضرة النبي بيدي السلالة الملكية تشيرامن بيروملز والواقع أن القاضي أطهر المباركفوري قد ركّز عنايته على شمالي الهند. وعلى كل حال فقد اعترف بزرك بن شهريار في كتابه "عجائب الهند" أن أهالي لانكا قد بعثوا برجل فطن إلى بلاد العرب للبحث عن أخبار النبي محمّد حينما سمعوا عن بعثته فلما بلغ المدين قد سبقه النبي وأبو بكر بالموت وكان العهد عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فشهد الرجل ملابس عمر المرقوعة ثم تأثر بمعاملة المسلمين ولكنه لما وصل إلى مكران حين الرجوع من العرب فاجأه الموت فأخبر عبده أهالي لانكا بأخبار النبي الصحيحة.

أسرة المخدومين: قد تقرّر بنّاني (Punnai) مركزاً لتبليغ الإسلام وإصلاح الناس في النصف الأخير للقرن الخامس عشر الميلادي وذلك لأن أشهر أسرها المسمّاة بـ"مخدوم" (Makhdums) قد وردها وأقام بها. كان المخدوم الأول يسمّى بـ"زين الدين بن علي المعبري". إنهم هاجروا معبر لكوتشين وثم غادروا كوتشين لبنّائي. وهناك اختلافات شتى بين الباحثين عن معبر فيرى البعض أن معبر منطقة بالعين، انهدر منها هؤلاء المخدومون بينما يرى البعض أنها منطقة كائل بتنم وكيلاكارا كما يرى البعض أن معبر موضع في كيرالا نفسها

ويرى البعض أنهم سبقوا العرب في الورود بمنطقة كورومندل (Coromandal) التي هي بتامل نادو ومن ثم إلى كوتشين ومن كوتشين إلى بنّائي. ويبدو صحيحاً أن هذه الأسرة وردت كائل بتنم من اليمن ثم من كائل بتنم إلى مناطق مدورائي (Madurai) وتنجاور (Tanjaur) وترتشنابلّي (Trichnapally) وناغور (Nagore) حتى وصلوا إلى كوتشين. إن هذه المناطق كلها في تامل نادو ولكنها مجاورة لكيرالا. وتقع كائل بتنم فيها. توطنت هذه الأسرة بنّائي في وسط القرن الخامس عشر الميلادي. غادر زين الدين إبراهيم بن أحمد المصري كوتشين إلى بنّاني (Punnani) ثم بنى مسجداً جامعاً في هذه المدينة، يوجد حتى الآن، وكذا أقام مدرسة بها فنوّر بها المدينة. جاءها الناس من كل فجّ عميق حتى اشتهرت هي بمكة الصغرى. كانت هذه المدينة ترجماناً لقيم المسلمين الحضارية والعلمية. زار ابن بطوطة مدينة بنّائي ولكنها لم يردها الأسرة المخدومية حتى ذاك الزمن (القرن الرابع عشر الميلادي). فتحها البرتغاليون مراراً وتكراراً حتى أشعلوا النار جزءًا من المسجد الجامع فالمسجد الذي بناه زين الدين الكبير في 966هـ/1510م كان له أربعة أطباق، طوله 90 قدماً وعرضه 60 قدماً وكانت فصول المدرسة في الطبق العالي منه.

قد مضى ثلاثة رجال باسم زين الدين؛ زين الدين إبراهيم بن أحمد المعبري الذي كان قاضياً في كوتشين. إنه ورد بنّائي مع ابن عمّه زين الدين بن علي بن أحمد المعبري وتقرّر زين الدين بن علي قاضياً بها وسمّي بـ"مخدوم". هذا أوّل مخدوم وعلى هذا فقد عُرِفَ بـ"زين الدين الكبير"، وزين الدين الثالث هو زين الدين الغزالي. إنه مؤلّف كتاب "تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين".

حملة البرتغاليين: هذا الحدث له أهمية كبرى في تاريخ هذه المنطقة فقد تصعّد المسلمون للقوة الأوربية وبالتالي فقد استشهد آلاف من المسلمين. إنه يتعلق بحملة البرتغاليين على مالابار وذلك حين وردها فاسكودي غاما فقد واجههم مسلموا هذه المنطقة وحاكمها زمورن والنائرون، و"تحفة المجاهدين" تاريخ لهذه الحروب إلا أن المؤلف قد ذكر أحوالها الاجتماعية.

فاسكودي غاما (Vas Ko De Gama) الذي كان من أهالي برتغال وصل إلى موضع كباد (Kapad) في 1498م. هذا الموضع يقع على بعد 15 كيلومتراً من كاليكوت. إنه وصل إلى كاليكوت ولقي حاكمها زمورن الذي ظنّ أن علاقاته مع الأوربيين ستكون مفيدة بشأن التجارة لأن كاليكوت كان مركزاً لإصدار البضائع التجارية لاسيما بضائع المسلمين فقد كانت تردها مراكب تجارية عديدة من العرب وفارس والصين ومصر وغيرها من البلاد وترجع منها بالبضائع مثل الفلفل الأسود والتوابل والساج وغيرها فخطّط فاسكودي غاما أن يستعين زمورن فيعزل العرب عن سيطرتهم على البحر فيجعل قومه يتولّى تلك القوة الكبرى. وفي ذلك الزمان حينما كان العرب يسيطرون على البحر منذ القرون أنكر زمورن أن يستلم ما يقدّمه فاسكودي غاما إليه فذهب إلى كوتشين وجعل بها مصنعاً ثم جعل قلعة في كينانور تسمّى "Fort Angelo" (قلعة إينغلو). وهكذا فقد حاول أن يخلّ بالمراكب الآتية والذاهبة من وإلى زمورن.

والواقع أن فاسكودي غاما كان يودّ أن يفسد تجارة زمورن فقد اشترط أن المراكب التي تمرّ من على بحر العرب يجب عليها أن تظفر بإجازة من البرتغاليين، وزمورن الذي كان حاكماً على هذه المنطقة وكانت حركة فاسكودي غاما هذه خللاً في حكومته وإعلاماً منه باحتلال السيطرة على قوته فلم يرض عن خطوة فاسكودي غاما هذه وأمر كنها علي مرك كار أمير البحر آنذاك بأن يواجهه ولكنه لم يقدر على مواجهة قوات البرتغاليين البحرية فغرق العديد من مراكبه في كوتشين. إنه قرّر مستقره بنّائي التي كانت فيها أغلبية المسلمين ثم حضر زمورن فأعطاه زمورن مزيداً من الخيارات آمراً إياه بمواجهة البرتغاليين.

بحر إرنغال (Iringal) الذي يقع على بعد 25 ميلاً شمالاً من كاليكوت أعطى زمورن ميدانه وضواحيه لكنها علي مرك وأمره بأن يبني قلعة بها فلما بنيت القلعة فشكّك العيون البرتغاليون في ذهن زمورن أن هذه القلعة قد قلّلت من قدره وذلك لأنه إذا أراد كنها علي أن يبغي على الملك فلا يمكن للملك أن يكبح جماحه لأنه يمتلك هذه القلعة المنيعة، وقد أرسخ أبٌ برتغاليّ من كاليكوت هذا الشك في قلب الملك زمورن وبالتالي فقد استعان الملك البرتغاليين ضدّ كنها علي مرك كار والحال أن علياً كان عبداً له وفياً للغاية فلم يكن سوء الظن هذا إلا مما جاء به مكر

البرتغاليين وما اختلقوه من الحكايات حتى جعل عيون البرتغال ينشرون هذه الأخبار في كل نحو من أنحاء الدولة ولما استعان الملك البرتغاليين بفضل هذه المؤامرات فقد حمل كلاهما على كنها علي فلم ينهزم في هذه الحملة إلا زمورن والبرتغاليون فقد أغرق علي عديداً من سفنهما ولما أرادوا أن يحملوا عليه مرة أخرى فبعث علي الرابع سفيراً إلى زمورن بأنه لو أمّنه وأصحابه فلنكونّ خداماً للملك أوفياء من جديد فوعد الملك أنه سيؤمّنهم جميعاً ولكنه حينما حضره علي وأصحابه وأقبض عليهم الملك ففوّضهم إلى البرتغاليين الذين أسروا علياً فقتلوه في غوا ثم حملوه إلى كيرالا وعلّقوه في عماد بكينانور وهكذا فقد قضي على أسرة علي في 1600م وبهذه المأساة قضي على سيطرة العرب على البحر وتغيّر مجرى تاريخ الهند فالبرتغاليون الذين جاهدوا لإبقاء سيطرتهم على البحر لمدة قرن غابوا من صفحة التاريخ وجعلت سفن فرنسا وإنكلترا تسيطر على البحر فإن لم يقض زمورن على كنها علي هكذا وأبقى سيطرته على البحر لكان تاريخ الهند غير ما نراه اليوم وذلك لأن الإنجليز والفرنساويين لم يجمعوا همتهم للإقدام في البحر.

ترجمة من الأردوية: رضوان أحمد نور محمد

فهرس المصادر والمراجع

1. بي، بي، عبد الرحمن: تأثير اللغة العربية على مفردات ملايالم وقواعدها اللغوية)، مخطوط بالإنجليزية
2. لوغين: A Manual of Malabar (تاريخ موجز لمالابار)، تفاصيل الطبع لم تذكر
3. كولاندملر: Mapalla Muslims of Kerala (مسلموا كيرالا المابلّا)، مدراس، 1976م
4. زين الدين: تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، 1985م
5. القاضي أطهر المباركفوري: العقد الثمين فيمن ورد الهند من الصحابة والتابعين، مومبائ، 1968م

المسلمون في الهند في عصر الاحتلال الإنجليزي

-د. أشرف أحمد محمد عماشة

المقدمة:

إن الحضارة العربية الإسلامية، في أساسها العميق حضارةٌ روحية، فقد ابتدأ بزوغ شمسها من كتابٍ سماوي ظل على مَرِّ السنين، بمثابة النصّ المحوري الذي انتقل به الناسُ من حالةٍ جاهلية إلى حالةِ تحضُّرٍ طويل، فكان القرآن الكريم طيلة تاريخنا الممتد، معيناً لتوليد الدلالات لا ينضب، ولوحة ربَّانية لا يكفُّ تذوُّقها.

ولما كانت الهند من بلاد الإسلام العريقة -التي ظل الإسلام فيها أكثر من ثمانية قرون- فقد كان دورها عميقاً في المجتمع معرفياً واجتماعياً وسياسياً ودينياً وتربوياً.

إن الإسهام المباشر الذي تم على أيدي العلماء في بلاد الهند كان له تأثير قوي على الأمة الإسلامية وتطورها في جميع شؤون المجتمع في الإسلام.

وسوف يدور هذا البحث حول عدة نقاط:

أولاً: دخول الإسلام في شبه القارة الهندية.

ثانياً: الاستعمار الإنجليزى وآثاره في الهند.

ثالثاً: الوضع الثقافي للهند.

رابعاً :الوضع الاجتماعي والأخلاقي.

دخول الإسلام في شبه القارة الهندية

كان أول عهد الهند بالإسلام بالجهود الفردية، وفي أوائل عهد الخلفاء الراشدين، فقد وفد إليها من الجنوب على أيدي التجار المسلمين من عرب وإيرانيين، أولئك الذين كانوا يرتادون

شواطئها الغربية منذ أقدم العصور، تحملهم أمواج المحيط الهندي من جنوب شبه الجزيرة العربية، وكان ذلك طريقه الأول إليها.

أما طريقه الثاني: فكان من امتداد كتلته الزاحفة المتصلة في غرب آسيا، حيث دخلها من الشمال، وكانت أولى خطواته فيها على أرض بلاد الهند الواقعة على شاطئ الهند الغربي الشمالي إذ بدأت الحملات في عهد عمر بن الخطاب، إلا أنه لم يتم له التوغل داخل البلاد آنذاك، وإنما استتب أمره فيها واستقر في عهد الأمويين من عام 92 – 132هـ/710–748م حينما دخل محمد بن القاسم الثقفي فاتحاً سنة 92هـ/710م، وكان في السابعة عشرة من عمره، والذي سار بعزيمة الشباب وحكمة الشيوخ حتى وصل زحفه إلى مدينة الملتان ثم وقفت الفتوح الإسلامية[1].

ثم حكمها العباسيون من عام 132–350هـ/750–962م، وقاد المسلمون حوالي ثلاث وخمسين معركة في هذه الفترة، ثم الدولة الغزنوية من عام 351-582هـ/962- 1186م، وقادت الدولة الغزنوية حوالي تسع عشرة معركة[2].

وتتابعت الدول على حكم الهند تحت ظل الإسلام فحكمها الغوريون الذين حكموا الهند من عام 583-602هـ/1187–1215م وقاموا بثلاث عشرة معركة، ثم الدولة التركية التي حكمت من عام 603–686هـ/1216–1287م وقام القُوّاد بخمس وعشرين معركة، والدولة الخلجية الأفغانية والتي حكمت من عام 687–720هـ/1288–1320م وقاموا بسبع عشرة معركة، ثم آل تغلق والأسياد التي حكمت الهند من عام 720-847هـ/1320–1443م وقامت الدولة التغلقية بست وثلاثين معركة، ثم حكمت الدولة اللودية الأفغانية الهند من عام 848–930هـ/1444-1525م وقامت الدولة اللودية بإحدى وثلاثين معركة، وأخيراً المغول الذين حكموها من عام 931–1275هـ/1525–1857م[3] وقامت الدولة المغولية بحوالي مائة وعشر

[1] راجع: نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند والباكستان، ص29

[2] راجع: الهند في ظل السيادة الإسلامية، ص98

[3] المصدر نفسه، ص103 -131

معارك، ومن سلاطينهم السلطان الصالح أورنكزيب عالم كير[1] الإمبراطور المغولي المسلم الذي يعتبره المسلمون النموذج للحاكم المسلم.

وقد كان حكم المغول عملاقاً، ولكن بعد وفاة أبي المظفر هذا ظل يهوي من ضعف إلى ضعف، حتى انطوت صفحته، وانطوت بانطوائها صفحة الحكم الإسلامي في الهند وتولّى بعد أورنكزيب ثمانية حكّام آخرهم بهادر شاه الثاني، ثم حلّ الاستعمار الإنجليزي سنة 1857م، وسقط الحكم الإسلامي في الهند إلى الآن[2].

ويمكن أن نذكر عطاءات المسلمين هذه في النقاط التالية:

(1) كان المسلمون ينظرون إلى هذه البلاد كوطن ومسكن، فكانوا يخدمونها بكل ما أوتوه من ذكاء ونبوغ، وقوى ومواهب، وكانوا يعتقدون أن كل ما يضيفونه إلى ثروتها إنما يضيفونه إلى ثروتهم، ويحسنون إلى أنفسهم وأجيالهم القادمة، لأنهم أهل البلاد وأمة المستقبل، فكان نظرهم إلى البلاد يختلف بطبيعة الحال عن نظر الأوربيين المستعمرين الذين يجلبون خيراتها إلى بلادهم الخاصة.

(2) دخل المسلمون الهند وهم أرقى أمة في الشرق بل في العالم المتمدن المعمور في ذلك العهد، يحملون ديناً جديداً، سائغاً معقولاً، سهلاً سمحاً، وعلوماً اختمرت وتوسعت، وحضارة تهذبت ورقت حواشيها، يحملون معهم محصول عقول كبيرة كثيرة، ونتاج حضارات متنوعة متعددة، يجمعون بين سلامة ذوق العرب ولطافة حسن الفرس وفروسية الترك.

(3) كان أغرب ما كانوا يحملون في الدين، توحيد الإسلام النقي الذي لا يرى الوساطة بين العبد وربه في العبادة والدعاء، ولا يعترف بالآلهة والمظاهر والظلال وحلول الله جلّ وعلا- في بعض البشر وظهوره فيهم، ويؤمن بالإله الواحد الفرد الصمد..

---

[1] هو السلطان محيي الدين أورنكزيب بن الإمبراطور شاه جهان، ولد في عام 1028–1118هـ/1618-1707م، تولى حكم الهند في 1068هـ/1658م، وله ثلاثة من الأبناء، اتسعت الدولة في عصره من خلال ثلاثين معركة راجع: الهند في ظل السيادة الإسلامية، ص 37 –39

[2] راجع: الهند في ظل السيادة الإسلامية، ص 39

(4) وكان أعجب ما حمله المسلمون معهم في الاجتماع هو المساواة الإنسانية التي لم يكن للهند عهد بها.

(5) ومن هدايا المسلمين إلى الهند احترام المرأة والاعتراف بحقوقها وكرامتها، كعضو محترم من أعضاء الأسرة الإنسانية وشقيقة الرجل. وعظمة هذه الهدية في بلاد كانت السيدات يحرقن أنفسهن بالنار، على وفاة أزواجهن، ولا يرين، ولا يرى المجتمع لهن حقاً في الحياة بعد الأزواج. إن عظمة هذه الهدية في مثل هذه البلاد واضحة لا تحتاج إلى تعليق[1].

(6) نقل المسلمون إلى الهند علوماً جديدة كذلك، من أجلها وأنفعها – إذا تركنا العلوم الإسلامية التي لا تتوقع من الهند – علم التاريخ، فقد كانت البلاد فقيرة في التاريخ، ليس في مكتبتها كتاب تاريخ بالمعنى الصحيح، إنما هنالك صحف دينية وملاحم مقصورة على حرب.

(7) وقد قام ملوك المسلمين بإنشاء مصانع كثيرة للنسيج والوشي والتطريز والنحت، ومصنوعات العاج، والمنسوجات الحريرية، وصناعة الورق، كما قاموا بتأسيس المساجد والمدارس والخوانق، وتكثير الزراعة، وغرس الأشجار المثمرة وإنشاء الحدائق والبساتين، وتحريض الناس على ذلك وإعانتهم بحفر الآبار وإجراء العذيون.

(8) كان للحكومات الإسلامية فضل في تربية الحيوانات واقتنائها، وترقية نسلها.

(9) كذلك قامت الحكومات الإسلامية بكثير من الأمور الحضارية كتأسيس المستشفيات ودور العجزة، والحدائق العامة والمنتزهات والترع الكبيرة والبرك العظيمة، والشوارع الطويلة، وقد كان ذلك من محاسن الدول الإسلامية التي لم تسبق إليها..

(10) وكان مما أدخله المسلمون ونقلوه من الخارج إلى الهند، النظافة الزائدة، والأناقة في كل شيء، والظرافة في المأكل والمشرب والبناء والاجتماع والاحتفاظ بأصول الصحة، وتهوية البيوت وتنويرها والتأنق في الأواني .. وكذلك أدخلوا فناً معمارياً جديداً يمتاز بالمتانة والدقة والرقة والجمال، والتناسب، والفخامة، والتهوية والتنوير، ولا يزال التاج محل آية في

[1] راجع: المسلمون في الهند للشيخ الندوي، ص 13-17

الهندسة والبناء وذكرى من عهد المسلمين الزاهر، ودليلاً ناطقاً على ما بلغوا إليه من رقة الذوق ولطافة الحس، والإبداع في الفن[1].

وعلاوة على ذلك فقد كان من فضل المسلمين على الهند، نظام الطب والمعالجة الذي كان أرقى نظام للطب في ذلك العصر قبل انتشار الطب الجديد[2].

الاستعمار الإنجليزي وآثاره في الهند

بعد أن بلغت الهند أوج العظمة والسلطان في ظل العهد المغولي، وذاق أهلها طعم النعيم والرخاء ظنوا بأن السعادة تأتي القوم وهم نائمون، فناموا بملء جفونهم وعيونهم، وتهاونوا في الذود عن حياضهم، وعن تراث آبائهم وأجدادهم، بل كانوا كلما استيقظوا من غفلتهم نهضوا وأنشبوا أنيابهم في جلود أهلهم وذويهم، فحقّ عليهم العذاب، وحلّ بهم الشقاء، وتنازعوا أمرهم بينهم فسلّط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، وتلك هي سنة الله في الكون، التي لا محيد عنها ولا مناص منها.

وإذا كان الإنجليز هم الذين استعمروا هذه البلاد واستثمروها فإنهم لم يكونوا أول من سعى إليها أو فكر فيها بل حاول البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون السيطرة على البلاد من قبل، اقتصادياً واستراتيجياً، لكن البريطانيين استطاعوا التخلص من كل هذه القوات الوافدة وراء الثروات الهندية، واختطوا لأنفسهم خطة رائعة عن طريق (شركة الهند الشرقية)[3]، منذ تأسيسها عام 1600م، وبالتالي نجحوا في تنفيذها حتى تم لهم القضاء نهائياً على الحكم الإسلامي سنة 1247هـ/1857م أي بعد أن ظل ثمانية قرون ونصف كان المسلمون فيها السادة والحكام، وكانت الشريعة الإسلامية هي الأساس العام لحكم البلاد.

والسبب في ذلك كله عدم التفات المسلمين إلى توحيد الكلمة، وعدم التخلص من الانغماس في الحروب الطائفية وعدم أخذ العبرة من التاريخ السياسي.

---

[1] المصدر نفسه، ص 18 و23 –26

[2] المصدر نفسه، ص 27

[3] شركة الهند الشرقية قد تأسست في لندن عام 1600م لتشتري منتجات الهند بأثمان بخسة وتبيعها بأثمان مرتفعة في أوربا. انظر: قصة الحضارة (الهند وجيرانها) لول ديورانت، ص 388

وقد حرص الاحتلال الانجليزي على ربط أواصر العلاقة مع الهنادكة الذين كانوا يتمنون زوال الحكم الإسلامي منذ أول وهلة زرعت فيها بذور الإسلام في أراضيها[1]، وبعد الإجهاض على المسلمين والقضاء على شوكتهم وتشتيت جموعهم وإسكات صوتهم أعلنوا حكمهم على الهند الإسلامية وأزيح الستار عن الشركة التجارية، وأصبحت حكومة إمبراطورية دعامتها إحكام السياسة الجديدة القائمة على تشجيع الهنادكة وتثبيت أقدامهم في المراكز العليا والمناصب الرفيعة، وفتحوا لهم أبواب الرخاء وميادين الرقي، وهم في الوقت نفسه يعملون على أن يلقوا بالمسلمين في مهاوي التأخر، وظلمات الجهل، لأنهم كانوا يدركون أنهم أخذوا الحكم منهم وأنهم هو المطالبون به لاسترجاعه من أيديهم حين كان الهنادكة هم الذين وطّدوا لهم الحكم ومهّدوا لهم سبيله، وقد اعترف بذلك اللورد اللنبورو (Lord Elenborough) بقوله: "ليس في وسعي أن أغفل ما أوقن به من أن هذا العنصر الإسلامي عدوّ أصيل العداوة لنا وينبغي أن تتجه سياستنا حقاً إلى تقريب الهندوس"[2].

ولقد قام الإنجليز بعمليات الشنق الجماعية ضد المسلمين في جميع أنحاء البلاد، وبمصادرة أملاكهم، وإعلان اللغة الإنجليزية لغة رسمية في البلاد بدلاً من اللغة الأردية[3]، التي كانت لغة البلاد من قبل، لذلك أقبل الهنود – كما يقول الدكتور محمد إسماعيل الندوي – على تعلم هذه اللغة والإحاطة بثقافتها وعلومها[4].

موقف مسلمي الهند وعلمائهم في مقاومة الاستعمار: يتجمل التاريخ بما بذل به المسلمون الهنود وعلماؤهم من الجهود فى مقاومة الاحتلال الكافر، وإثارة روح العزة في نفوس المسلمين في شبه القارة الهندية، وكان الشعب الإسلامي الهندي – كما يقول الشيخ أبو الحسن الندوي – منهوك القوى، مثخناً بالجراح، مجروح الكرامة، يعاني دهشة الفتح وعار الهزيمة، وجيشاً من التهم والظنون..[5].

---

[1] محمد علي جناح مؤسس الباكستان، ص 6

[2] An Autobiography، ص 460

[3] لغة الشعب الباكستاني اليوم، وهذه اللغة تكتب بحروف عربية، وتتضمن ما لا يحصى من الألفاظ الفارسية والعربية وعرفت باسم زبان أردو، أي: لغة المعسكر أو الجيش وانظر: داستان تاريخ أردو، ص 11

[4] تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، ص 266

[5] الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص 74 – 75

فقد توجهت كل الجهود – بدافع إسلامي إيماني – إلى مقاومة الإنجليز في شبة القارة الهندية، وقام ذلك على محاور متعددة، منها:

(أ) جبهة نصرة الخلافة العثمانية الإسلامية

(ب) حركة عدم التعاون.

(ج) جبهة تحرير البلاد.

(د) جبهة الجهود التعليمية.

(أ) جبهة نصرة الخلافة الإسلامية: اندلعت الحرب العالمية الأولى في سنة 1914م وكانت الدولة العثمانية فيها بجانب الألمان ضد الإنجليز وحلفائهم، وخشي الإنجليز أن يقوم مسلمو الهند بثورة من أجل الخلافة الإسلامية، فوعدت الحكومة الإنجليزية في بيانها بأنها لن تأخذ شيئاً من ممتلكات المسلمين، ولن تلحق أيّ ضرر بالخلافة الإسلامية، ومع الحفاظ على الأماكن المقدسة[1]، ولكن عندما انتهت الحرب العالمية في سنة 1918م وتمت الهزيمة للأتراك واستولى الإنجليز على الأستانة قرّر الحلفاء إنهاءَ الخلافة الإسلامية في تركيا بتقسيم الدولة العثمانية إلى دويلات وتوزيع ممتلكاتها فيما بينهم، فانفجر – كردّ فعل للقرار – بركان الثورة في الهند، وتعاون المسلمون والهنادك في حركة "الخلافة"[2]، بشكل عام، ليحاربوا الإنجليز، وأقاموا الاجتماعات من أجل الوقوف إلى جانب تركيا تعاطفاً مع الخلافة العثمانية التي ينظر إليها المسلمون في الهند – كغيرهم في البلاد الإسلامية – كرمز للمجد الإسلامي، وموئل للأمة، وحامية للإسلام.

وكان غاندي – الزعيم الهندى الشهير – في جبهة القيادة مع زملائه محمد علي جناح وشوكت علي، وأبي الكلام آزاد، والشيخ عبدالباري الفرنجي محلي[3].

ومن المعلوم أن حركة الخلافة وإن لم تحقّق أصل هدفها، وهو إعادة الخلافة الإسلامية الزائلة في تركيا إلا أنها حقّقت مكاسب جانبية وهي حمل النفوس على مقتل الإنجليز

---

[1] تاريخ الشرق العربي، ص 11

[2] هي حركة تأييد الحكومة العثمانية في قضاياها الإسلامية ، ومعارضة الحلفاء، وكانت من أقوى حركات الهند الإسلامية السياسية، أنظر: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص 72

[3] فلسفة إقبال، ص 30

والاستعمار وإثارة روح الغيرة أو العزة الإسلامية وإيجاد الوعي الإسلامي في نفوس المسلمين لضرورة الاتحاد الإسلامي واستعادة مجدهم التليد.

(ب) حركة عدم التعاون (NON - Cooperation): وفي 28 مايو سنة 1920م عُقِدَ مؤتمر في مدينة بومبائي وتمّ فيه الاتفاق على مقاطعة الحكومة والإضراب عن التعاون معها في إدارة الحكومة وجميع مجالات الحياة، فكان أمضى سلاح سلمى استخدمته حركة وطنية، وانطلقت موجة عنيفة من السخط الشديد اكتسحت البلاد، تحمل معها الدعوة إلى مقاطعة البضائع الأجنبية والتخلي عن مظاهر الحضارة الأجنبية المستعمرة، والظهور في المظهر الوطني الشعبي، والتمسك بالبساطة والتقشف في الحياة، والاقتصار على المنتجات الوطنية، وكانت أعظم وأعنف حركة شاهدتها البلاد..

وتلت هذه الحركة التي كان طابعها دينياً، الحركة الوطنية الهندية العامة، التي ترمي إلى تحرير البلاد وطرد الاستعمار وإقامة الحكم الذاتي..[1].

(ج) جبهة تحرير الهند: ولم يكتف المسلمون بالمشاركة الفعلية وحدها في تحرير الهند، بل كان منهم قادة ومنظرون لهذه الحركة من علماء ديوبند، وفرنجي محل، وجمعية العلماء، ومجلس الأحرار.

(د) الجهود التعليمية والتربوية الإسلامية: ويمثل هذا الاتجاه علماء أثبات لهم وزنهم في صنع الحركة الإسلامية ودفعها ومعالجة أهم القضايا الفكرية، مثل الأستاذ أبي الأعلى المودودي، والشيخ أمين أحسن الإصلاحي، والشيخ محمد منظور النعماني، والشيخ أبي الحسن الندوي، والأستاذ مسعود الندوي[2].

(3) تقسيم الهند وميلاد الباكستان: إن حركة استقلال الباكستان في الواقع بدأت عام 1857م عندما قمع البريطانيون أول حرب من أجل الاستقلال[3]، واعتقدوا أن المسلمين

---

[1] الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص 75

[2] جهود الشيخ أبي الحسن الندوي في الدعوة الإسلامية، ص 22 وانظر للتفصيل: الثقافة الإسلامية والواقع المعاصر، ص 27 – 32

[3] محمد علي جناح مؤسس الباكستان، ص 6

كانوا هم المسؤولين عن هذه الثورة التي قامت ضدهم عام 1857م، لذلك كان المسلمون عرضة للعقوبة القاسية والانتقام الشديد[1].

غير أن قيام الباكستان كدولة إسلامية كانت حلماً يراود شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، وفكرةً دعا إليها بكل حماس وإخلاص يوم 29 من ديسمبر عام 1930م، حيث يقول: "إنني أودّ أن أرى البنجاب، وإقليم الحدود الشمالية الغربية والسند، وبلوجستان متحدة في دولة واحدة، ويبدو لي أن تكون دولة موحدة مسلمة في الشمال الغربي تحكم نفسها حكماً ذاتياً في داخل الإمبراطورية البريطانية أو خارجها هو المصير النهائي للمسلمين"[2].

لم يفتأ الدكتور إقبال ينادي بهذه الفكرة بقوة وحماس شديدين، ويعرضها على ذوي الرأي والنظر، فعندما زاره الشيخ أبو الحسن الندوي مع مجموعة من الأفاضل كان فيما قال كلام يليق أن يكتب بماء الذهب: "إن أمة لا تملك أرضاً تستند إليها لا دين لها ولا حضارة، فإنما الدين والحضارة بالحكومة والقوة وإن الباكستان هي الحل الوحيد للمشاكل التي يواجهها المسلمون في هذه القارّة الهندية، وهي الحل الوحيد للمشكلة الاقتصادية[3].

من هنا بدأت محاولات المسلمين في تكوين دولة حديثة يستطيع فيها المسلمون أداء دورهم لتوظيف إسهاماتهم في إقامة مجتمع مثالي ينسجم فيه الأمن والسلام مع حرية العمل والمساواة الإنسانية .. ومرّت عشر سنوات على بنات فكرة إقبال، حتى قبل حزب الرابطة الإسلامية[4]، فكرته في الدورة التاريخية التي عقدتها الرابطة في لاهور في 24 مارس

---

[1] سيرة ميلاد أمة، ص 25

[2] زنده رود (النهر الخالد)، ص 324

[3] روائع إقبال، ص 15

[4] حاول المسلمون كردّ فعل لغلبة الهنادكة وتسلّطهم على الوظائف الحكومية والمساهمة في تطوير صناعات البلاد أن يجمعوا أشتاتهم في أطراف شبة القارة الهندية، ففي 30 ديسمبر 1906م عقد المؤتمر التعليمي السنوي لمسلمي الهند برئاسة النواب وقار الملك، وفي اجتماعات المؤتمر طالب النواب سليم الله خان (من داكا، عاصمة بنجلاديش حالياً) بإصدار قرار لتأسيس حزب سياسي لدعم مطالب مسلمي الهند، فاجتمع الذين وافقوا على فكرته وأسّسوا جماعة أطلقوا عليها اسم حزب "الرابطة الإسلامية"، وكان من أهم أهدافها: حماية حقوق المسلمين والتقدم بمطالبهم إلى الحكومة، وتقريب وجهة النظر بينهم وبين المستعمر .. وغيرها.

عام 1940م، وفي 14 أغسطس سنة 1947م تأسست الباكستان بقيادة محمد علي جناح الذي حمل فكرة إقبال وسار بها حتى تحقّقت[1].

ومن الجدير بالذكر أن المسلمين الهنود لم يطلبوا إقامة الباكستان إلا بعد أن فشلوا في الحصول على بعض التحفظات التي تصون حقوقهم، وذلك عندما قطعت آمالهم، وأيقنوا أنهم لن يستطيعوا المحافظة على حقوقهم وثقافتهم الإسلامية ووجودهم في الهند المتحدة؛ لذلك صمّموا على أن يعيشوا مسلمين محافظين على حقوقهم معلنين كلمة الله باعتبارهم أمة حية تدين بدين قوي من حق الناس فيها أن يعيشوا أحراراً مستقلين، فأعلنوا فكرة تقسيم الهند، وكان الهنادكة يعتقدون أنهم سيحكون الهند كلها، وينتقمون من المسلمين شرَّ انتقام.

وهنا لا يفوتنا أن نشير إلى أنه ليس كل ذوي الرأى والنظر من المسلمين كانوا يرون ضرورة التقسيم، واستقلال المسلمين بدولة، بل هناك اتجاه آخر يرى أضراراً وخطورة على المسلمين في التقسيم[2]، فقاموا بمعارضته، ولكنهم مع ذلك كانوا يحترمون وجهة نظر المطالبين بالتقسيم، ولما قامت الباكستان تمنوا لها أن تعزّ وتزدهر، وهذه أخلاق العلماء المتجردين للحق عن ذواتهم وآرائهم، وقليل ما هم.

الوضع الثقافي للهند

اهتمت الحكومات الإسلامية المتتابعة في شبة القارة الهندية بتثقيف الشعب الهندي ونشر الوعي الإسلامي فيهم وتكريم العلماء والأدباء والمفكرين، حتى ازدهرت الحالة العلمية في عهدهم وبلغت الهند ذروة الثقافة والحضارة في ذلك العصر.

ولكن بعد أن دخلت البلاد في حوزة الإنجليز وزالت دولة المغول في عام 1857م، تضاءل نفوذ المسلمين في الهند، ولجأ الإنجليز إلى اتخاذ وسائل عديدة لضرب مواقع المسلمين، وإخماد حماسهم الديني بالقوة والحيل والمكائد ووسائل القمع والإرهاب المختلفة، فقتلوا آلافاً من العلماء الأبرار المجاهدين، ونفوا عدداً كثيراً منهم .. وألغوا جميع المدارس الدينية

---

[1] العالم الإسلامى والاستعمار، ص 101

[2] مثل فضيلة الشيخ حسين أحمد المدني، وأسرة الشيخ أبي الحسن الندوي، ومولانا أبي الكلام آزاد وغيرهم.

التي ظلت منارة العلوم والمعارف طوال العصور الإسلامية، "واقتصر التعليم الديني على تخريج أئمة المساجد فقط، وأصبحت المدارس العربية التي كانت بالأمس مملوءة بالطلاب خاوية على عروشها"[1].

وهكذا ألغى حكام الإنجليز المتعصبون الدراسات الإسلامية بالقضاء على نظم التعليم الهندية التقليدية، وأقاموا نظاماً جديداً للتعليم الذي لا يوافق طبيعة المسلمين ولا ثقافتهم، وأحلوا التربية المسيحية محل التعليم الإسلامي، كما فتح المبشّرون المدارس التبشيرية بمساعدة الحكومة البريطانية لتدريس الديانة المسيحية فيها.

أما علماء الدين فقد كانوا أقوى علماء العالم الإسلامي شخصية دينية، ومن أكثرهم رسوخاً في الدين، وزهداً في الدنيا، وإيثاراً للآخرة، وغيرة على الإسلام، وجهاداً في سبيله بالنفس والنفيس، ولكن جوّهم الخاص الذي عاشوا فيه، وثقافتهم القديمة، لم تمكنهم من السيطرة على هذه الحضارة الغربية والثقافة الجديدة وقيادتها إلى ناحية مجدية تعود على الإسلام والمسلمين بالنفع والقوة، ثم إن الهمجية التي ظهرت من الحكومة الإنجليزية والقسوة النادرة التي عاملت بها المسلمين الذين اعتبرتهم أصحاب الفكرة في الثورة المخفقة سنة 1857 م وقادتها، وتحمس الحكام والولاة الإنجليز لنشر المسيحية في طبقات الشعب الهندي، والسرعة الزائدة التي كانت الحضارة الغربية تنتشر بها في الجمهور وتأثيرها في عقيدة المسلمين وأخلاقهم، كل ذلك وضعهم في مركز الدفاع عوضاً عن الهجوم، وجعلهم يفكرون في الاحتفاظ بالبقية الباقية من العاطفة الدينية، والروح الإسلامية ومظاهر الحياة الإسلامية، والدعوة إلى التجنب عن هذه الحضارة والابتعاد عنها ما أمكن؛ وجعلهم يفكرون في بناء معاقل الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية، والعلوم الشرعية، وتخريج العلماء والدعاة والمرشدين من هذه المعاقل التي سمّيت بعدُ بالمدارس العربية[2]. وفيما يلي أمثلة من هذه المدارس والجامعات:

1- معهد دار العلوم ديوبند: الذي يعدّ أكبر معهد ديني في الهند، والذي أصبح – بفضل أساتذته والقائمين عليه وإخلاصهم وزهدهم جامعة دينية كبيرة، بل أكبر المدارس الدينية في قارة آسيا، أسّسها العالم الجليل المخلص الشيخ محمد قاسم النانوتوي في عام

[1] اللغة العربية وقضية التنمية اللغوية في الباكستان، ص 44

[2] راجع: الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص 59 – 60

1273هـ/30 مايو 1857م، الذي كان لا ينظر إلى هذه المؤسسة كمعهد يقوم بتدريس العلوم والمواد الدراسية، ويخرّج الفقهاء والمعلمين فحسب، بل ينظر إليه كمركز و"ثكنة" تخرّج المكافحين والدعاة الذين يفتحون جبهة جديدة للكفاح بعد ما لقي المسلمون الهزيمة المنكرة من الإنجليز المحتلين، وانقرضت الدولة الإسلامية من الهند[1].

2- مدرسة مظاهر العلوم سهارنبور – أتربراديش: تأسست عام 1283هـ، وهي تشارك دار العلوم الديوبندية في العقيدة والمبدأ.

وسواء تحقق هذا الغرض وهو تربية رجال يتداركون الهزيمة التي لحقت المسلمين في عام 1857م أم لم يتحقق، فقد نجحت هذه المدرسة في رسالتها الدينية نجاحاً باهراً، وكان للمتخرجين من دار العلوم تأثير كبير في حياة المسلمين الدينية في الهند[2].

3- ندوة العلماء: أسّسها مولانا محمد علي المونغيري عام 1893/1310م وقادها العلامة شبلي النعماني وزملاؤه، ودار العلوم التابعة لها جديرة بإحداث قنطرة بين الثقافتين الإسلامية والغربية، وإحداث فكر جديد يجمع بين محاسن القديم الصالح والجديد النافع، وقادة هذا الفكر يرون التعليم أداة قابلة للنمو والتطور، خاضعة لكل عصر ومقتضاه[3].

4- جامعة عليكره الإسلامية: وهذه الجامعة أسّسها الزعيم المسلم الشهير السير سيد أحمد خان باسم "مدرسة العلوم" سنة 1293هـ/1910م ولعله كان يقصد معالجة الواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون من استبعادهم من وظائف الحكومة وفقد الثقة بهم وبكفاءاتهم، وقد نجح "السيد" في هذا الجانب نجاحاً عظيماً.

هذا وتقترب من جامعة عليكره في الاتجاه العصري ويختلف عنها في السياسة والفكر جامعتان:

1. الجامعة الملّية الإسلامية: التي أسّسها بعض من انفصل عن جامعة عليكره من أبنائها وخريجيها سنة 1920م.

---

[1] المصدر نفسه، ص 65 – 66

[2] راجع: المسلمون في الهند للشيخ الندوي، ص 122 – 123

[3] راجع: أضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية، ص 23 - 24

2. الجامعة العثمانية بحيدر آباد، تأسست سنة 1918م، وتمتاز هذه الجامعة بأنها اهتمت بتدريس العلوم العصرية ونقلها إلى اللغة الأردية لغة الهند العلمية، وبذلك أدّت خدمة عظيمة للمسلمين وثقافة الهند[1].

هذا ما فعله علماء الدين في الهند، ليحتفظوا ببقايا الحياة الإسلامية، وليكافحوا تيار الغرب المدني والثقافي.

أما القيادة الثانية التي تزعمها سيد أحمد خان على أساس تقليد الحضارة الغربية الغازية وأسّسها المادية واقتباس العلوم العصرية بحذافيرها وعلى علاتها، والتي تمثلها المدارس والجامعات المدنية العصرية، التي أسّسها المسلمون في عليكره ودهلي وحيدر آباد، لتعليم أبنائهم العلوم الطبيعية والعصرية واللغات الأجنبية، وإعدادهم للوظائف الحكومية، وللمساهمة في حياة البلاد وخيراتها وإدارتها.

وأشهر هذه الجامعة وأقدمها وأعظمها تأثيراً في عقلية المسلمين وسياستهم "جامعة عليكره الإسلامية" التي أسّسها الزعيم المسلم الشهير السير سيد أحمد خان باسم "مدرسة العلوم" سنة 1293هـ ولعله كان يقصد معالجة الواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون من استبعادهم من وظائف الحكومة وفقد الثقة فهم وفي كفاءاتهم، وقد نجح "السيد" في هذا الجانب نجاحاً عظيماً، ولكن سيد أحمد خان قام بتطبيق أفكار القرن التاسع عشر على القرآن، وهو استدلال غير صحيح لإثبات قضية صحيحة.

الوضع الاجتماعي والأخلاقي لعصره

يتشكل الواقع الاجتماعي في الهند من خيوط تمثل اللغة واللهجات والطوائف الدينية والنحل والطبقات الاجتماعية والمجموعات الإقليمية والبنيات العرقية والأنماط الثقافية.

والهند هي ثاني أكبر دولة في العالم من حيث تعداد السكان الذي قارب المليار نسمة مع بداية القرن الحادي والعشرين، وسادس أكبر دولة من حيث المساحة التي تملك مقومات القارة كلها سواء من حيث مساحتها الشاسعة، مما ينذر بانفجارات هائلة ومشاكل سكانية خطيرة، وتزداد المشاكل حدة عندما يقسم هؤلاء الملايين من السكان إلى طوائف وعرقيات

[1] تجديد علوم الدين، ص 96-98

مختلفة، يتكلمون 14 لغة، و700 لغة غير رسمية وخمس ديانات رئيسية كبيرة زيادة على التقسيمات العصرية من تيارات تحررية (Libares) إلى أخرى شيوعية وانقسام هذه التيارات إلى عدة أحزاب[1].

لقد استقر الحكم الإسلامي لشبه القارة الهندية مدة ثمانية قرون ونصف من سنة 1001م إلى1857م حيث زال حكم المغول وبدأ عهد الإنجليز، وكان ذلك العصر مزدهراً بالعلم والفن والصناعة بشكل لم تشهده الهند من قبل إذ كان هؤلاء الحكام المسلمون يحكمون الشعب لصالح الشعب، ولا ينظرون إلى الشعب على أنه أجنبي عنهم، بل كانوا ينظرون إليهم على أنهم من صميمهم، ويعطونهم حقوقهم كاملة، كما كانوا لا يفرقون بين غالب ومغلوب في المعاملة الطيبة المتساوية، وفي ظل هذا الحكم انصرف الشعب إلى الإنتاج والعمل واستغلال خيرات البلاد، فازدهرت الزراعة، وارتقى العمران وتطورت الصناعة حتى كانت الهند تصنع ما يكفيها، وما يفيض عن حاجتها تصدره للخارج، ويتهافت الناس على تجارة الهند ومصنوعتها، وقد اعترف بهذا المؤرخ الفرنسي الأستاذ جوستاف لوبون في كتابه "حضارة الهند قبل الاحتلال الإنجليزي"، ونقل لنا الدكتور عبد المنعم النمر كلامه بقوله: "ظلت الهند أغنى بلاد العالم آلافاً من السنين، وازدهرت الفنون فيها على الدوام، وما فتئت الأمم تبحث منذ أقدم أدوار التاريخ عن أدوات الهند الفنية وحليها ونسائجها حتى صارت من الممكن أن يقال إنها استنزفت مال الدنيا في ألوف السنين"[2].

تلك هي الحالة الاجتماعية والحضارة الإسلامية التي قامت على أرض الهند، وظلت مئات السنين يغذيها أصحابها ويضيفون إليها، ويدعمون قواعدها. ثم جاءت الفترة الحالكة على أرض الهند، عندما قدم الإنجليز إليها بدعوى التجارة، وتسلّلوا إلى البلاد حتى أصبحوا حكاماً لها .. ومنذ بداية حكمها – كما ذكرت سابقاً – لقي المسلمون هناك أسوأ معاملة على أيدي الإنجليز، وقد أشار إلى هذه الحالة البائسة لمسلمي الهند إبان احتلال الإنجليز "ويليام هنتر" المؤرخ الإنجليزي بقوله: "إن الإنجليز من أجل الاستقرار في الهند اتخذوا كل الوسائل التي تضعف المسلمين ووضعوا قوانين جديدة لحكم البلاد، وعيّنوا قضاة للحكم

[1] أحوال المسلمين في الهند (1947م–1997م)، ص146

[2] تاريخ الإسلام في الهند، ص381

بهذه القوانين من الإنجليز والهندوس، واستولوا على أموال الأوقاف التي كان ينفق منها على التعليم ومراكز العبادة .. واستبعد المسلمون كذلك من المناصب الكبرى، وقد أدت هذه الأوضاع إلى خلق حواجز ضخمة بين الإنجليز والمسلمين بوجه خاص"[1].

هكذا بدأ الإنجليز اضطهاداً مكثفاً للمسلمين فأقصوهم إقصاءً شاملاً عن كل وظائف الدولة التي كانوا يشغلون عدداً كبيراً منها، وجهدوا في تقويض كل أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية .. بإصدار بعض القرارات بين الحين والآخر بسلب أموال المسلمين ومراكزهم ونفوذهم، فانتشرت الفوضى والفق، وظهر الانحلال الخلقي بعد الاحتلال، وكان المسلمون ضحية لهذا الوضع حيث عانوا ضروب القهر والهوان، وأصبحوا يعيشون في عزلة تامة فرضتها عليهم الأوضاع المستجدة.

يتميز المسلمون الهنود بخاصية المحافظة على الآداب والعادات والتقاليد والقيم الإسلامية، التي تظهر في معاملاتهم وأخلاقهم وطيب معاشرتهم، وخفة ذوقهم وبشاشتهم والتي سجّلها الزائرون للهند في انطباعتهم عنها وعن أهلها من المسلمين، فهم لا ينفكون عن طبيعتهم المحافظة هذه في هذا المجتمع الوثني صاحب الطبائع الجاهلية ويرونها دليل إسلامهم وبرهان تميزهم.

يؤكد الشيخ أبو الحسن الندوي على هذه الأصالة الخلقية بقوله: "إن المسلمين مع امتزاجهم بالعنصر الهندي وتأثرهم الواسع العميق بطبيعة البلاد وشعوبها وثقافتها الذي نوّه به "جوستاف لوبون" في كتابه "حضارة الهند" لا يزالون شعباً ممتازاً في أخلاقه وطبيعته واتجاهاته ومنهج حياته، وعاداته التي أصبحت طابعاً يتميز به المسلم في كل ناحية من نواحي الهند[2].

ويتجلى لزوّار الهند هذا الامتياز في مختلف نواحي الحياة، وفي مختلف مظاهر المدنية، وفي الأخلاق والنزعات، يضرب الشيخ الندوي مثالاً على ذلك قائلا: "إذا كنت ضيفاً عند صديق لك مسلم – وليس من اللازم أن تسبق بينكما معرفة أو تقوم بينكما صداقة – فالمسلم أخو المسلم، والمسلم الغريب ضيف أخيه المسلم المقيم، قدمت إليك مائدة واسعة فيها أوان كبيرة وصحون واسعة – بخلاف الطريقة الهندية القديمة – أو أرغفة كبيرة، وكمية

[1] موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، 323/8

[2] المسلمون في الهند، ص 154

من الطعام كبيرة، تفضل عن الضيوف ويجتمع عليها الضيوف وتختلف أيديهم في الصحون إن أحبّوا ذلك، فالقلب واسع، والبيت واسع والمائدة واسعة، وتجرّب ذلك في كل بقعة من بقاع الهند، وفي كل أسرة إسلامية ... وإذا أراد واحد من المسلمين أن يأكل في القطار أو في غرفة الانتظار، لا بد أن يدعوك إلى الطعام ويلحّ عليك[1]، حتى إن هذه الأخلاق الكريمة استرعت نظر كثير من غير المسلمين الغرباء عن الهند، فدخلوا في الإسلام لشدة ما رأوه من فارق بين مجتمعين متلاصقين، وبين سلوك وأخلاق كل منهما، خُلق وسلوك ممتاز، وآخر منحط سافل.

خاتمة:

يتجمل التاريخ بما بذله المسلمون الهنود وعلماؤهم من الجهود في مقاومة الاحتلال الكافر، وإثارة روح العزة في نفوس المسلمين في شبه القارة الهندية.

وهنا لا يفوتنا أن نشير إلى أنه ليس كل ذوي الرأي والنظر من المسلمين كانوا يرون ضرورة التقسيم، واستقلال المسلمين بدولة، بل هناك اتجاه آخر يرى أضراراً وخطورة على المسلمين في التقسيم.

وبعد أن دخلت البلاد في حوزة الإنجليز وزالت دولة المغول في عام 1857م، تضاءل نفوذ المسلمين في الهند، ولجأ الإنجليز إلى اتخاذ وسائل عديدة لضرب مواقع المسلمين، وإخماد حماسهم الديني بالقوة والحيل والمكائد ووسائل القمع والإرهاب المختلفة، فقتلوا آلافاً من العلماء الأبرار المجاهدين، ونفوا عدداً كثيراً منهم ـ وألغوا جميع المدارس الدينية التي ظلت منارة العلوم والمعارف طوال العصور الإسلامية، واقتصر التعليم الديني على تخريج أئمة المساجد فقط.

وهذا جعل المسلمين يفكرون في بناء معاقل الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية، والعلوم الشرعية، وتخريج العلماء والدعاة والمرشدين من هذه المعاقل التي سمّيت بعدُ بالمدارس العربية.

---

[1] المصدر نفسه، ص 155

إن الشعب الإسلامي الهندي ممتاز في كثير من أخلاقه وعاداته وخصائصه رغم انحطاط عظيم أصيب به هذا الشعب تبعاً للأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية، ورغم تطور عظيم حدث في الحضارة والقيم الخلقية.

المصادر والمراجع

1. مسعود، الندوى: نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند والباكستان، المطبعة السلفية، القاهرة، سنة 1372هـ
2. أحمد الجوارنة، الدكتور: الهند في ظل السيادة الإسلامية، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية،الأردن، 2006م
3. أبو الحسن، الندوي: المسلمون في الهند، المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الهند، الطبعة الثالثة، 1407هـ-1987م
4. أبو الحسن، الندوي: أضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية، المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الهند، 1995م
5. أبو الحسن، الندوى: روائع إقبال، دار القلم، الكويت، الطبعة الرابعة، 1418هـ - 1998م
6. محمد عبد القادر محمد سليمان: أحوال المسلمين في الهند (1947م – 1997م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد الدراسات والبحوث الآسيوية، جامعة الزقازيق، مصر
7. أحمد شلبي، الدكتور: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، اسم المطبع لم يذكر، القاهرة، 1983م
8. وحيد الدين خان: تجديد علوم الدين (ترجمة: ظفر الإسلام خان)، دار الصحوة، الطبعة الأولى، 1986م
9. وحيد الدين خان: الإسلام والعصر الحديث (ترجمة: ظفر الإسلام خان)، دار النفائس، بيروت، الطبعة الرابعة، 1992م

10. سمير عبد الحميد إبراهيم، الدكتور: اللغة العربية وقضية التنمية اللغوية في الباكستان، دار المعارف، القاهرة، 1982م

11. رياض السيد عاشور: جهود الشيخ أبي الحسن الندوي في الدعوة الإسلامية، تفاصيل المطبع لم تذكر

12. محمد الرابع، الحسني، الندوي: الثقافة الإسلامية والواقع المعاصر، دار الصحوة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1410هـ-1990م

13. ستانلى هبرت: محمد علي جناح مؤسس الباكستان (ترجمة: دميل زكار)، دار قتيبة، دمشق، 1998م

14. اشتياق حسين، القرشي: سيرة ميلاد أمة (ترجمة: د. خليل جواد)، اسم المطبع لم يذكر، دمشق، 1996م

15. جاويد إقبال: زنده رود (النهر الخالد)، باللغة الأردية، اسم المطبع لم يذكر، لاهور ، الباكستان، 2000م

16. ول ديورانت: قصة الحضارة (الهند وجيرانها)، ترجمة: الدكتور نجيب محمود، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957م

17. جواهر لال نهرو: الترجمة الذاتية (An Autobiography)، اسم المطبع لم يذكر، الهند، 1977م

18. حسن، القادري، الدكتور: داستان تاريخ أردو، باللغة الأردية، اسم المطبع لم يذكر، لاهور، الباكستان، 1950م

19. محمد إسماعيل، الندوي، الدكتور: تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1985م

20. محمد حسن صالح، الدكتور: تاريخ الشرق العربي الحديث، دار الوزان، المعادي، القاهرة

21. علي حسنو: فلسفة إقبال، دار السؤال، دمشق، 1415هـ-1985م

الجمل

- الشيخ بدر جمال الإصلاحي

مسكن الإبل: الجمل جمعه الجمال، وجماعته الإبل. والإبل توجد في الصحراء في أرض قفرة تراكمت عليها الرمال المحرقة التي لا ينبت فيها حبّ ولا ينمو فيها بقل وعشب. تجفّ الآبار في حرارة القيظ وتبخل بالماء على بعد قاعها. وهي الأرض المستوية في لين وغلظ دون القفّ. مناخها شديد الجفاف، وسمّيت الصحراء بالصحراء لأنها اتسعت، يقال: أَصحر المكان: اتسع، وقيل سمّيت الصحراء للونها الأصحر أي الأحمر إلى الغبرة.

توجد الإبل العربية الواحدة السنام في الهند وإيران والعراق وجزيرة العرب والشام ومصر وغيرها من البلاد. ومهدها الأصلي صحراء الربع الخالي في المملكة العربية السعودية بين نجد والإحساء، من أكبر مناطق العالم الرملية، التي تمتدّ إلى صحراء الدهناء إلى النفوذ، ويقال لها أيضاً صحراء الأحقاف.

الإبل (بكسر الباء، وقد تسكن للتخفيف): الجمال، وكلمة الإبل اسم واحد يقع على الجمع، وليس يجمع ولا اسم جمع، إنما هو دالّ على الجنس، كذا قاله ابن سيده. وقال الجوهري: ليس لها واحد من لفظها، وهي مؤنثة لأن أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كانت لغير الآدميين، فالتأنيث لها لازم؟ وإذا صغرتها أدخلت عليها الهاء فقلت أبيلة وغنيمة ونحو ذلك. والجمع آبال، والنسبة إبَليّ (بفتح الباء)[1]. وجاء في الحديث: عن عروة البارقي أن النبي قال: الإبل عزّ لأهلها"[2].

ويقال للإبل: بنات الليل. والشارف: الناقة المسنة وجمعها شرف. والعوامل: الإبل ذوات السنامين.

---

[1] حياة الحيوان الكبرى، 27/1

[2] سنن ابن ماجة في التجارات: 69

وليس شيء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه إذ يسوء خلقه ويظهر زبده ورغائه، فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته جمل، يقلّ أكله ويخرج الشقشقة وهي الجلدة الحمراء التي يخرجها من جوفه وينفخ فيها، فتظهر من شدقه لا يعرف ما هي.

والفحل لا ينزو إلا مرة واحدة في السنة، ويطول فيها مكثه وينزل فيها مراراً كثيرة، ولذلك يشعر بعد الفتور والضعف والأنثى تلقح إذا مضت عليها ثلاث سنوات ولذلك يسمّونها "حقّة" لأنها استحقت مقتضيات البلوغ[1].

وفي طبع الجمل، الحقد والصبر والصولة وهي تستطيب الأشجار التي لها الأشواك وتهضمها أمعاؤها[2].

والعرب كانوا يعتقدون أنه إذا أصاب الإبل القرّ يشفى العليل بكيّ السليم[3]. وتوجد في بعض الأمكنة بجزيرة العرب إبل في حال الوحش. يقال إنها من بقايا إبل عاد وثمود.

والإبل أنواع كثيرة منها:

1. الأرحبية: هي إبل منسوبة إلى بني أرحب، وهي من إبل اليمن.
2. والشذقمية: هي إبل منسوبة إلى شذقم.
3. والمهرية: هي إبل منسوبة إلى مهرة بن حيدان، والجمع المهارى.
4. والشدنية: هي إبل منسوبة إلى محل أو بلد

وللإبل ألقاب منها:

1. العيس: وهي الشديدة الصلبة القوية
2. والشملال: وهي الخفيفة
3. واليعملة: وهي التي تعمل

---

[1] حياة الحيوان الكبرى، 27/1

[2] المصدر نفسه، 29

[3] تاريخ دول العرب والإسلام، 40/1

4. والوجناء: وهي الشديدة القوية
5. والناجية: وهي السريعة
6. والعوجاء: وهي الضامرة
7. والشمردلة: وهي الطويلة
8. والجان: وهي الكريمة
9. والكوماء: (بضمّ الكاف) وهي الناقة العظيمة السنام
10. والحرف: وهي الناقة الضامرة
11. والقوداء: هي الطويلة العنق
12. الشمليل: هي السريعة
13. مهجّنة: هي إبل كرام هجان

قال كعب بن زهير:

حرف أبوها أخوها من مهجّنة وعمّها خالها قوداء شمليل

14. الناضح: البعير الذي يستقى عليه، سمّي بذلك لأنه ينضح الماء، أي يصبر والأنثى ناضحة وسانية، والجمع نواضح[1].

وللإبل امتيازات عديدة منها:

إنها حيوان عظيم الجثة، سريع الانقياد، ينهض ويبرك وهو حامل حملاً ثقيلاً. تمسك فارة صغيرة، زمامه فتذهب به حيث شاءت، وخلقته عجيبة[2]. قال الله تعالى: أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت".

[1] حياة الحيوان الكبرى، 28/1

[2] المصدر نفسه، ص 27

وكانوا يمدحون الجمل لصبره وتحمّله كما يحكى أن بعض العرب وقف على قبر عامر بن الطفيل بن مالك العامري فقال يرثيه: كنت لا تفتل حتى يضلّ النجم، ولا تهاب حتى يهاب السيف، ولا تعطش حتى يعطش البعير"[1].

وقال محمد طلعت حرب: إن للعرب حمية وقناعة وصبراً كإبلهم" وقال في مكان آخر: وفي خلق الإبل لهم نعمة كبرى، فهم يعيشون من ألبانها ولحومها ويرتادون المسارح بها"[2].

وكان من خرافات العرب ومعتقداتهم بالنسبة للإبل: الرتمية: وهي إذا مات أحدهم عقلوا ناقة عند قبره حتى تموت ويزعمون أنه إذا بعث ركبها. التفقئة والتعمية: وهي أن الرجل إذا بلغت إبله ألفاً قلع عين الفحل ويزعمون أن ذلك يدفع عنها العين فإذا زادت على الألف فقأ عينه الأخرى. وكانوا إذا أصيب الإبل بالجرب أو بالعرّ يكوون السليمة ويزعمون أن ذلك يبريء السقيمة[3].

الجمل: الذكر من الإبل، قال الفرّاء: هو زوج الناقة وجمع الجمل: جمال وأجمال وجمائل وجمالات. قال الله تعالى: كأنهم جمالات صفر".

قال أكثر المفسّرين هو جمع جمالات على تصحيح البناء كرجال ورجالات.

وإنما يسمّى البعير جملاً إذا بلغ أربعاً. والجمل نوعان: الجمل الأعرابي والجمل البختي.

كان اسم الجمل الذي ركبته عائشة يوم وقعة الجمل عسكراً، اشتراه لها يعلى بن أمية بأربعمائة درهم. قال الله تعالى: حتى يلج الجمل في سمّ الخياط" فأراد به الحيوان المعروف لأنه أعظم الحيوانات المتداولة للإنسان جثة فلا يلج إلا في باب واسع، كأنه قال: لا يدخلون الجنة أبداً.

وكنية الجمل: أبو أيوب وأبو صفوان.

---

[1] تاريخ دول العرب والإسلام، 40/1

[2] المصدر نفسه، ص 38

[3] المصدر نفسه، ص 71

وجاء في الحديث الشريف: رواه ابن ماجة في المقدمة: 6 وعليكم بالطاعة وإن كان عبداً حبشياً فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيّد انقاد".

والأنف: الجمل المخزوم الذي لا يمتنع عن قائده، وقيل: الأنف الذلول.

ويروى كالجمل الآنف (بالمدّ) وهو بمعناه.

جمل البحر: سمكة طولها ثلاثون ذراعاً، كذا قاله ابن سيده.

وفي حديث أبي عبيدة أنه أذن في أكل حجل البحر، وهو سمك شبيه بالجمل (Whale).

حجل الماء: البجع وهو الحوصل (Palicane).

حجل اليهود: الحرباء.

وصوت الإبل: هدير وهدْر وتهدار (وبابه ضرب) وتهدير.

يقال هدَر البعيرُ أو هدّر، إذا ردّد صوته في حنجرته[1].

الأمثال: قالوا: الجمل من جوفه يجترّ" يضرب لمن يأكل من كسبه أو ينتفع بشيء يعود عليه من ضرر.

وقالوا: أخلف من بول الجمل" وهو من الخلف لا من الخلاف، لأنه يبول إلى خلف.

وقالوا: وقع القوم في سلي جمل" يضرب لمن بلغ في الشدة منتهى غاياتها كما قالوا: بلغ السكين العظم" وذلك أن الجمل لا يكون له سلي، فأرادوا أنهم وقعوا في أمر صعب.

والسلي: الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد من المواشي، إن نزعت عن الفصيل ساعة ما يولد إلا قتلته.

[1] المنجد (الإبل)

وقالوا: الثمر على البئر وعلى ظهر الجمل" وأصله أن منادياً كان في الجاهلية، يقف على أطم من آطام المدينة حين يدرك التمر، ينادي بذلك أي من سقى ماء البئر على ظهر الجمل بالسانية وجد عاقبة سقيه في تمره.

وقالوا: لا ناقتي فيها ولا جملي".

البعير سمّي بعيراً لأنه يبعر، يقال: بعر البعير بفتح العين فيهما بعراً بإسكان العين كذبح يذبح ذبحاً، قاله ابن السكيت وهو اسم على الذكر والأنثى، وهو من الإبل بمنزلة الإنسان من الناس، فالجمل بمنزلة الرجل، والناقة بمنزلة المرأة، والقعود بمنزلة الفتى، والقلوص بمنزلة الجاية. وحكي عن بعض العرب: صرعتني بعيري، أي ناقتي، وشربت من لبن بعيري. وإنما يقال بعيراً إذا أجذع والجمع: البعرة وأباعرة وبعران.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ولمن جاء به حمل بعير" أراد بالبعير الحمار لأن بعض العرب يقول للحمار بعيراً وهذا شاذّ.

الناقـــــــــــة

الناقة: الأنثى من الإبل، قال الجوهري: الناقة تقديرها فعلة بالتحريك لأنها جمعت على نوق مثل بدنة وبدن وخشبة وخشب، وفعلة بالتسكين لا تجمع على ذلك وقد جمعت في القلة على أنوق. ثم استثقلوا الضمة على الواو فقدّموها فقالوا أونق. ثم عوّضوا من الواو ياءً فقالوا أينق ثم جمعوها على أيانق. وقد تجمع الناقة على يناق مثل ثمرة وثمار إلا أن الواو صارت ياءً لكسرة قبلها وأنشد أبو زيد للقلاح بن حزن:

أبعدكنّ الله من يناق إن لم تنجين من الوثاق

وبعير منوق أي مذلّل مروّض، وناقة منوقة وكنية الناقة: أمّ بوّ وأمّ هائل وأمّ حوار وأمّ السقب وأمّ مسعود. ويقال لها بنت الفحل وبنت الفلاة وبنت النحائب[1].

[1] حياة الحيوان الكبرى، 230/2

(نوقٌ، ن) نقّى الشحم من اللحم.

(تنويق) نوّق: ذلّل الجملَ وأحسن رياضته. و ـــ النخل: لقّحه. و ـــ الشيءَ: صفّفه وطرّقه

(إيناق) آنق الشيء فلاناً: أعجبه

(تنوّق وتنيّق) تنوّق وتنيّق في ملبسه أو مطعمه أو أموره: تجوّد فيها (كتنأنّق) كان ذلك مشتقاً من الناقة التي عندهم من أحسن أموالهم.

(استنواق) استنوق الجملُ: تشبّه بالناقة ومنه المثل: استنوق الجمل" وهو يضرب للرجل الذي يكون في حديث ثم يخلطه بغيره. ويسمّون الأنثى من الإبل بالناقة لارتفاع خلقها.

(النيّقة) اسم من التنوّق، ومنه المثل "خرقاء ذات نيّقة" يضرب للجاهل بالأمر وهو مع جهله يدعي المعرفة به ويتأنّق في الإرادة.

(السقب) ولد الناقة والجمع أسقب وسقوب وأسقبان والأنثى سقبة وأمها مسقب ومسقاب، وقيل السقب الذكر من ولد الناقة وقيل هو سقْبٌ ساعة تضعه أمه، قال الأصمعي: إذا وضعت الناقة ولدها فولدها ساعة تضعه سليل، قبل أن يعلم أ ذكر هو أم أنثى، فإذا عُلِمَ فإن كان ذكراً فهو سقب وإن كان أنثى فهي حائل.

قالوا في المثل: أذلّ من السقبان بين الحلائب" أرادوا بالحلائب جمع حلوبة وهي التي تحلب.

(الحوار): ولد الناقة ولا يزال حواراً حتى يفصل عن أمه فإذا فصل عن أمّه فهو فصيل، وثلاثة أحورة والكثير حيران وحوران أيضاً، والأنثى بالهاء.

(العير) بالكسر: الإبل التي تحمل الميرة، يجوز أن تجمعه على عيرات وفي الحديث أنهم كانوا يترصدون عيرات قريش. قال الله تعالى: واسأل القرية التي كنّا فيها والعير التي أقبلنا فيها"[1].

(البوّ) غير مهموز: الحُوار، وقيل جلده يحشى طيناً أو ثماماً أو حشيشاً لتعطف عليه الناقة إذا مات ولدها، ثم يقرّب إلى أمّ الفصيل لترأمه فتدرّ عليه والبوّ أيضاً: ولد الناقة، قال:

[1] المصدر نفسه، 231/2

فما أمّ بوّها لك بتنوّقه إذا ذكرته آخر الليل حنّت[1]

القلوص من النوق: الشابّة وهي بمنزلة الجارية من النساء وجمعها قلائص مثل قدوم وقدائم.

قال الراجز:

متى تقول القلص الرواسما يحملن أم قاسم وقاسما

وقال العددي: القلوص أوّل ما يركب من إناث الإبل أي أن تثنى فإذا أثنت فهي ناقة.

روى ابن المبارك في الزهد والرقائق عن القاسم مولى معاوية، قال أقبل أعرابي إلى النبيّ على قلوص له صعب فسلّم فجعل كلما دنا إلى النبي ليسأله نفر به القلوص، وجعل أصحاب النبي يضحكون ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل: يا رسول الله! إن الأعرابي قتله قلوصه حين صرعه فقال: نعم وأفواهكم ملأى بدمه" كذا رواه ابن المبارك مرسلاً، وهو في الإحياء في الآفة العاشرة من آفات اللسان"[2].

(الحائل): الأنثى من ولد الناقة لأنه إذا نتج ووقع عليه اسم تذكير أو تأنيث فإن الذكر سقبٌ والأنثى حائل، يقال "نُتِجتْ الناقة حائلاً حسنة" ويقال: لا أفعل ذلك ما أرزمت أمّ حائل" ويقال لولد الناقة ساعة تلقيه من بطنها إذا كانت أنثى حائل، وأمّها: أمّ حائل، قال:

مثلك التي لا يبرح القلبَ حبُّها ولا ذكرُها، ما أرزمت أمّ حائل

والجمع حوّل وحوائل.

(البدنة) من الإبل والبقر: كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة، والذكر والأنثى في ذلك سواء. وقال الجوهري: البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة سمّيت بذلك لأنهم كانوا يسمّنونها،

[1] لسان العرب (إبل)

[2] حياة الحيوان الكبرى، 350/2

والجمع: بدُن وبدْن، ولا يقال في الجمع بَدَن" وإن كانوا قد قالوا خشب وأجم ورخم وأكم، واستثناه اللحياني من هذه.

وقال أبو بكر في قولهم "قد ساق بدَنة": يجوز أن تكون سمّيت بدنة لعظمها وضخامتها، ويقال: سمّيت لسمنها".

البدنه بالهاء: تقع على الناقة والبقرة والبعير الذكر مما يجوز في الهدي والأضاحي وهي بالبدن أشبه، ولا تقع على الشاة، سمّيت بدنة لعظمها وسمنها وجمعُ البدنة البُدْن وفي التنزيل: والبدن جعلناها لكم من شعائر الله".

قال الزجاج: بدنة وبدن: إنما سمّيت بدنة لأنها تبدن أي تسمن.

وفي حديث الشعبي: قيل له أن أهل العراق يقولون إذا أعتق الرجل أمته ثم تزوّجها كان كمن يركب بدنته أي من أعتق أمته فقد جعلها محرّرة لله فهي بمنزلة البدنة التي تهدى إلى بيت الله في الحج فلا تركب إلا عن ضرورة، فإذا تزوّج أمته المعتقة كان كمن قد ركب بدنته المهداة.

(الحوش) بلاد الجن من وراء رمل سيرين، لا يمرّ بها أحدٌ من الناس وقيل: هم حيّ من الجنّ. وأنشد لروبة:

إليك سارت من بلاد الحوش.

والحوش والحوشية إبل الجنّ، وقيل هي الإبل المتوحشة، قال أبو الهيثم: (الحوشي) النعم المتوحشة، ويقال إن الإبل الحوشية منسوبة إلى الحوش وهي فحول جن، تزعم العرب أنها ضربت في نعم بعضهم فنسبت إليها.

(النعم) واحد الأنعام وهي المال الراعية[1].

[1] لسان العرب (إبل)

قال ابن سيده: النَعَم: الإبل والشاء يذكر ويؤنث والنَعْمُ لغة فيه والجمع أنعام وجمع الجمع: أناعيم.

قال ابن الأعراب: النعم، الإبل خاصة والأنعام: الإبل والبقر والغنم. قال الله تعالى: والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام".

وقال تعالى: وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه".

قال الفرّاء: الأنعام ههنا بمعنى النعم، والنعم تذكر وتؤنث، ولذلك قال الله تعالى مما في بطونه.

والعرب إذا أفردت النعم لم يريدوا بها إلا الإبل، فإذا قالوا الأنعام أرادوا بها الإبل والبقر والغنم[1].

إبل مهرية: هي التي تنسب إلى مهرة[2] بن حيدان والجمع مهاري ومهارٍ ومهارى، مخفّفة الياء. قال روبة:

به تمطّت غول كل ميله بنا حرابيج المهارى النفه[3]

(العيس) الإبل تضرب إلى الصفرة، رواه ابن الأعرابي وحده وفي حديث طهفه: ترتعي بنا العيس، هي الإبل البيض مع شقرة يسيرة واحدها أيس وعيساء، ومنه حديث سواد بن قارب:

وشدّها العيس بأحراسها

قال الجوهري: العيس بالكسر جمع أعيس وعيساء: الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة واحدها أعيس والأنثى عيساء.

العيس: ماء الفحل، قال طرفة:

---

[1] المصدر نفسه

[2] مهرة بن حيدان أبو قبيلة وهم حيّ عظيم

[3] لسان العرب (إبل)

سأحلب عيساً صحن سمّ

قال: والعيس يقتل لأنه أخبث السمّ

وقيل: العيس ضراب الفحل. عاس الفحل الناقة يعيسها عيساً: ضربه.

العيس والعيسة: بياض يخالطه شيء من شفرة.

وقيل هو لون أبيض مشربٌ صفاءً في ظلمة خفية وهي فعلة على قياس الصهبة والكمثة لأنه ليس في الألوان فعلة، وإنما كسرت لتصح الياء، كبيض[1].

الجمال الصهابية: الجمال المنسوبة إلى موضع الصهاب التي ليست بشديدة البياض.

وأسماء الإبل الأصيلة كثيرة منها: ضبعان وعرفان وشعلان وغزلان وأمّ طويلع وأمّ رموش والخطة.

ويقال لمن عمره ستة أشهر ويرضع أمه: حوار ولمن عمره سنة ويأكل ويشرب: مخلول، ولمن عمره من سنة إلى سنتين: مفرود، ولمن عمره من سنتين إلى ثلاثة وبدأ يحمل الأثقال: حِقّ (بكسر الحاء) ولمن كان عمره أربع سنوات: جِذع (بكسر الجيم). ولمن عمره من خمس إلى ست سنوات وبدل الزوج الأول من أسنانه: ثني، ولمن بدل الزوج الثاني من قواطع أسنانه: رباع، ولمن بدّل الزوج الثالث من قواطع أسنانه: سراس، والناقة التي وضعت أكثر من خمس مرات وتعتبر كبيرة العمر يقال لها الناقة الفاطر.

الجمل الباختري ذو السنامين (Bactrian Camel): يكون أكبر من البعير ذي السنام الواحد، انضمت أصابعه فيما بينها فتكوّنت قدماً واسعاً ويكون ذيله أطول من ذنب ذي السنام الواحد وتكون أرجله أقصر من أرجل ذي السنام الواحد، وتوجد في صحراء غوبي الإبل ذات السنامين ترعى حرة من براش الإنسان وقيده وتعوّدت العيش في الصحراء جائعة ظمآنة بدون الغذاء والماء صابرة على الجوع والعطش إلى الأسابيع وتكابد برد الصحراء

[1] المصدر نفسه، (إبل)

القارس وحرارتها المحرقة وتقتات النباتات الشائكة، وتستعمل وقت الحاجة شحم سنامها عندما لا يتيسّر لها الغذاء في أيام الجدب والقحط[1].

والجمال ذو السنامين يعيش في المناطق الباردة مثل روسيا: كالميكيا وغيرها. يتميّز هذا الجمل بأن له سنامين يساعدانه على تخزين أكبر قدر من الدهون والغذاء لتحمّل البرد، ويبلغ طول رأسه وجسمه حوالي 3 أمتار وارتفاع كتفيه[2] يبلغ مترين، ويزن حوالي 700 كلغ، أقدامه عريضة. وله ما يشبه اللحية على حلقه، معطفه طويل. يزاد مع لونه بين البنى الغامق والبنى الفاقع.

ويعيش ضمن جماعات يتراوح عددها بين 6 و20 جملاً، يقودها أكبر ذكر في المجموعة، يمكنه تحمل درجات الحرارة المنخفضة. تلد أنثاه جملاً واحداً بعد فترة حمل تدوم 13 شهراً، وبعد ثلاث سنوات يصبح راشداً حتى يكتمل تمام نموه في السنة الخامسة.

ويتعرض هذا الجمل للانقراض حالياً، إذ لا يوجد منه سوى أعداد قليلة جداً، حيث لم يعد يتواجد إلا عدد قليل من الرؤوس بين 800 و1000 رأس، يعيش في الصحراء الكبرى في آسيا نحو أدق منغوليا، حيث الشتاء بارد والصيف ساخن.

يعيش كقطيع يتغذى على الحشائش وأوراق الشجر، والشجيرات. إنه يتبلع كل يوم ما بين 10 و20 كيلوغراماً من النباتات.

وخلال موسم التزاوج الذي يمتدّ من فبراير إلى أبريل تكون الذكور غالباً ما عنيفة. تصل الذكور إلى النضج الجنسي في حوالي خمس إلى ست سنوات والإناث تصل إلى النضج الجنسي في ثلاث أو أربع سنوات، وتضع الأنثى صغيراً واحداً في كل سنتين بعد مدة حمل تصل إلى 13 شهراً.

---

[1] جامع أردو إنسائكلوبيديا، (المجلد السادس الخاص بالعلوم الجديدة)

[2] موقع الإبل على الإنترنت

ويوجد هذا النوع من الإبل في الصين وخراسان وتركستان وآسيا الوسطى وموطنها الأصلي صحراء غوبي (Gobi) الباردة وهي صحراء منغوليا في آسيا الوسطى بين منشومها وسائيبريا.

الطبر: ركن الجبل، الجمل ذو السنامين الهائج، الفالج جمعه فوالج: الجمل ذو السنامين سمّي بذلك لأن سنامه نصفان[1].

الفلج والفالج: البعير ذو السنامين وهو الذي بين البختي والعربي، سمّي بذلك لأن سنامه نصفان والجمع الفوالج، وفي الصحاح: الفالج: الجمل الضخم ذو السنامين يحمل من السند للفحلة ويقال له الهائج وفي الحديث: إن فالجاً تروى في بئر، هو البعير ذو السنامين سمّي بذلك لأن سناميه يختلف ميلهما[2] ويقال له أيضاً الجمل الجرثومي.

البخت: هذا نوع من الإبل، معرّب، وبعضهم يقول هو عربي. الواحد الذكر بختي والأنثى بختية وجمعه بخاتي. والبخاتي: جمال طوال الأعناق.

وفي حديث عبد الله بن عمر: أن النبي قال: سيكون في آخر هذه الأمة رجال يركبون على المياشر حتى يأتوا أبواب مساجدهم، نساؤهم كاسيات، عاريات على رؤوسهنّ كاسمة "البخت" العجاف، العنوهنّ فإنهن ملعونات"[3].

والبختي هجين من البعير العربي الوحيد السنام والبعير الباختري ذو السنامين وهو منسوب إلى ملك بابل بخت نصر (605-662) أي بنو خذنصر لأنه أنشأه واخترع إنتاجه هكذا.

الجمل العربي الوحيد السنام (Dromedary Camel): يوجد في آسيا وإفريقيا وهو أكبر الحيوان بعد الفيل والزرافة، وأذناه صغيرتان، وظهره محدّب وأقدامه محشوة، وعنقه وأرجله طويلة، وجسمه مفتول مكتنز صلب قوي، وذيله طويل، ويبلغ قدّه إلى سبعة أو ثمانية أقدام، ووزنه طن واحد.

---

[1] المنجد (إبل)

[2] لسان العرب (إبل)

[3] المختار من كتاب حياة الحيوان الكبرى، ص 47

وبنيته توافق بيئة الصحراء، يوجد له سنام كبير مشتمل على الشحم الزائد لمكافحة الجوع والعطش، وتكون معدته أسفنجية يجمع فيها قدر كبير من الماء لوقت الحاجة، ويكون لونه رمادياً أو بنيّاً كلون الرمل ويقطع كل يوم نحو خمسة وأربعين كلومتراً حاملاً على ظهره نحو ثلاثمائة كلغ، فلذلك يلقّب بسفينة الصحراء، وينقسم إلى نوعين (1) الجمل العربي الوحيد السنام (Single-humped أو Dromedary Camel أو Camelus Dromedarius) (2) الجمل الباختري ذو النامين (Double-humped أو Camelus Bactrianus أو Bactrian Camel).

الجمل أو سفينة الصحراء[1] يعتبر من أصناف الجمال العديدة وتنتمي إلى نفس الجنس البيولوجي. هذا الجمل الذي كان يتواجد منذ 50 مليون سنة وكان موجوداً في القرن الإفريقي في عهد ما قبل التاريخ حيث تم العثور على أسنانه في كل من إثيوبيا والصومال وجيبوتي.

ويتواجد الجمل العربي في 35 بلداً مثل الهند وتركيا وكينيا وباكستان والقرن الإفريقي وغيرها بالإضافة إلى الشرق الأوسط كما أنه يتواجد في 18 بلداً في إفريقيا منها دول شمال إفريقيا من المغرب في الغرب إلى مصر في الشرق بالإضافة إلى دول القرن الإفريقي من الصومال وإثيوبيا وجيبوتي، وقد انتشر خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين في مناطق أخرى مثل أمريكا الشمالية وإستراليا وأمريكا الجنوبية. وفي فترة التزاوج يتميّز هذا الحيوان بالعدوانية، وفقدان الشهية والوزن والإسهال والإفراط في اللعاب. والتزاوج يستمرّ من 11 إلى 15 دقيقة من 3 إلى 4 مرات في اليوم الواحد. واليوم يستفاد من الجمل في الحليب وإنتاج اللحوم، وكذلك وعالم الرياضة في شبه الجزيرة العربية حيث تنضمّ هناك عدة مسابقات للجمال.

[1] جامع أردو إنسائكلوبيديا، المصدر نفسه

الجمل هو الحيوان الأليف الوحيد الذي استطاع بعناده وصلابته على السير بجبروت وبتبختر فوق رمال الصحاري، غير عابيء بالرماح العاتية التي تذرو الرياح في الأعين وتنقل أكواماً منها معها، تكفي لدفن الجمل ومن عليه، ومع ذلك فإن هذا الحيوان الصبور العنيد لم يتوفق أيضاً في تحطيم جبروت البوادي في كل مكان، فظنّ بعضها أرضاً حراماً عليه وعلى السابلة، تحطم من يريد التجاوز عليها والاعتداء على استقلالها، بأن تميته عطشاً، فتفتح ذرات رملها الناعم، وعندئذ تغوص قوائم الجمل فيها، فيبقى في مكانه حتى ينفق.

والجمل هو أيضاً من أقدم الحيوانات التي سمعنا بها عند سكّان الصحارى وأعزّها.

وقد صوّر في النصوص الآشورية، عند ذكر معركة (فرقر) ومعارك أخرى، وقعت بين العرب والآشوريين. وطبيعي أن يقرن الجمل بالبادية، وأن يجعل رمزاً لها، فليس لحيوان آخر القدرة على اجتياز البوادي واختراقها، وتحمل مشقاتها وعطشها مثل الجمل ثم إنه مركب سكّان الصحاري، يحملهم ويحمل تجارتهم وماءهم وهو مموّنهم بالوبر لصنع البيوت حتى قيل للأعراب (أهل الوبر) ومنه يصنعون أكسية عديدة، ولبن الإبل هو لبن أهل البادية، وإذا احتاجوا ذبحوا الجمل فأكلوه وأفادوا من جلده.

والجمل ثروة، والثري في البادية هو من يملك عدداً كبيراً من الجمل وتقدر ثروته بقدر ما يملكه منها. وقد كان الجمل مقام النقد، أي مقام الدينار والدرهم في الغالب، فبعدد من الإبل يقدّر مهر الفتاة، وبعدد من الإبل تفض الديات والخصومات. وهكذا يتعامل به كما نتعامل اليوم بالنقود.

ويرى العلماء أن الإنسان ذلّل الجمل حتى صيّره أليفاً مطيعاً له في الألف الثانية قبل الميلاد[1]. وقد ذهب بعضهم إلى أن العربية الشرقية كانت الموطن الذي ذلّل فيه هذا الحيوان في الشرق الأدنى، استدلّوا على ذلك بإطلاق العراقيين القدماء على الجمل اسم (حمار البحر)، وقالوا: إن قصدهم من (البحر) الخليج، وإن لفظة (الجمل) (جملو) (كملوا) في

[1] From the Stone Age to Christianity، ص 107 و120

(الأكادية) إنما وردت من بادية الشام، ومعظم سكّان البادية هم من العرب، وقد كانوا يستعملون الجمل استعمال الناس للسيارات ولوسائل الركوب في هذا الزمن. وقد استعملوه في الألف الثانية قبل الميلاد، فدخوله من البوادي إلى العراق دليل على أن العرب كانوا قد استخدموه أولاً، ومنهم انتقل إلى العراق والبلاد الأخرى[1].

ويرى (ألبريت) أن البداوة الحقيقية على نحو ما نعرفها اليوم من السكنى في البوادي والتنقل فيها من مكان إلى مكان، لم تظهر في جزيرة العرب إلا في أواخر النصف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد. وذلك بتذليل الإنسان للجمل، وبترويضه له لخدمة أغراضه، ففتح له بذلك أبواب البوادي، وتمكن من التوغل فيها، واجتيازها بفضل جمله خادمه المطيع. أما ما قبل الجمل فقد كان العربي لا يستطيع اجتياز البوادي واختراقها لأن حماره الذي كان واسطة الركوب عنده لا يتحمّل ولوج البادية، ولا يستطيع أن يعيش فيها وأن يصبر عن شرب الماء أو الأكل صبر الجمل، لذلك كان عرب الجزيرة في الألف الثانية وقبل وقت تذليل الجمل رعاة في الغالب، وسائط ركوبهم الحمير، ولم يكونوا قد طرقوا البوادي أو توغلوا فيها توغل العرب أصحاب الوبر فيما بعد[2].

فالجمل إذن هو الذي فتح لأهل جزيرة العرب آفاق البوادي، ووسّع البداوة عندهم، حتى جعلها عالماً خاصاً يقابل عالم الحضارة في الجزيرة وهو الذي صار أهمّ واسطة لنقل الأموال بالطرق البرية الطويلة التي تربط أجزاء الجزيرة بعضها ببعض، وتربط طرق الجزيرة مع الطرق الخارجية. وبفضل الجمل القادر على تحمّل العطش والصبر على الجوع وعلى تحمّل الصعاب صار في إمكان العرب التنقل إلى مسافات بعيدة من الجزيرة وحمل أثقاله معه فاستخدام العرب له هو في الواقع ثورة كبرى في ذلك العهد بالنسبة إلى وسائط النقل والحمل وفي عالم التجارة والاقتصاد. ومن حق العربي إذاما عبّر عن الغنى أن يعبّر بكثرة ما عند الإنسان من إبل.

---

[1] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 198/1

[2] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

وقد عرف الجمل بوجود غريزة الانتقام فيه، وبعدم نسيانه أذى من يؤذيه، لذلك زعم أنه يبقى حاقداً على المسيء إليه حتى ينتقم منه ولو بعد زمن طويل. ويظن أن لتفسير اشتقاق اسمه دخلاً في ظهور هذه الفكرة، فقد فسّرت لفظة الجمل بأنها من فعل (كمل) (جمل) (كامل) (جامل)، أي انتقم مع أنها تعني (حمل) أيضاً. وقالوا إن معنى الجمل (المنتقم)، وقالوا: إنه سمّي بذلك لأنه منتقم، ومن ثم وصف (أرسطو) و(أريان) الجمل بأنه حيوان لا ينسى الأذى، سريع النتقام، وقد يكون لأقوالهما ولأقوال غيرهما في الجمل دخل في تكوّن هذه الفكرة عنه عند الناس حتى اليوم[1].

ويغار الجمل على إناثه فهو لا يسمح لأحد برؤيته أثناء التزاوج مع أنثاه وإن أحسّ بوجود من يتجسّس عليه ورآه فإنه يعرضه بقتل ذلك الشخص.

الجمل المعروف في جزيرة العرب هو الجمل ذو السنام الواحد، وهناك نوع من الجمال يقال للواحد منها (الهجين)، وهو الجمل المضرب، ويكون أصغر حجماً من الجمل العربي الأصيل إلا أنه أسرع عدواً منه[2].

وقد عدّ الجمل عند العهرانيين من موارد الثروة والغنى كذلك، ولذا عُدّ (أيوب) من أغنياء زمانه لأنه كان يملك ألفي جمل، وعدّ (المديانيون[3]) وهم من العرب، أغنياء، لأنهم كانوا يملكون عدداً كبيراً من الجمال[4].

وللجمل في العربية أسماء كثيرة، أما في العبرية وفي اللغات السامية الأخرى فلا نجد فيها مثل هذه الكثرة ويقال للجمل (كمل) و(بكرة) ويرادف (كمل) الجمل. أما بكرة فهو الجمل الصغير.

والجمل من أقدم الحيوانات المذكورة في التوراة، وذكر أنه كان لإبراهيم عددٌ كبيرٌ من الجمال[1].

---

[1] قاموس الكتاب المقدّس، 338/1

[2] المصدر نفسه، ص 139

[3] هم أهل مدين

[4] القضاة، الأصحاح السابع، 12

والناس كانوا يستعملون الجمال منذ أربعة آلاف سنة تقريباً[2] كما جاء في النصوص السامية القديمة:

كما ورد في سفر التكوين ص 27 عدد 25: وإذا قافلة إسماعليين مقبلة من ضلعاد، وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا، ذاهبين لينزلوا بها مصر"[3].

وخطب حكيم العرب قسّ بن ساعدة في سوق عكاظ وهو على جمل له أحمر: أيها الناس اجتمعوا وعوا، إن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت ---"[4].

كان في خلق الإبل للبدو نعمة كبرى، فهم يعيشون من ألبانها ولحومها، ويرتادون المسارح بها، ويتطلبون المرعى والكلأ لها، ولا يزالون في حل وترحال في طلب العشب وابتغاء المياه.

وجاء في القرآن الكريم في سورة يوسف (رقم الآية: 19):

"وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه، قال يبشرى هذا غلام، وأسرّوه بضاعة والله عليم بما يعملون".

وأيضاً: قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة[5] إن كنتم فاعلين" (سورة يوسف: 10)

وجاء في نفس السورة (رقم الآية: 65):

---

[1] Hastings، 344/1

[2] المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 198/1

[3] تاريخ دول العرب والإسلام، 114/1

[4] المصدر نفسه، ص 85

[5] والسيارة جمعها السيارات: القافلة، وأصلها القوم يسيرون وهو من سار البعير وسرته وسارت الدابة وسارها صاحبها، يتعدّى ولا يتعدّى. والقطار من الإبل جمعها قطر وقطرات: قطعة منها. القطارة: أن تشدّ الإبل على نسق واحداً خلف آخر ومنه حديث عمارة "أنه مرّ بـ قطارة جمال (المعجم).

"قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردّت إلينا، وغير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير".

وفي الآية السبعين في نفس السورة: "ثم أذّن مؤذن أيها العير أنتم لسارقون".

وفي الآية الثانية والسبعين في نفس السورة: "ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم".

وفي الآية الرابعة والثمانين في نفس السورة:

"وسئل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ----".

وجاء في الآية الرابعة والتسعين في نفس السورة:

"ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا تفنّدون".

لقد أدهشت الملكة السبئية (بلقيس) سليمان حين جاءت مع قافلة كبيرة من الجمال تحمل هدايا وألطافاً من أثمن المواد الثمينة بالقياس إلى ذلك العهد[1].

وجاء في التوراة عن تجار سبأ وعن قوافل السبئيين التي كانت تأتي بالذهب وباللبان وبأفخر أنواع الطيب إلى فلسطين، وذلك في أيام سليمان وقبل أيامه أيضاً، وجب رجع زمان هذه القوافل إذن إلى الألف الثانية قبل الميلاد، وذلك لأن زيارة الملكة (ملكة سبأ) لسليمان كانت في حوالي السنة (950).[2]

الجمل هو حيوان من رتبة شفعيات الأصابع من فصيلة الجمليات يشتهر بالكتلة الدهنية على ظهره التي تحمي السنام، وهو على نوعين:

(1) الجمل العربي أو الجمل الوحيد السنام، ويعيش بمناطق شمال إفريقيا والصحراء الكبرى والشرق الأوسط.

(2) الجمل الباختري أو الجمل ذو السنامين، ويعيش في منطقة آسيا الوسطى.

---

[1] Discoveries، ص 35

[2] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

وقد يطلق مصطلح الجمل على أشباه الجمال من فصيلة الجمليات وهي تعيش في أميركا الجنوبية وهي على أربعة أنواع: (1) اللاما (2) الألبكة (3) الغوناق (4) الفيكونيا.

متوسط مامول الحياة للجمل هو 30 إلى 40 سنة وطول الجمل الكامل النمو هو 1.85م عند الأكتاف و2.15 عند السنام، يرتفع السنام لحوالي 76 سم عن الجسم وتصل سرعة الإبل إلى 65 كيلومتراً في ساعة ويمكنها أن تستمرّ على سرعة 40 كم في ساعة.

والجمل حيوان سريع الانقياد وينهض بالحمل الثقيل ويبرك به.

تدلّ الحفريات على أن أجداد الجمال الحالية نمت في أمريكا الشمالية أثناء الفترة الباليوجينية، ثم انتشرت فيما بعد في معظم أجزاء آسيا، وقد استأنس الإنسان الجمال قبل 2000 قبل الميلاد.

التصنيف العلمي للجمل:

المملكة: حيوانات

الشعبية: حبليات

الطائفة: ثدييات

الرتبة: شفعيات الأصابع

الفصيلة: جمليات

أدوات زينة الإبل: الرحل: هو السرج الذي يوضع على الناقة ليجلس عليه الراكب.

الوضين: يثبت الرحل على الناقة باستخدام حبل أو رباط مما كان متاحاً من الموادّ كالصوف أو الشعر وينسج نسجاً.

الخطام: هو المقود الذي يقاد به البعير وهو ما وضع في أنف البعير ليقاد به.

الغبيط: هو الهودج الذي يجعل على ظهر البعير فوق الرحل ويقصد منه أن تجلس فيه المرأة وهي في ستر، وقد يسمّى هذا الغبيط بالظعائن والظعن وهذا مشهور في الشعر.

الرجازة: وهي شعر أو صوف يعلق على الهودج في خيوط يزين.

النخيرة: نسيجة طويلة يكون عرضها شبراً، وعظمة ذراع تعلق على الهودج يزين بها.

ألفاظ الإبل التي وردت في القرآن الكريم

الإبل: قد ورد لفظ الإبل في القرآن العزيز في عدة مواضع (ومن الإبل اثنين، الأنعام: 144) و(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، الغاشية: 17)

الناقة: ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في سبعة مواضع، مرتين في سورة الأعراف، ومرة واحدة في كلّ من سور هود، والإسراء، والشعراء، والقمر، والشمس، وكلها تشير إلى ناقة النبي صالح.

العير: قد وردت لفظة العير في سورة يوسف ثلاث مرات.

البدن: والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير" (سورة الحج: 36)

الجمل: ورد لفظ الجمل مرة واحدة في قوله تعالى: لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط، وكذلك نجزي المجرمين، الأعراف: 40"

الهيم: جاء هذا اللفظ مرة واحدة في القرآن الكريم، فقال تعالى: فشاربون شرب الهيم" (الواقعة: 55). قال جمهور المفسّرين وأهل اللغة: الهيم من الإبل: العطاش.

البعير: جاء ذكره في سورة يوسف فحسب، قال تعالى: ولمن جاء حمل بعير" (رقم الآية: 72)

الأنعام: قال الله تعالى: والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، النحل: 5".

البحيرة والسائبة والوصيلة والحام: قال الله تعالى: ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون، سورة المائدة: 103"

العشار: وقال تعالى: وإذا العشار عطّلت، التكوير: 4".

التكيّف مع الطبيعة: تكيّف الجمل على أكل الأشواك والعاقول وكذلك تكيّفت معدته. أما السنام فهو المكان الطبعي لتخزين الدهون المتحوّلة من فائض غذائه، ولكن لا يخزن الجمل الماء في السنام كما هو الاعتقاد الشائع.

كذلك تكيّفت عيون الجمل للروية مع وجود الغبار، وأرجله بها أخفاف مناسبة للسير على الرمال بما لها من مساحة سطحية واسعة.

للجمل قدرة عجيبة على تحمّل المعيشة في الصحراء حيث ارتفاع درجة الحرارة وقلة الماء والغذاء، ومن قدرة الله عزّ وجل أن جعل الجمل ذا أذن صغيرة غزير الشعر حتى لا تتعرض لضرر رمال الصحراء، والعين مزوّدة بصفين من الرعوش الطويلة للوقاية من الحصى والرمال المتطايرة. والأرجل مزوّدة بخف أسفنجي ليّن ليتمكّن بهما من السير على الرمال الناعمة، والسنام يختزن فيه الدهون ليقوم بحرقها خلال عملية التنفس حيث تتحوّل الدهون إلى طاقة تمدّه باحتياجاته في فترة الحرمان من الطعام.

الجمل العربي الوحيد السنام ضخم ويعيش في الوطن العربي وإفريقيا وشبه القارة الهندية، وإيران وغيرها.

ومن فصيلة الجمل أربعة حيوانات توجد في أمريكا الجنوبية، وموطنه الأصلي كان أمريكا الشمالية ومن هناك جات إلى أمريكا الجنوبية.

بعض حيوانات أمريكا

والحيوانات؛ اللاما والألبكة والغوناق والفيكونيا، تنتمي إلى فصيلة الجمال وهذه الحيوانات تعيش في أمريكا الجنوبية.

اللاما (Lama): حيوان اللاما يعيش في أمريكا الجنوبية في جبال الإنديز (Andes): سلسلة الجبال المرتفعة في جنوب أمريكا على شاطئ المحيط الهاديء، في كل من أكوادور، وبيرو، وبوليفيا، وشيلي، وشمال غرب، كما يمكن أن تتواجد في أمريكا الشمالية وأوربا وأستراليا.

صفات اللاما: طول اللاما من 109 إلى 119 سم إلى مستوى الظهر ومن 120 إلى 225 سم إلى فوق الرأس، ووزنه يتراوح بين 130 إلى 155 كلغ، وله صوف كثيف يستفيد منه البشر في صناعات مختلفة. إن قام أحد بمشاكسة اللاما فيقوم ببصق المقابل في وجهه بخليط من الطعام النصف مهضوم من معدته، ومادة البصق لها حموضة عالية نسبياً لأن مصدرها المعدة، وهذه المادة الهضمية الخارجة من معدة اللاما هي نفسها المادة التي يخرجها الجمل عندما يعطش وهو يخزنها في سنامه، أما اللاما فهو يخرجها من معدته.

اللاما حيوان له شعر كثيف ورقبة طويلة ويشبه الجمل الصغير، ولكن ليس له سنام.

حيوان اللاما أكبر عضو في عائلة الجمال بأمريكا الجنوبية واللاما مثل الألبكة، القريب الأصغر للاما.

وهو حيوان مستأنس ينحدر من حيوان الغوناق والقريب الري الآخر الوحيد للاما فهو حيوان الفكونة. أما شعر اللاما الكثيف الطويل فلونه إما بني أو أصفر أو برتقالي أو رمادي أو أبيض أو أسود.

وتضع أنثى اللاما مولوداً واحداً كل مرة ومدة حملها تتراوح ما بين 11 و12 شهراً.

ولحيوان اللاما فائدة كبيرة حيث يستطيع بصفة عامة أن يحمل حتى 90 كلغ ويسير بأقدام ثابتة في الممرات الجبلية كما أنه يستطيع أن يسير لأكثر من 30 كم في اليوم الواحد بحمولة كاملة. وإذا شعر اللاما بثقل الحمل أو بالتعب فإنه يستلقي على الأرض ويأبى التحرك وعندما يغضب أو يتعرض للهجوم يبصق بلعاب كريه الرائحة في وجه عدوّه.

واللاما حيوان مفيد للسكان الأصليين بجبال الإنديز في أمريكا الشمالية وعندما قدم الغزاة الأسبان إلى هذه المنطقة في القرن السادس عشر الميلادي استخدموا حوالي 300000 من

حيوانات اللاما لنقل الفضة من المناجم، ولا يزال السكّان الأصليّون يستخدمون اللاما لنقل البضائع كما أنهم يأكلون لحمها ويصنعون الملابس من شعرها والصنادل من جلودها.

وتربية اللاما غير مكلّفة حيث أنها حيوانات شديدة التحمل، تعيش على الشجيرات الفقيرة ونباتات الأشته وغيرها من النباتات التي تنمو في الجبال المرتفعة، ويستطيع حيوان اللاما أن يعيش بعدة أسابيع بدون ماء، ويستعيض عنه بالنباتات الخضراء التي تمدّه بما يحتاج إليه من ترطيب.

الألبكة (Alpaca): هو حيوان ثديي ذو حافر مدجن شبه مستأنس من فصيلة الحمليات يعيش في أعلى جبال الإنديز بأمريكا الجنوبية، يشبه اللاما الصغيرة.

يتم الاحتفاظ بالألبكة في القطعان التي ترعى في مرتفعات جبال الإنديز في جنوب بيرو وبوليفيا الشمالية والأكوادور وشمال شيلي على ارتفاع 11500 قدم إلى 16000 قدم، فوق مستوى سطح البحر وعلى مدار السنة، الألبكة هي أصغر بكثير من اللاما، وعلى عكس حيوانات اللاما، لم تربَّ على أن تكون الحيوانات من العبء ولكن تربى من أجل صوفها، ويستخدم الأليكة للألياف لصنع سلع منسوجة على غرار الصوف وتلك البنود تشمل البطاطين والشرات والقبقات والأوشحة وتشكيلة واسعة من الأقمشة والعباءات في أمريكا الجنوبية والبلوذات والجوارب والمعاطف وأغطية الفراش في أجزاء أخرى من العالم. الألياف تأتي أكثر من 52 لوناً طبيعياً كما صنعت في بيرو و12 حسب تصنيف في أستراليا و16 حسب تصنيف في الولايات المتحدة.

يستخدم شعب الموش في بيرو صور الألبكة في فنونهم، ولم تعرف الألبكة تعيش في البرية، ويعتقد أن الفيكونيا هي الجدابري للألبكة على الرغم من أن الألبكة أكبر من الفيكونيا ويعتبران من فصيلة الحمليات، وتربى الألبكة على وجه الحصر لأجل اللحوم والألياف فقط لصغرها على أن تستخدم مثل باقي الحيوانات.

واعتبرت الألبكة طعاماً شهياً من قبل سكّان الإنديز حيث استعملوا لحم الألبكة كطعام لهم.

سلوك الألبكة: الألبكة من أكثر الحيوانات الاجتماعية حيث تعيش في قطعان أو مجموعات عائلية، والألبكة تحذّر القطيع من الأخطار عن طريق استنشاق صاخب، يمكن للقطيع مهاجمة أصغر الحيوانات المفترسة باستخدام قدميه الأماميتين عن طريق أكله أو بالبصق عليه.

البصق: لا تقوم الألبكة بالبصق ولكن كلهن قادرات على ذلك، ويكون البصق لطيفاً إلى حدّ ما. في بعض الأحيان يكون البصق عبارة عن قذيفة من الهواء فقط وقليلاً من اللعاب، ويمكن أن يكون البصق بما في محتويات المعدة من أمزجة عشبية ومحتويات خضراء، تقوم الألبكة بتصويبها على الهدف الذي من الممكن أن يكون إنساناً، الألبكة تخرج المواد المراد بصقها ما يسمّى بالفم الحامض (Sour Mouth) وسبب بصق تلك الأحماض هي وجود ما في المعدة التي يعتبر تذوّقها غير سارّ.

النظافة: يتخلص الألبكة من الفضلات في مكان واحد حيث توجد كومة به فضلات القطيع، هذا السلوك يميل إلى الحدّ من انتشار الطفيليات الداخلية، عموماً يكون الذكور أكثر ترتيباً من ذلك، وتكون كمية فضلاتها أقلّ من كمية فضلات الإناث، والتي تميل للوقوف في صف، ويذهب كل في آن واحد، ويبدأ في التبوّل أو التبرّز وبقية القطيع غالباً ما يلي[1].

الغوناق (Guanaco): الغوناق يعتبر صنفاً فرعياً من "اللاما"، إنه ظلّ حيواناً برياً لم يستأنس، من فصيلة الحمليات، يعيش في أمريكا الجنوبية.

يصل وزن الإناث إلى 75 كلغ والذكور 100 كلغ بقياسات تتفاوت بين 1.07 و1.22 متراً.

[1] موقع الإبل على الإنترنت

الفيكونيا (Vicuna): حيوان ثديي من جبال أمريكا الجنوبية، وهو من أقرباء اللاما، يعتبر من الحيوانات المهمة بالنسبة للسكان المحليين بسبب جودة صوفه.

تسمّى هذه العادة "التشاكو" وهي تكرّر كل سنتين ليتمكن الفرو من النمو، يتمّ الصيد فيها عن طريق حشر حيوانات الفيكونيا بين شبّاك على شكل حرف "V" وتسمّى بشبّاك الماتجا طبعاً بعد خطة عبقرية من أهالي تلك المنطقة يشترك بهذه العادة الصغار والكبار بعد أن يتمكنوا من محاصرة الفيكونيا تربط وتؤخذ طبقة كثيفة، ويتركوا ما يدفيها فقط، ثم يطلقوها حرة، ليعودوا إليها بعد سنتين[1].

المصادر والمراجع

1. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، سنة الطبع لم تذكر
2. جامع أردو إنسائكلوبيديا، الهيئة الوطنية لترويج اللغة الأردوية، دلهي، الهند، تفاصيل الطبع لم تذكر
3. جواد علي، الدكتور: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1976م
4. سنن ابن ماجة،
5. طلحت حرب: تاريخ دول العرب والإسلام، مطبعة مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، سنة الطبع لم تذكر
6. عدد من المؤلفين: المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة العشرون، دار المشرق، بيروت، لبنان
7. قاموس الكتاب المقدّس، تفاصيل الطبع لم تذكر
8. كمال الدين الدميري: حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م

[1] المورد الإنكليزي-العربي

9. محمد صادق: المختار من كتاب حياة الحيوان الكبرى، تفاصيل الطبع لم تذكر
10. منير البعلبكي: المورد الإنكليزي-العربي، دار العلم للملايين، بيروت، سنة الطبع لم تذكر
11. و. ف. ألبرايت: From the Stone Age to Christianity (من العهد الحجري حتى العهد الميلادي)، تفاصيل الطبع لم تذكر

قراءة في كتاب:-

"مشاهدات في الهند"، دراسة نقدية

-د. أورنك زيب الأعظمي

منذ فجر تاريخها جذبت الهند أنظار السيّاح فالتجّار فالغزاة وذلك لأجل ثراثها وخصبها فيكثر فيها من المعادن ما يقلّ في غيرها من البلاد وهي تخصب للعديد من الأنبتة الثمينة المحتاج إليها في الحياة، وزدْ عليها ما لم تزل تنتجه أبناؤها من الأسباب والآلات المفيدة بكل المناسبات. هذه وأمثالها لم تزل تسترعي عناية الأجانب بها وبأبنائها وبما قدّموه من الإنتاجات الرائعة.

وباختلاف النيّات عدداً ومحتوًى فقد ضبظ معظم من توجّه نحوها ووطّأتها قدماه، ما شهدوه من نوادرها أو ما رأوه من عادات أبنائها وتقاليدهم أو ما اشتروه من روائع منتوجاتها. نجد ذكر هذه كلها في مذكّرات السيّاح الأجانب فمنهم من أثنى عليها ومنهم من قام بالنقد عليها ومنهم من بين بين فأنصف في البيان واقتصد في التحليل ولم يكذب في النقد والغربال. والسيّاح العرب لهم قصب السبق في هذا المجال ولهم الحظّ الأوفر في الحمد والمدح والإطراء، فكتّابهم بجانب شعرائهم يثنون على وطننا وما قدّمته أسلافنا من أسباب العيش وتسهيلات المعاش.

ومن بين تلك الشعراء والكتّاب العرب نجد اسماً لكاتبة مصرية لم تزر الهند لأجل زيارة معالمها بل للحضور في واحد من مؤتمراتها فجذبت أنظارها معالمنا التاريخية وسحرت قلبها عادات أبنائها وبناتها وما تميّزوا به من الآراء والأفكار فقيّدت انطباعاتها ونشرتها باسم "مشاهدات في الهند"، وهي مذكرة تتعلق بالهند قبل الاستقلال، الهند التي كانت تضمّ إلى بلادها مناطق الباكستان وبنغلاديش. إن هذه مذكرة لكاتبة ليست متعصبة لدينها بل لها

عين مقتصدة وذهن منطلق وقلب يحبّ الإنسانية فمذكرتها ثبتت دراسة نقدية موضوعية لكاتبة مثقفة مسلمة عن بلد يسكنه أغلبية الهندوس. لنقرأ في الأسطر التالية ما ضبطته مما شهدته من المعالم والتقاليد وما قارنته من الأشياء المتواجدة والمتفقدة بين البلدين؛ الهند ومصر.

الموجز عن حياة الكاتبة: هي أمينة السعيد (1914-1995م) ولدت بالقاهرة وتعلّمت اللغة الإنجليزية في مدرسة شبرا، ثم التحقت بالجامعة على مشورة والدها وتخرّجت في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول. إنها كانت أول من شجّع البنات المصريات على ممارسة الألعاب الرياضية. وارتدت الشورت وهي تلعب التنس في ساحة الجامعة، وخلعت غطاء الرأس ولكنها تحرص دائماً على كرامة الفتاة المصرية في التعليم الجامعي. وخلال فترة الدراسة كان زميلها في الجامعة "مصطفى أمين" قدّمها إلى "محمد التابعي" الصحفي المعروف وقت ذلك، فقدّمت له بعض القصص الاجتماعية وقدّمها زميلها "محمد فتحي" إلى الإذاعة لتعمل بالقطعة تترجم بعض القصص من الإنجليزية وتلقيها بصوتها في الميكروفون. وكان خطيبها يذهب بها إلى مشاويرها ويعود بها إلى بيتها. وهكذا فتح لها "مصطفى أمين" أبواب الصحافة وفتح لها "محمد فتحي" أبواب الإذاعة وفتح الله لها أبواب الزواج.

تخرّجت أمينة ووجدت فرصتها في "دار الهلال" وفي مجلة "المصور" بدأت بباب "اسألوني" الذي لازمها وعرفت به. تردّ على أسئلة القرّاء وعرفت بسهولة العبارة وصفاء الأسلوب وعذوبة النفس والروح بكل ما تكتب. وأصبحت أوّل كاتبة بعد "باحثة البادية" تهتم بالشؤون الاجتماعية اهتماماً شخصياً متصلاً بالحياة العامة. وهكذا دخلت "أمينة السعيد" الصحافة من باب "اسألوني" وزادت الألفة بينها وبين الصحافة وبين دار الهلال، ترأست تحرير مجلة "حواء" كما ترأست تحرير مجلة "المصور" وترأست مجلس إدارة "دار الهلال"، وكانت أوّل صحافية مصرية تزور الولايات الأمريكية المتحدة والاتحاد السوفيتي بحكم عملها الصحفي. وأصبحت وكيلة نقابة الصحفيين وعضواً بالمجلس الأعلى للصحافة. وبعد الإحالة إلى المعاش أصبحت مستشارة لـ"دار الهلال" وعضواً بالمجالس القومية المتخصصة، وعضواً بمجلس الشورى لدورتين. وكان من الطبيعي أن تهتم "أمينة السعيد" بالنشاط النسائي، ووجدت من قائدة النشاط النسائي في مصر "هدى شعراوي"

التقدير والتشجيع وعاونتها في القيام برحلات مختلفة إلى الخارج كانت أهمّها "الرحلة إلى الهند" وكانت ثمرة تلك الرحلة كتابها المهم "مشاهدات في الهند". ومن الكتب التي صدرت لها كتاب "وحي العزلة" و"أوراق الخريف".

وأصبحت أمينة السعيد رائدة ثورية في مجال الفكر الاجتماعي بصفة عامة، وفي مجال التطور النسائي بصفة خاصة. وكانت ترى أن الزوجة بلا كرامة والزوجة المحرومة من السعادة هي امرأة في إجازة عن العطاء وعن المشاركة في بناء الوطن. ولم تكن في تحرير بابها الشهير "اسألوني" مجرد محرّرة تتلقى الرسائل وتقوم بالردّ عليها، ولكنها كانت تشعر بمسئوليتها إزاء حلّ مشكلات القرّاء والقارئات. تقوم بالاتصالات الشخصية والتحقق من المشكلات.

ولم أرَ قلماً أكثر حدة من قلمها ولا صوتاً أعلى من صوتها عندما أطلت فتنة بهذا الوطن العزيز. امتشقت قلمها وارتفع صوتها ضد التطرف والمتطرفين مؤكدة وحدة هذا الشعب العظيم. وقالت إن المتطرفين والمتعصبين يعملون على تقسيم الشعب وفي الوقت ذاته يعملون على تقسيم المصريين إلى رجال ونساء بدعوى التقوى المزعومة وينصبون أنفسهم لتحديد الحلال من الحرام، ويزعمون أنهم قوّامون على الدين والدين الصحيح منهم براء. وأعادت إلى الذاكرة أصواتاً ارتفعت في وجهها عندما كانت طالبة بالجامعة وشاركت في ندوة عن مسرحية أمير الشعراء "أحمد شوقي" – مجنون ليلى – خرجت الأصوات تقول: "وداعاً للحياء" لأن فتاة جامعية شاركت في الحديث عن مجنون ليلى. كانت "أمينة السعيد" من أكثر النساء طلباً لحقوق المرأة وكان لأسلوبها وجرأتها في اقتحام الموضوعات أثرٌ هائلٌ في تشكيل الكيان الاجتماعي، وتحرير المرأة من العادات والتقاليد المتوارثة.

الحافز على زيارتها للهند: ولو أن الرحلة إلى بلد أجنبي لا سيما البلاد القاسية صعبة للغاية بل هي دائماً مثل السقر وأن الكاتبة لم تكن تعرف عن البلد المزار إلا قليلاً ولكنها كابدت هذه المشقة ووطّأت نفسها ولو بعد عناد على أن تزور هذا البلد الذي هو تاج البلاد وأمّ الدول. تقول الكاتبة نفسها عن رحلتها وكيف هي ارتضت نفسها بعدما جحدت:

"--- فليس من المعقول أن ينتقل إنسانٌ من قارة إلى قارة وقد خلّف وراءه الوطن والأهل والأحباب دون حافز قوي يضطره إلى ذلك. ولكن أ كان حافزي قوياً أيضاً؟ بالأمس بدا الأمر

ضرورياً حتى أنني قبلت السفر بعد أربع وعشرين ساعة، وارتضيت الرحيل إلى أقصى نواحي المعمورة، ولكن رأيي تغيّر هذا الصباح وأنا أجلس في مقصف المطار أنتظر ساعة الرحيل وبدا الأمر تافهاً لا يستحق المخاطرة، فأنحيت على نفسي باللائمة أن قبلت السفر وحيدة إلى بلد بعيد تفصلنا عنه آلاف الأميال، ولا أعرف عن حياته وشئون شعبه شيئاً. ترى ماذا يكون لو سقطت الطائرة وتحطّمت فحرمت وأولادي رؤية بعضنا بعضاً؟ سيقول الكل: إنها طائشة جريئة تترك أطفالها من أجل مؤتمر نسائي هندي، فاستحقت عقاب الجرأة والطيش"[1].

وتقول عن معرفتها عن الهند وشعبها:

"ولم أكن أعرف إذ ذاك عن الهند قليلاً ولا كثيراً، اللهم إلا ما ترسمه المخيلة من صور غريبة يزينها زخرف المبالغة: فهي بلاد كبيرة بعيدة تضمّ بين جنباتها الواسعة شعباً يركب الأفيال، ويتمرغ في الذهب، ويسكن قصوراً شامخة رصعت جدرانها بالجواهر والأحجار الكريمة ويتزعم هذا الشعب المترف الغني فيلسوف زاهد، لا يرتدي من الثياب إلا قليلها، ويقتات بلبن ماعزة لا تفارقه. ولقد استطاع هذا الناسك المتبتل أن يملك زمام مواطنيه، ويوجههم نحو التحرر بطريقة سلمية عجيبة استعصى فهمها علينا معشر العرب ---"[2].

فكان عهدها بالهند حديثاً كما كانت معلوماتها عنها تافهة فهي لم تكن نفسها ترضى عن زيارة هذا البلد البعيد للغاية.

مدن الهند ومعالمها ورجالها وطبائع أهاليها: ومن خلال زيارتها للهند قامت الكاتبة بوصفها؛ مدنها ومعالمها وطبائع أهلها. فنودّ أن نشير إلى طرف مما أدلت به من الآراء والانطباعات. فهي تقول عن موقع الهند:

---

[1] مشاهدات في الهند لأمينة السعيد، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، أغسطس 1946م، ص 10

[2] المصدر نفسه، ص 12

"موقع الهند فريد، ففيها من مظاهر الطبيعة ما يحميها، ويرد عنها شرّ العدوان، فالمحيط يحوطها من ثلاث جهات، وجبال الهملايا تقف سداً منيعاً في الجبهة الرابعة. والقارة الهندية المنيعة بهذه الحدود الطبيعية مقسمة ثلاثة أقسام: ففي الشمال سلسلة جبال الهملايا أعلى جبال العالم، وفي الجنوب هضبة الدكن، وبين المنطقتين تقع سهول منبسطة ذات خصوبة زراعية لا يستهان بها؛ وقد بلغ المزروع من هذه المنطقة مائة مليون من الأفدنة!"[1].

وتمضي قائلاً:

"وتقوم الهملايا بعمل حيوي عظيم في الزراعة، فهي تمنع الرياح الجافة المنحدرة من وسط آسيا، فيظل جوّ الهند محتملاً مقبولاً. وهي منبع الأنهار الضخمة مثل السند والجنج والبراهما بوترا: فرياح المنسون تحمل أبخرة البحار إلى تلك الجبال، فتتحول إلى أمطار غزيرة تملأ الأنهار بالمياه، فتروى الأراضي، وتنبت غلة وفيرة. وبفضل الهملايا وُجدت بالهند مساقط مياه، تولد الكهرباء المستعملة في الإضاءة ---"[2].

وتضيف قائلة:

"وتمتد بلاد الهند على خطوط عرض مختلفة، ففيها المناطق الاستوائية بغاباتها وزنوجها؛ وفيها الجبال بثلوجها الدائمة، وسكانها الشقر، وفيها السهول بحقولها ومزارعيها الآريين أي أن الهند تحوي أجناساً بشرية مختلفة، وهي ميزة عظيمة؛ لأننا نعلم أن لكل شعب صفاته الخاصة، التي تؤهّله لناحية من نواحي الحياة العملية والاقتصادية"[3].

وبجانب موقعها وجوّها وميزتها السكانية فهي تحدّثت عن مدنها وما تميّزت به وما اتصفت فهي تقول –مثلاً- عن كراتشي:

---

[1] المصدر نفسه، ص 125

[2] المصدر نفسه، ص 125

[3] المصدر نفسه، ص 126

"كراتشي مدينة حديثة لم يمض على إنشائها غير بضع عشرات من السنين، وهي لذلك تعتبر أنظف مدن الهند، وأكثرها نظاماً: فطرقاتها طويلة معبّدة، تقوم على جانبيها مبانٍ صغيرة قليلة الارتفاع، لا تزيد على طبقة أو طبقتين. ويقع حيّ المساكن في ناحية من المدينة، وقد شيّدت فيه منازل بيضاء أنيقة، تحيط بها حدائق واسعة، ولكنها منازل منخفضة، طابعها البساطة في البناء والتأثيث، لأن الحكومة تملك الكثير منها، وتخصّصه لرجال الجيش والموظفين. ويتوّج هذا الحي قصر منيف لأسرة هارون الشهيرة، ولقد بني هذا القصر على الطراز الهندي --- والناحية الأخرى من المدينة تحوي حياً تجارياً عظيماً يقصده الغرباء عقب نزولهم بأرض الهند ---"[1].

وتقول عن دلهي وهي من أعرق مدن العالم وأمنعها:

"لا أظنّ أنني شاهدت مدينة خلقت في نفسي أثراً بليغاً مثل دلهي عاصمة الهند، وسيدة المدن، وقبلة السائحين --- وتعتبر دلهي من أقدم مدن العالم، فقد شيّدت قبل روما، وعرفت قبل عهد الإسكندر، وظلت منذ ذلك الوقت محتفظة بجمالها ورونقها، فلم تنل الدهور المتعاقبة شيئاً من عزتها وجبروتها، ولم تهزّ الأحداث التاريخية سكانها، فقد كانت دلهي أقوى من التاريخ، فوقفت غير عابئة به مهما تقلبت أطواره وتباينت صفحاته --- فهي تمتدّ من الجنوب إلى الشمال، فتقع في مهبّ الرياح الجبلية الطيبة التي تخفّف كثيراً من وطأة صيفها الهندي القائظ؛ فضلاً عن أنها تقوم على مفترق الطرق الهندية العامة، بحيث تستطيع أن تطلّ من برجها الشامخ على أنحاء البلاد المختلفة، فتملك ناصيتها --- ولقد قامت في الماضي محاولات عدة لمحو سلطان دلهي، وإضعاف قوتها، بإنشاء عواصم أخرى في مناطق قريبة، فباءت المحاولات بالخسران، وهبّت عوامل الطبيعة تحمي مجدها القديم، فانتصرت العاصمة التاريخية بعد صراع قصير ---"[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص 24-25

[2] المصدر نفسه، ص 96 وصفحات متتالية

وكذا تكلّمت عن تغلق اباد وحيدراباد وبيوتها وطريق باريس فيها كما تحدّثت عن معالمها فننقل فيما يلي كلامها عن التاج محل فهي تقول:

"ولشاه جهان قصة خلّدته إلى اليوم، فقد كان له زوجة اسمها "ممتاز"، اشتهرت بجمالها الرائع وحسنها الفريد، فتدله الإمبراطور في حبّها، وفضلها على نسائه الأخريات. وماتت ممتاز في أوج شبابها، فحزن زوجها عليها وشيّد لها مقبرة "تاج محل" بمدينة آجرا، وتعتبر هذه المقبرة أعظم قصور الدنيا، فقد بنيت جدرانها بأثمن أنواع المرمر، وزيّنت بالذهب الخالص، ورصعت بالماسات واللآلىء النادرة؛ وهو عمل جديد في البناء لم يعرف من قبل أو من بعد. ويقال إن منظر القصر في ضوء القمر قد ذهب بلبّ بعض الأوروبيين،فاختبلت عقولهم أمام جماله الساحر"[1].

ولكن من العجب أن الإنجليز قد نزعوا هذه اللآلي حينما رجعوا إلى وطنهم هاجرين هذا البلد الجميل بل هذا الطائر من الذهب.

وكذا نطقت أمينة عن حيواناتها ومعادنها ومزارعها فننقل حديثها هذا كما يلي:

"وباختلاف المناطق تختلف الحيوانات أيضاً، فهناك الديبة الثلجية، والفيلة الاستوائية، والسائمة على أنواعها؛ فمن البقر وحده يملك الهنود مائة وثمانين مليوناً وهو ثلث بقر العالم أجمع، ومن الغنم والماعز سبعة وثمانين مليوناً، وهو سبع ما في العالم أيضاً.

والسهول الزراعية واسعة يبلغ المزروع منها مائة مليون فدان، ويمكن مضاعفة هذا القدر بوسائل الريّ الحديثة. وخصب التربة الهندية عظيم، ومناطقها المختلفة تصلح لزراعة أهمّ المحصولات، وهي تغلّ في الوقت الحاضر كميات وفيرة من القمح والأرز وقصب السكر والطباق والقطن والشأي.

[1] المصدر نفسه، ص 108

أما المواد المعدنية فموفورة في الهند، وفي باطن أرضها ما يحتاج إليه سكانها، ويفي بمطالب الصناعة فيها، مهما ارتقت تلك الصناعة واتسعت، بحيث لا يحتاجون معه إلى مزيد؛ ففيها المنجنيز والميكا والفحم والنحاس والبترول والقطران والحديد والمطاط إلى آخره. ويقول الإخصائيون إن باطن الأرض يحوي من الفحم ستين ألف مليون طن، وتقول الإحصائيات إن الهند ثاني دولة في العالم من حيث المنجنيز، وقد بلغ ما استخرج منه عام 1938 أربعمائة واثنين وتسعين ألف طن!

والهند لا تفتقر إلى شيء: فيها مائة مليون فدان من الغابات الاستوائية، قال الخبراء الإنجليز إنها تستطيع أن تمدّ البلاد بمائة مليون طن من الخشب كل سنة، فلا ينال ذلك المقدار شيئاً من عزة الغابات، أو يقلّل من كثافتها"[1].

وهكذا تكلّمت عن ملوكها وسلاطينها وحكّامها وزعمائها البارزة إلا أن معلوماتها خاطفة فيشوبها الوهم فهي تقول عن السلطان أورنجزيب عالمغير:

"وبعد وفاة شاه جهان خرج أورنجزيب يبحث عن أخيه "دارا" ليقتله، ويزيحه من طريقه، فظفر به أخيراً. وتقول كتب التاريخ إن الأخ القاسي وضع "دارا" على حصان وقد اتجه وجهه إلى الذيل، ليكون هذا دليل الذلة والمهانة، وأمر أن يطوف هكذا في جميع أنحاء المدينة، ثم قتله بعد الطواف شرّ قتلة، فبكى الناس أميرهم المحبوب، وحزنوا عليه عهداً طويلاً.

وحكم أورنجزيب بلاد الهند حتى بلغ الواحدة والتسعين من عمره، فكان مصدر الرعب والفزع، ورمز الوحشية المنقطعة النظير، حتى عاش ابنه "باهور شاه" أربعين عاماً وهو يرتجف لمجرد رؤية اسم أبيه مخطوطاً على الورق!"[2].

وتقول عن جواهر لعل نهرو:

---

[1] المصدر نفسه، ص 126-127

[2] المصدر نفسه، ص 110-111

"وجواهر لال نهرو رجل عالي الثقافة؛ قوي الشخصية، حادّ الذكاء، يمتاز عن كثير من زعماء الهندوس بروح متسامح مجدّد كفيل بأن يجعله حاكماً عادلاً عظيماً إذا أطلقت يده؛ ولكن يد جواهر لم تطلق إلى الآن، فهو تلميذ غاندي، وتابعه الأمين؛ وغاندي بالرغم من صفاته الطيبة الكثيرة، متعصب لدينه تعصباً شديداً يحول دون تفاهم الفريقين المتخاصمين.

وجواهر زعيم الهندوس الأول؛ فالشعب يعتبر غاندي الآن أباً روحياً فقط؛ يستمدّ منه الوحي والبركة. أما السياسة والقيادة فالعيون فيها تتطلع إلى جواهر لال"[1].

وبجانب تعصبه لدينه فقد كان غاندي يخفي في صدره ما لم يكن يظهره للناس، وأما جواهر لعل فهو كان يعاكسه في هذا فهو كان من وراء كل ما أصاب المسلمين من مآسٍ ومجازر بعد استقلال الهند.

وبجانب هؤلاء فهي تحدّثت عن محمد علي[2] وغيره من كبار الهند.

الثناء على الهند والهنود: ومن خلال زيارتها للهند ولقائها مع المسلمين والهندوس شهدت أشياء عديدة من الهند سرّتهم كما جرّبت عاداتهم وتقاليدهم فغمرها السرور. فتقول هي مثنية على الهنود:

"ولا شكّ أن الشعب الهندي مجيد نبيل، له من الصفات العظيمة ما يميّزه، وما يكفل له مستقلاً فريداً"[3].

وتقول وهي تثني على أنغام الهند:

"--- ولا يكاد يخلو شريط سينمائي من الغناء والرقص، والغناء في الهند شرقي جميل، تقوم أسسه على الأنغام لا الكلمات. أما الأنغام فخليط من الفارسية والمغولية والهندية،

---

[1] المصدر نفسه، ص 143-144

[2] المصدر نفسه، ص 145

[3] المصدر نفسه، ص 93

والكلمات بدعة مستحدثة، فالغناء الكلاسيكي لا يحوي شيئاً منها، ويقتصر على نغمات يدندن بها المطرب ساعات طوالاً"[1].

وكذلك هي تثني على الرقص الهندي:

"--- والرقص الهندي رائع كل الروعة، ولكن الغريب يحتاج إلى تكرار مشاهدته، حتى يتمكن من تقديره وفهمه. وهو فن دقيق صعب يتطلب مرانة طويلة؛ ولذلك يتعلمونه في الصغر ليتقنوه في الشباب"[2].

وكذا تأثرت الكاتبة بأبنائها وبناتها فهي أطرتها فمثلاً تقول وهي تثني على وجوهها:

"وآذنت الرحلة أخيراً بالانتهاء، وتهادت الطائرة بعد سفر دام يومين، ثم هبطنا عند منتصف الليل على مطار "كراتشي"، وهي أوّل بلاد الهند في طريقنا. واستقبلتنا وجوه هندية سمراء، تضيئ بالذكاء والكبرياء ---"[3].

وتقول وهي تثني على حريتها بعدما ذكرت مثالاً لها:

"هذا مثل واحد من أمثلة كثيرة لليقظة السياسية في الهند، وللوعي الاجتماعي الذي كشف الغشاء عن أعين الهنود، فرأوا ما يروه من قبل، وتبيّنوا مواطن الضعف، فساد التذمر، وعمّت الشكوى، وتردّدت بها الألسن، وأفعمت القلوب برغبة جامحة في التحرر، حتى يصفو الجوّ، وتنطلق أيدي المصلحين في وضع المشروعات التي تعالج العلل الحاضرة، وترفع شأن البلاد"[4].

وتقول وهي تثني على غيرة الرجل الهندي:

---

[1] المصدر نفسه، ص 32

[2] المصدر نفسه، ص 33

[3] المصدر نفسه، ص 17

[4] المصدر نفسه، ص 87

"والحقيقة أن الهندي ليس مستسلماً أو ذليلاً بل هو أبيّ جسور ينشد الحرية، ويتوق إليها كغيره من أبناء الشعوب الأخرى، فإن كان قد خضع واستكان، فقد فعل ذلك مضطراً أمام مشكلات اجتماعية معقدة، شغلت ذهنه عن قضية بلاده"[1].

وكذلك هي تثني على عادتهم للصبر:

"وعلى رمال "كلفتون" يجلس عشرات من بائعي الأصداف يقصدونه كل يوم مبكرين، وينصرفون عنه وقت غروب الشمس. وهؤلاء الباعة مثل صادق للصبر الهندي العجيب، فهم يأتون كل صباح إلى الشاطئ، ويبسطون على رماله قطعة كبيرة من النسيج الأبيض، يغطونها بآلاف الأصداف بعد صفها في أشكال هندسية دقيقة. ويأخذ الصف منهم معظم ساعات النهار، فإذا انتهوا تكون الشمس على وشك الغروب، فيجمعون ما بذلوا الجهد في تنظيمه، ويودعونه حقائهم الخشنة، وينصرفون به إلى بيوتهم، ليعودوا في الصباح التالي، ويبدأوا العمل من جديد"[2].

وكذا هي أثنت على كرمهم وعطفهم قائلة:

"ومن العدل أن أقول: إن الشعور الطيب الذي غمرني به موظفوا المطار، ما هو في الواقع إلا ظاهرة لما جبل عليه الهنود جميعاً من عطف وكرم على إخوانهم الشرقيين، وبخاصة أبناء العروبة. والعجيب أنهم يعرفون عنا أكثر مما نعرف عنهم"[3].

لم تمارس هذا مع الرجال الهنود بل هي أعجبت بنسائها فهي تقول مشيرة إليه:

"وفي الواقع أن نساء الهند ملأن قلبي بالإعجاب، وهن يتوالين على المنصة كل صباح ومساء، فيناقشن أعظم الموضوعات حيوية بحكمة وذكاء وسعة اطلاع؛ فكنت أحسّ في بعض الأحيان أنني أمام عقول جبارة صافية، لا بدّ أن تصل إلى أهدافها عما قريب"[1].

---

[1] المصدر نفسه، ص 83

[2] المصدر نفسه، ص 27-28

[3] المصدر نفسه، ص 19

وكذا هي أثنت على أخوّتهم[2] وعادتهم لاستماع الغناء[3] كما هي خصّت كلامها بذكر عادات أشرافها[4].

نقد على الهند والهنود: من خلال زيارتها للهند مرّت أمينة بالعديد من تقاليد الهند فلم ترضها فقامت بتوجيه النقد إليه فمثلاً هي تقول عن عادة الزواج في الطفولة:

"إن زواج الأطفال كان معروفاً هناك إلى عهد قريب، فكان من حق الوالد أن يزوّج ابنته وهي في السنة الأولى من عمرها لصبي في مثل سنها، ثم يعطيها أهل زوجها، فيحملونها معهم إلى بلدتهم لتنشأ مع قرينها جبناً إلى جنب، فتعتاد أخلاقه، وتألف عادات أسرته. وكان يحدث في كثير من الحالات أن لا يأتلف الطفلان بل يتنافران منذ بادئ الأمر فتصبح حياتهما حياة شقية لا خلاص منها إلا بالموت، وكان يحدث أيضاً أن يموت الزوج الصغير بعد مرض من أمراض الطفولة، فيتحتم على عروسه وهي ما تزال في المهد أن تعيش أرملة إلى الأبد، وأن تتجرع كأساً مريرة من الذل لأنها جلبت الشؤم على البيت فمات الابن بعد دخولها فيه"[5].

ولكن زواج الأطفال قد قلّ معدّله الآن.

وبالعكس من ذلك فقد منعوا الأرملة عن زواجها فهي تقول: "ومنع زواج الأرملة إجحاف بالمرأة الهندية ---"[6].

وتقول كذلك:

"ولكن مشكلة الأرامل لم تحل بعد، فما زال في الهند عدد كبير من "الأرامل البكر" كما يسمّونهن هناك، يعشن عذارى، ويمتن عذارى، مهما بلغ بهن الشباب والجمال"[1].

---

[1] المصدر نفسه، ص 63-64

[2] المصدر نفسه، ص 65

[3] المصدر نفسه، ص 32

[4] المصدر نفسه، ص 31

[5] المصدر نفسه، ص 69-70

[6] المصدر نفسه، ص 69

وهذه وصمة عار على جبين الهند وحتى الآن نشهدها بأعين رؤوسنا.

وبشأن الزواج هي لم ترض عن أداء المهر من قبل البنت فهي تقول:

"ولا تقف آلام الهندوسية عند هذا الحد، بل تتعدّاه إلى تقاليد الزواج، فهي تخطب الرجل، وتمهره مبلغاً من المال يرتفع أن ينخفض تبعاً لارتفاع أو انخفاض مركزه، فلكل رجل ثمن محدّد، قد ينخفض إذا كانت المرأة على نصيب يذكر من الجمال"[2].

ومن هذا الباب يأتي الجهيز وهو عبارة عن أداء أموال جمّة مطلوبة من قبل أسرة الولد في معظم الأحيان وهذا عار على بلد يعمّ فيه فتقول الكاتبة متأسفاً عليه:

"والعادة الشائعة أن يبعث أهل الفتاة رسولاً لخطبة الشاب الذي يختارونه، فتدور المباحثات المالية أولاً، وعليها يتوقف القبول أو الرفض. ويغالي شباب الهندوس في تقدير الصداق مغالاة جعلت من الزواج تجارة رابحة، دفعت ببعض الآباء إلى الانتحار، لعجزهم عن توفير المال اللازم لزواج بناتهم"[3].

ومن خلال احتكاكها بالهندوس إنها انتقدت نيلهم من قدر النساء لاسيما الستي الذي قد ذكرناه في هذا المقال وكذا أنهم متعصبون ديناً فهي تنتقد هذا الجانب منهم قائلة:

"وخدم الفنادق عادة من الهندوس، لأن هذه الطائفة تمثل سواد الشعب. وتقاليدها الدينية تحرم عليها تقبل الطعام أو الشراب من يد لا يعتنق صاحبها هذا الدين، أما الطوائف الأخرى كالمسلمين والمسيحيين والسيخ والبارسي، فلا يدينون بمذهب التفرقة؛ ولا مانع لديهم من أن يخدمهم أيّ كان. وللسبب ذاته أيضاً نجد أن الهندوس لا يقبلون من

---

[1] المصدر نفسه، ص 70

[2] المصدر نفسه، ص 71

[3] المصدر نفسه، ص 72

الخدم في منازلهم إلا من كان هندوسياً مثلهم، أما خدم المسلمين فخليط من جميع الأديان"[1].

وهذه النفسية لم تنمح حتى الآن فأغلبية الهندوس لا تصبر على أن يعيش المسلمون معهم في البلاد.

وليس هذا فحسب بل هي انتقدت على كثرة البقر وعبادتها من قبل الهندوس فهي تقول:

"وأوّل ما يسترعي النظر في كراتشي وفي غيرها من المدن الهندية، كثرة البقر في الطرقات، وما لها من سلطان على الحياة العامة، فصاحبة الجلالة البقرة الهندية تتمتع بتكريم وتبجيل وحرية لا تتوافر لخير أفراد الشعب، وذلك لأن الهندوس يعبدونها، ويعتبرونها أمّ الله، لأنها تدرّ لبناً يهب الحياة للناس ومن أجل هذه المنزلة الرفيعة تجول قطعان البقر في الطرقات كما يحلو لها، فلا يجرؤ أحد على إيذائها أو إبعادها عن طريقه. وقد تقتحم الحوانيت في بعض الأحيان، فإن كان صاحب تلك الحوانيت هندوسياً، تركها تعيث في المكان فساداً؛ أما إذا كان مسلماً، وحاول إخراجها قسراً، قامت معركة دينية حامية بين الطائفتين قد تراق فيها الدماء، وتذهب الأرواح"[2].

ومن هذا الشأن هي تنتقد عبادتهم ومغالاتهم فيها:

"وتقوم الديانة الهندوسية أصلاً على عباد الروح، وتقديسها، ولو كانت لأحقر الحيوانات والحشرات. وتغالي الأقلية المتعصبة في هذا النوع من العبادة، حتى إنهم ليرفضون قتل برغوث أو قملة أو بعوضة، ويتركونها تمتصّ غذاءها من دمائهم، مع علمهم بأنها تحمل ميكروب الطاعون والعيفوس والملاريا الخبيثة!

وللأشجار الكبيرة قدسيتها أيضاً، ولذلك لا يسمح لبستانيّ أن يقطع غصونها أو يشذّ بها، فتنمو على فطرتها، وتتكاثف أغصانها، وتتشابك فروعها مما يعوق المرور في بعض الأحيان.

---

[1] المصدر نفسه، ص 29

[2] المصدر نفسه، ص 34-35

وأذكر عندما غادرت كراتشي للمرة الثانية في طريقي إلى دلهي، أن ذهبت إلى المطار في سيارة ضخمة من سيارات نقل المسافرين، فوصلنا من الطريق إلى منطقة تشابكت لأغصان أشجارها حتى تعذر على السيارة أن تمرّ بسهولة، واقتضى الحال من السائق أن يضاعف قوة المحرك، لينتزع طريقه بين الغصون وارتفع صوت المحرّك، فكاد يصمّ الآذان، وتلته قرقعة الغصون وهي تتحطم، فانزعج الجالسون، وانبرى أحدهم- وكان أجنبياً حضر إلى الهند حديثاً- لتأنيب الضابط الهندوسي المرافق لنا على ترك الأشجار متشابكة هكذا، فنظر الضابط إليه بسخرية وقال: تذكر يا سيدي أنك في الهند، حيث يمكنك إذا أردت أن تقتل رجلاً، ثم تسير آمناً في طريقك؛ ولكنك لن تنجو أبداً إذا ذبحت بقرة، أو قطعت غصناً من هذه الأغصان"[1].

ويبدو منها أن الحياة البشرية أحقر من حياة الحيوان والجماد وهذا عجيب بأن الذي سخّر له هذا الكون يعتبر أحقر منه. فتقول أمينة السعيد:

"ويبدو أن الحياة البشرية في الهند أتفه قيمة من حياة الحيوان والأشياء، وكرامة المشاعل والأعلام، فمن أجل هذه الأشياء يتقاتل الإخوان، ويسفك بعضهم دم بعض"[2].

وتتحدث عن طابع الحزن على الهنود كلهم:

"ولا أظنّ أنني رأيت مكاناً يرفرف عليه روح حزين مثل هذه البلدة، بل مثل الهند كلها، فالحزن طابع الهند الأوّل، تراه مرتسماً على كل وجه وكل بنيان وكل طريق؛ وهي ظاهرة عجيبة تسترعي أنظار الغريب، ولاسيما إذا كان مثلي ينتمي إلى شعب مرح يبسم دائماً حتى للآلام والنكبات!

[1] المصدر نفسه، ص 35-36

[2] المصدر نفسه، ص 37

قد يكون حزن الهند المخيّم وليد قرون متعاقبة من الآلام، وقد يكون طبيعة في الخلق الهندي؛ ولكنه موجود على كل حال، وجذوره متأصلة في المجتمع، وفروعه مختلطة بمواطن الجمال، حتى ليصعب الفصل أو التمييز بينهما"[1].

وقد شهدته أنا في غربي بنغال وبهار بشدة فيبدو أنهم مفطورون على الحزن وسآمة الحياة.

وعندما يحدث هذا فيكثر التسوّل. تقول عن هذا الجانب هذه الكاتبة المصرية:

"كنت أظنّ أن مصر تفوق البلاد الأخرى من حيث عدد المتسوّلين الذين يعيشون فساداً في مجتمعها، ويتجمّعون في طرقاتها تجمّع الذباب، فيسيئون إلى سمعة بلادنا، ويتركون في ذهن السائح صوراً قبيحة، تظلّ إلى الأبد واضحة، حتى ليصغر أمام وضوحها ما قد يراه ذلك السائح من صور مصرية أخرى، لمظاهر عمرانية طيبة، أو آثاراً تاريخية خالدة.

وكنت وما زلت أعتقد أن آفة مصر الكبرى هؤلاء المتسوّلون، الذين ارتضوا الذلة، ولم يقبلوا عنها بديلاً، لأنها تدرّ عليهم أرباحاً عظيمة، دون جهد، ودون مقاومة مذكورة من الشعب والسلطات. وضاعف عددهم تهاون الحكومات وشجّعهم على المضيّ في طريقهم الممقوت، فانتشروا في المدن انتشار الجراد، ليقتحموا كل مكان حتى بيوت الله، ويضطحدوا العباد بلجاجتهم وإلحاحهم، ويمسكوا بتلابيب الناس فلا خلاص إلا بدفع الفدية وهي القرش!

والعجب أن الكثرة الساحقة من متسوّلينا لا تثير رؤيتهم رحمة أو شفقة، فعلى وجوههم سيماء الرذائل التي ينطوون عليها، وعلى أبدانهم الصحيحة دلائل القوة التي تمكّنهم من العمل الشريف، واكتساب الرزق بوسائل غير التسوّل والاستجداء.

ولكن عدد المتسوّلين المصريين تضاءل في ذهني أمام جيوش إخوانهم الهنود، حتى خيّل إليّ أن مصانع التسوّل الأساسية تقوم في تلك البلاد، وما مصر إلا دولة صغيرة تستورد جزءًا يسيراً من منتجات هذه المصانع!

[1] المصدر نفسه، ص 23

وتلفت هذه الظاهرة نظر الغريب هناك، ففي كل طريق أساسي أو فرعي، وفي كل ركن ظاهر أو خفي، يتجمع المتسوّلون الهنود عشرات عشرات، يستجدّون المارة بصلوات ودعوات لا نهاية لها.

ولكن المتسوّلين الهنود يختلفون عن زملائهم المصريين كل الاختلاف، فدلائل البؤس الحقيقي في وجوههم الصفراء الذابلة، وعيونهم التي أعماها الجدرى، وأجسادهم الضامرة النحيلة تنطق بالحرمان والجوع والعرى، مما لا يدع مجالاً للشك في أنهم يقاسون شظف العيش، وضيق ذات اليد"[1].

وكذلك هي تتحدث عن سوءة الطرق الهندية وهي عار لن يرى القضاء عليه في المستقبل القريب:

"ومدينة حيدراباد السند موطن أغنى أغنياء الهند، يخرج التجّار الهنود منها، فينتشرون في جميع أنحاء العالم، ويجمعون الملايين من تجارة التحف والحرير، ومع ذلك فمهد الأغنياء هذا مهمل متأخر إلى درجة لم أر لها مثيلاً في المناطق الأخرى: فالطرقات غير معبّدة، مليئة بالأتربة والأحجار، تقوم على جانبيها قنوات مكشوفة لتصريف المخلفات والمياه القذرة، فتنبعث من تلك القنوات روائح كريهة تفسد الجوّ، وتملؤه بأفواج الذباب"[2].

أمينة وقضايا الهند: الهند ومصر بينهما علاقة وطيدة كما أنهما يتشابهان في كثير من الأشياء والتقاليد. وهذه وتلك قد أجبرتا أمينة السعيد على أن تتحدث عن قضايا الهند الراهنة وكيف لها أن تصون نفسها عن الدمار فهي تقول إن الشيئ الأول الذي يمكن أن يقضي على الهند هو الجهل والأمية:

"والشعب الهندي على اختلاف أجناسه، وتعدّد مواهبه، جاهل أميّ، لا يزيد عدد المتعلمين فيه على سبعة في المائة مع حسن الظن. وتعدد الأديان يقسم ذلك الشعب فرقاً وأشياعاً،

---

[1] المصدر نفسه، ص 115-117

[2] المصدر نفسه، ص 45-46

يهدم بعضها بعضاً، ونار الشقاق بينهم دائماً متأججة، فتشعل المعارك الطائفية أذهانهم، وتصرفهم عن التفكير في التقدّم والإصلاح، ولذلك تموت المواهب، وتنقلب نعمة تعدّد الأجناس إلى نقمة في بلاد الهند"[1].

وتقول في موضع آخر من رحلتها:

"ولقد أخفقت الجهود في التوفيق بين الطرفين، لأن أوجه الخلاف مرجعها الدين، وليست بنت تقاليد اجتماعية، يمكن القضاء عليها، وتغييرها بسهولة. وأظنّ أن العداء سيبقى في الهند ما بقي الجهل، فالجهل يورث تعصباً دينياً، يحول بين المرء وتفهمه روح دينه على حقيقتها، مما يدفعه إلى التعلق بالأغراض دون الجواهر.

ولقد أبدى المسلمون على الرغم من ذلك استعدادهم للتفاهم والتعاون، أو أنهم على الأقل تظاهروا بذلك، وشاركوه في الجهاد أملاً في أن يزيل العمل المشترك عداوة القديم المتأصلة في النفوس"[2].

والواقع أن الهندوس قوم متعصب لا يفهمون أصول الدين بينما المسلمون ليسوا كذلك. ومن الدلائل على هذا الواقع انتحار العديد من النساء الهندوسيات كما تقول أمينة السعيد:

"وينادي المصلحون في الوقت الحاضر بوجوب زواج الأرملة إن أرادت، ووضع بالفعل قانون يبيح ذلك، ولكن القانون لم يتقرّر العمل به رسمياً إلى الآن، بسبب العقبات التي تقوم في طريقه، واعتراض الرجعيين، ولهم في الهند نفوذ كبير.

والمرأة الهندوسية لا ترث أبداً، فإن توفي زوجها أو والدها لا تصيب شيئاً من ماله مهما عظم؛ وتضطرّ في مثل هذه الحالة لأن تعيش كلاً على أفراد أسرتها، اللهم إلا إذا كانت متعلمة، وأرادت الاستقلال، فإذ ذاك تقتحم الحياة العملية، وتكتسب رزقها بعرق جبينها.

---

[1] المصدر نفسه، ص 129

[2] المصدر نفسه، ص 139

ومن أجل ذلك تقبل الهندوسيات على التعليم بشغف، فتكون الأمية بينهن أقلّ منها في المسلمات، ولكن نسبة التعليم ما زالت ضئيلة، والمثقفات قليلات، وأكثر النساء يذقن الأمرين من جراء هذا الغبن الاجتماعي الصارخ؛ مما يدفع أرامل كثيرات إلى الانتحار بالسمّ أو النار، فآلام الموت تهون أمام ما ينتظرهن في الحياة!"[1].

ويليه اختلاف الأديان والأفكار الدينية في الهند فهو أيضاً لم يدع أهاليها متحدين ومتفقين فتقول أمينة السعيد مشيرة إليه:

"قد يتبادر إلى الذهن بعد تكرار ذكرى للمسلمين والهندوس أن بلاد الهند لا تحوي غير هاتين الطائفتين، ولكن الواقع غير ذلك، فهناك شيع عدة، وأديان كثيرة يختلف أصحابها في الزيّ واللغة والدين والتقاليد والعادات--- وتتعدّد الأديان أيضاً تعدداً يباعد بين الناس، وينفر بعضهم من بعض، فأكثر سكّأن الهند من الهندوس، ويليهم المسلمون فهم مائة مليون أي ربع الشعب، وبين الاثنين ما نعرف من تطاحن وعداء --- ولو أن الهنود جميعاً اقتنعوا بأن الدين رابطة شخصية تصل العبد بربه، لهان الأمر، ولكنهم يدخلونه في السياسة والمجتمع بحيث يتعذر التفاهم، ويستحيل التعاون، ويشيع الخصام والقتال"[2].

والشيئ الثاني الذي يواجهه كل جاءٍ وآتٍ أنه يعمّها الفقر فتقول أمينة السعيد مشيرة إلى هذا الجانب:

"وتسعون في المائة من الشعب الهندي يتناولون وجبة واحدة كل يوم، وهي وجبة صغيرة لا تغني ولا تشبع من جوع، ولا تسلح الجسم بمناعة ضدّ الأمراض والأوبئة المنتشرة هناك ولكل هذه الأسباب نجد أن نسبة الوفيات في الطفولة مرتفعة جداً، ومتوسط عمر الهندي سبعة وعشرون عامة، في حين أنه في مصر ثلاث وثلاثون، ومع ذلك نضج ونستغيث لضآلة هذا المتوسط في بلادنا.

---

[1] المصدر نفسه، ص 70-71

[2] المصدر نفسه، ص 37-40

ومن المؤكد أن بلاد الهند غنية، وتربتها خصبة، وغاباتها كثيفة، وثروتها المعدنية كثيرة، فكيف أمكن أن يبلغ الفقر فيها هذه الدرجة؟

ولقد أثارت هذه النقطة عجبي ودهشتي، ودفعتني إلى دراسة شيئ قليل عن الحالة الاقتصادرية هناك، فخرّجت من تلك الدراسة القصيرة بنتيجة صادقة وهي: إن مثل الهند مثل شجرة ضخمة من الذهب البراق، ولكن هذه الشجرة السحرية لا تعطي غير ثمار الجوع والموت والحرمان!"[1].

وقضايا أخرى قد تم ذكرها من خلال المباحث الأخرى في المقالة.

تعليقات جميلة: ولو أن الرحلة كلها مليئة بمشاهدات وتعليقات ولكن بعضها أجود من البعض وتجدر بأن نشير إليها ففيما يلي إشارات إلى بعض منها:

- الهند بلد يختلف فيه الأديان والمذاهب الفكرية فهي مثل مهد الديانات والأفكار الدينية التي يضادّ بعضها البعض في معظم الأحيان فيعمل أهلها على الديانة الهندوسية التي تضادّ ديانة الإسلام كما يعبد البعض منهم النار بينما الآخر يخالفها وهكذا فصاعداً حتى يسكنها من لا يؤمن بدين ولا بفكرة دينية ويعتبر نفسه حراً عن مثل هذه القيود والحدود. فماذا نعمل في هذه الحالة؟ تقول أمينة السعيد معلقةً عليها ودالة على أسوأ الطريق في هذه القضية:

"ولو أن الهنود جميعاً اقتنعوا بأن الدين رابطة شخصية تصل العبد بربه، لهان الأمر، ولكنهم يدخلونه في السياسة والمجتمع بحيث يتعذر التفاهم، ويستحيل التعاون، ويشيع الخصام والقتال، وتكون النتيجة أن تعيش كل طائفة مستقلة بحوانيتها ومطاعمها وأماكن نزهاتها، فلا يتمّ الاختلاط إلا بين طبقة محدودة من المثقفين"[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص 123-124

[2] المصدر نفسه، ص 39-40

- وأن قسمة طبقات الهندوس هي التي قامت بالتفريق بين إنسان وإنسان، الأمر الذي جرّ أغلبية رجال الطبقة الدنيا إلى اعتناق الإسلام الذي لا يؤمن بهذه الفكرة فهي تعلّق على هذا الوضع القبيح:

"اعتقد أن لبعض الشرائع الهندوسية دخلاً كبيراً في التفرقة بين الطائفتين. ويقوم الدين الهندوسي على نظام عجيب من تعدّد الطبقات، يبدأ من أعلى بالبراهما أو أشراف الدين، وتليهم طبقة المحاربين، فطبقة التجّار والمزارعين، وتنتهي تلك السلسلة بالمنبوذين أو الأجناس، وهم الطبقة العاملة التي تعرف بالكنّاسين. ولكل طبقة من الميزات والحقوق ما يرفعها عما يليها، اللهم إلا المنبوذين، فلا حقوق لهم ولا ميزات --- ولو اقتصر الأمر على هذا الحدّ لكان محتملاً، ولكن مسئلة المنبوذين تدعو إلى الأسف، فعملهم محدود بحكم النظام الهندوسي، لا يخرج عن كسح الفضلات وكنس الطرقات، وبعض الحرف الدنيا المماثلة. ويعتبر المنبوذ نجساً لا يصحّ لمسه، وإن حدث اللمس عفواً استدعى الأمر تطهيراً يتطلب إجراءات دينية قاسية، منها الاغتسال في الأنهار المقدّسة --- ويعتبر أصحاب العقائد الأخرى منبوذين أيضاً، فالمسلم بالنسبة إليهم نجس، وكذلك المسيحي واليهودي، ولهذا يرفض الهندوسي رفضاً باتاً أن يسمح لمسلم بزيارته، والشرب من مياهه، وشراء الطعام من حانوته ---"[1].

- وأن النزاع بين الهندوس والمسلمين خاصة في الهند مما جرّه السياسة والزعامة فهم أصلاً وطبعاً لا يحبّون أن يقاتل بعضهم البعض بل يودّون أن يعيشوا بالتضامن والتعايش الآمن. تقول أمينة:

"ومصيبة الهند الكبرى في زعمائها، فبالرغم من أهدافهم الطيبة، ومقاصدهم النبيلة، لم يخلقوا للسلم والوفاق، فلقد ولدهم الخلاف والعداء والصراع، وأصبحوا لا يصلحون لغيرها. أما السلام ففي حاجة إلى زعماء آخرين، من أبناء السلام لا أبناء القتال، فنحن نعرف أن القاعد الحربي، قد يسجّل لبلاده نصراً عالمياً في الحرب، فإذا

[1] المصدر نفسه، ص 137-138

وضعت الحرب أوزارها، وعاد إلى وطنه، عجز عن إدارة دفة الشئون في عهد السلم الذي لم يخلق له"[1].

وتقول وهي تستدل على قولها بما شهدته من عندها:

"والعجيب أن الهنود إذا خرجوا من بلادهم- وقد فعلوا ذلك خلال سنوات الحرب- نسوا الفروق، وعاشوا معاً في صفاء وصداقة ومحبة متبادلة. وأذكر أنهم كانوا يتوافدون على بيتي، فيجلسون معاً، ويأكلون معاً، ويتبادلون أطيب التحيات والحديث؛ ولكنهم يعودون إلى التقاطع والتشاحن بعودتهم إلى الوطن، وتصيبهم حمّى الانقسام مرة أخرى، فيتفرّقون شيعاً ومذاهب، ويدبّ النفور والعداء، بعد الصداقة والوئام. ومع تعقد المشكلة الهندية، فتلك الظاهرة توحي بإمكان التعاون والصداقة في الهند، ما دام قد أمكن وجودهما خارجها، ولعل الجهل هو سبب الانقسام الأوّل ---[2].

- وأن الهندوس يتعصبون لديانتهم ولا يصبرون على أن يأخذوا شيئاً من إخوانهم المسلمين فهم يفرّقون بين رجل ورجل على أساس الدين والعنصر. تقول أمينة السعيد بعدما شاهدت هذه الحالة في الهند:

"ولا شكّ أن هذه الواقعة تدل دلالة واضحة على أن التعصب يصدر من الهندوس أولاً، ويملي عليهم تصرفات تغضب المسلمين، وتثير كرامتهم، فيردّون تعصباً بمثله، أو أقوى منه، ويقابلون القطيعة بقطيعة قد تكون أشدّ وأقسى"[3].

- وأن الأغنياء الهنود ينفقون أموالاً فادحة بمناسبات خاصة فهم لا يقدّرون ما هو المهمّ أيّ تقدير بل يضيّعونه بأيّ طريقة كانت. تقول أمينة السعيد وهي تعلّق على تغطية الطعام بالورق الفضي ومن ثم ابتلاعه في الأمعاء:

"والعجب أن بعض الأغنياء الهنود ينفقون المال فيما لا يجدي أو يفيد في نظري، فيمضغون "البان" المحشوة باللؤلؤ المصحون، ويأكلون الفضة والذهب مع الطعام؛

---

[1] المصدر نفسه، ص 149

[2] المصدر نفسه، ص 40

[3] المصدر نفسه، ص 43-44

فقد دعيت مرة إلى وليمة كبيرة؛ ورأيت صحون الأرز والمهلبية مغطاة بورق فضي كالذي يستعمل في لف الحلوى، فلما حاولت أن أزيح ذلك الورق، قيل لي إنها صفائح من الفضة الصافية، عليّ أن ألتهمها مع الطعام، ففعلت خضوعاً لتقاليدهم، وإن ارتجف قلبي طيلة الوقت لمجرد التفكير في أن أمعائي تضمّ معدناً نفيساً كنت أتمنّى لو قبضت عليه بيدي!"[1].

وتمضي قائلةً بمثال آخر:

"وبينما تجد أحد زعماء الهنود يوزن بالماس، إذ بنا نجد آخر إذا رزق ابناً أو حفيداً وضعه في مهد صغير في الهو الرسمي للقصر، ثم يدعو أهل مقاطعته لمشاهدته، فيلبّون جميعاً الدعوة، ويضع كل منهم عند مروره بالمهد عملة ذهبية، مع أن هذا الرجل أغنى أغنياء العالم، وليس في حاجة إلى المزيد من أتباعه العراة الجياع"[2].

ثم تعلّق عليه أروع تعليق:

"هذا هو حال أغنياء الهنود وكبار موظفيهم وسواد الشعب تفتك به المسغبة، وخمسة وسبعون في المائة من الهنود لا يستر أجسامهم شيئ غير قطعة صغيرة من النسيج البالي حول خصورهم، والعمال والمزارعون يقاسون ألوان الحرمان، لضآلة أجورهم فطبقة الكناسين أي المنبوذين، رجالاً ونساءً، يتقاضى الواحد منهم روبية في الشهر أي ثمانية قروش! أما أجر العامل الزراعي، فثلاث أنات أي تسعة مليمات كل يوم، مع غلاء الحياة الحاضرة!"[3].

وقد مضى ذكر تعليقاتها النقدية حين تناولنا بالإشارة انتقاداتها وانطباعاتها فليراجع ذلك المبحث.

---

[1] المصدر نفسه، ص 122

[2] المصدر نفسه، ص 122-123

[3] المصدر نفسه، ص 123

المسلمون في الهند: وقد أشارت أمينة في رحلتها إلى أوضاع المسلمين في الهند فمثلاً أنها تقول إن المسلمين قد اتبعوا التقاليد السائدة في الهند لاحتكاكهم مع إخوانهم الهندوس:

"أما الهندية المسلمة فقد منحها الدين حقوقاً كثيرة، ولكنها لا تستفيد منها؛ فبحكم الجيرة والحياة المشتركة اقتبس مسلمو الهند بعض العادات الهندوسية، فهم مثلاً لا يورثون المرأة عملاً بقانون "التقاليد" فإذا التجأت إلى المحاكم تطلب نصيبها، لا تجد من يعير قضيتها اهتماماً، لأن قانون التقاليد قائم معترف به رسمياً في البلاد.

وقد حدث أخيراً بعض التعديل،فأعطى المسلم حق اختيار القانون الذي يطبق على ورثته بعد وفاته، فإن أوصى كتابة بقانون الشريعة ورثت المرأة طبقاً لتعاليم الدين، وإن لم يوص وهو ما يحدث غالباً- طبق قانون "التقاليد"، ولا فائدة بعد ذلك من الجدال والمقاضاة.

ويدلّ هذا التصرف على أن مسلمي الهند لا يفهمون روح دينهم الحق، وإلا لنفذوا تعاليمه الجوهرية، وحقّقوا العدالة الإسلامية التي هي في نظر الحق والإسلام أهمّ من الاقتصار على أداء فريضة الصلاة، وصيام شهر رمضان"[1].

وتقول عن سوء حال المسلمين والسبب وراءه:

"وفي الواقع أن حالة المسلمين في الهند أثارت في نفسي كثيراً من التأملات، وأعادت إلى الذهن ذكريات بلاد أخرى شاهدتها، فحزنت لتأخر عامة الشعوب الإسلامية، وتقهقرها في ميدان المدنية والتقدم.

وعندي أن جوهر العلة في ذلك جهل المسلمين بحقيقة روح دينهم، وإساءة تطبيق تعاليمه، بإهمال شأن الأوطان، وحرمان المرأة من العلم، وتقييدها بالحجاب وغيره من الخزعبلات. والنتيجة أن تأخر المسلمون في موكب الحضارة، واحتلوا منه مكان الذيل، فأساءوا إلى

[1] المصدر نفسه، ص 73-74

أنفسهم، وجلبوا الاتهامات لدينهم ظلماً، فنظر العالم المتمدن إلينا ساخراً وقال: إننا متأخرون لأننا مسلمون! ودِيننا المجيد بريئ من كل ذلك"[1].

وتقول في موضع آخر من رحلتها وهي تشير إلى أن الجهل هو الذي خلّف المسلمين في كافة مجالات الحياة:

"--- وانتشرت المدارس الإنجليزية في أنحاء الهند، فثارت كرامة السادة المسلمين، وقاطعوا دور العلم التي افتتحها المستعمر أما الهندوس فقد أقبلوا عليها، ودخلوا أفواجاً: أولاً بدافع الرغبة في رفع مستواهم الثقافي، ليصل إلى مستوى المسلمين، وثانياً لإرضاء السيد الجديد الذي يحتمون به، ويتعلقون بأهدابه.

ومرّت الأجيال فأصاب الهندوس هدفهم، فتعلموا وتثقفوا، واضمحلّ شأن المسلمين الثقافي، وصارت نسبة التعليم فيهم أقل منها في الهندوس بكثير"[2].

فالعلم عند الكاتبة هو السبب الرئيسي لازدهار قوم، وفقده هو الدافع الرئيسي وراء تخلفهم.

أمينة وقضايا النساء: من عجيب فطرة النسوة أنهن يتعصبّن لجنسهن فانظر إلى أمينة السعيد كيف تذكر حينما ترى امرأة فيما بين الرجال:

"وتفرّقنا في مقصف المطار، وانتحيت جانباً أرتشف فيه قدحاً من القهوة، وأتأمّل منه جماعة المسافرين. لم أجد بينهم غير امرأة واحدة تصحب طفلة جميلة لا تزيد سنها على خمس سنوات؛ ورأيت في وجه هذه المرأة مزيجاً من التفاؤل والوجوم، فهي تارة باسمة تنظر إلى ساعتها، كأنها تستحث الوقت على الإسراع، وتارة أخرى جامدة العينين، بعيدة النظرات، تحاول أن تخترق حجب مستقبل لا تطمئن إليه ---"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص 76-77

[2] المصدر نفسه، ص 134

[3] المصدر نفسه، ص 8

وعلى كل حال فهي ترى تثني على نساء الهند وهي تقول:

"وفي الواقع أن نساء الهند ملأن قلبي بالإعجاب، وهن يتوالين على المنصة كل صباح ومساء، فيناقشن أعظم الموضوعات حيوية بحكمة وذكاء وسعة اطلاع؛ فكنت أحسّ في بعض الأحيان أنني أمام عقول جبارة صافية، لا بدّ أن تصل إلى أهدافها عما قريب"[1].

وتقول وهي تفضّلهن على الرجال:

"والتعاون مع المرأة الهندية المتعلمة يأتي بالخير العميم، ولكننا معشر النساء المصريات لا نستطيع أن نتخذ خطوة كهذه في الوقت الحاضر، فعلى الرغم من أنني حملت رسالة كتابية حارة، لرئيسة الاتحاد المصري، تناشدها فيها زعيمات الهند تكوين جبهة منا ومنهن، غير أن الخلاف الطائفي القائم هناك يحول بيننا وبين الانحياز لأحد الفريقين ضد الآخر ---"[2].

وبالرغم من ذلك تجد أن المرأة الهندية تعاني من أنواع الظلم فهي تقول:

"--- ولكنني وجدت غيرها في الهند، فالمرأة المتعلمة هناك تقوم بواجبها الكامل نحو بلادها، وتسهم في بناء صرح وطنها، وتأخذ بيد المجتمع لتعينه على السير قدماً، مع أنها محرومة من كثير من الحقوق التي تتمتع بها أختها في البلاد الأخرى، فالمجتمع الهندي جشع إذاً لأنه يأخذ دائماً ولا يعطي شيئاً مقابل ما يأخذه"[3].

ليس هذا فحسب بل الديانة الهندوسية أيضاً تظلم على المرأة فهي تقول:

"والديانة الهندوسية لا تعترف بمكانة النساء، ولا تقرّ لهن في المجتمع مقاماً جليلاً، وتعتبر الرجل إله المرأة الذي حقّ عليها عبادته، واحتمال قسوته دون شكوى أو تذمر، فهي ظلّه، ولا يصحّ للظل أن يسمو إلى مكانة الأصل"[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص 63-64

[2] المصدر نفسه، ص 66

[3] المصدر نفسه، ص 67

[4] المصدر نفسه، ص 68-69

وتمضي قائلة عن الستي أشنع صورة للظلم:

"ومن أجل ذلك كانت الزوجة الهندوسية في الماضي تحرق يوم وفاة زوجها وتدفن معه؛ فتقبل على "المحرقة" التي اجتمع حولها الأقارب والأصدقاء وتقتحم نيرانها باسمة، وذلك دليل الرضا والقبول، فإن تراجعت حلّ العار بأسرتها، فتنبذ لتعيش ما تبقى لها من الحياة طريدة شريدة"[1].

وتقول وهي يسرّها أن المرأة الهندية تتمتع من حق التصويت:

"--- ولكن الهندية مع حرمانها من ذلك، تتمتع بحق التصويت والانتخاب، وهو تاج الحقوق الذي لا تناله المرأة عادة حتى تستكمل مطالبها الحيوية الأخرى"[2].

وهي تمضي قائلة عن مخالفة المرأة الهندية زوجها في هذا الشأن:

"وقد قابلت سيدات أعطين أصواتهن في الانتخابات من يخالفون أزواجهن في الرأي والمبدأ، فضربن بذلك مثلاً أعلى في فصل السياسة والصالح العام، عن العلاقات الزوجية وصلات القربى والرحم"[3].

وبجانب الدفاع عن النساء والثناء عليهن فقد انتقدت أمينة السعيد الصاري الذي تلبسه المرأة الهندية والذي يعرقل في مشيها والعمل في الميادين والأسواق فهي تقول:

"ولم يكن لتوضيحي أثر كبير في إقناعهم، فكانوا يهزّون رءوسهم أسفاً، ويقترحون على أن أقوم بدعاية واسعة في بلادي، فأبشر بزيّ الصاري، وأدعو المصريات لارتدائه. ولا أظنّ أنني سأقوم بتلك الدعاية، فالصاري على جماله ثوب غير عملي، لا يناسب امرأة تقتحم الحياة العامة وتشترك فيها، فهذه الطبقات الحريرية الملتفة حول الجسد حتى أخمص القدمين تعوق الحركة، وتضطرّ صاحبتها إلى البطء والحذر، ونحن الآن في زمن السرعة والسبق،

---

[1] المصدر نفسه، ص 69

[2] المصدر نفسه، ص 82

[3] المصدر نفسه، ص 82

وعلى الواحدة منا أن تشقّ طريقها في الشوارع والسيارات العامة وعربات الترام، مما يفسد الصاري، ويقلّب نظامه رأساً على عقب"[1].

أوهام أمينة: ولعل أمينة السعيد قد نسيت بعض الأشياء خلال نقدها على الهند وأهاليها من الهندوس والمسلمين. فنشير إلى طرف منها عسى أن يتنبّه القرّاء عليها:

- **الحجاب:** ترى أمينة السعيد أن الحجاب شيء لم يوجب الإسلام على المرأة بل هو مما ألزمته على نفسه وهو يخلق العرقلة في سبيل رقيّها. فتقول:

"ويقف الحجاب أو "البردا" عقبة كئوداً في طريق تقدّم الهندية المسلمة، وهو حجاب عجيب، يلتف حول الجسد، ويغطيه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين. وأمام العينين فتحتان صغيرتان، تغطيهما طبقة من النسيج الشفاف، لا يكاد البصر يتبيّن من خلالهما شيئاً"[2].

فلعلّ الكاتبة المصرية التي تؤمن بالتحرر عن القيود لا تعرف الإسلام حقاً فالحجاب في أي صورة كان مما أصرّه الإسلام على أتباعه والحق أن هذا ليس بدعة أحدثها الإسلام بل مما عرفه العرب منذ جاهليتهم وقد كان عاماً لدى نساء أشرافهم. وقد جاء في التاريخ أن قبيلة حمير كانوا يدعون أنفسهم بالملثمين وهل هي لم تقرأ الأبيات التالية:

يقول الربيع بن زياد العبسي وهو شاعر جاهلي في رثاء مالك بن زهير:

من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء حواسراً يندبنه يلطمن أوجههن بالأسحار

قد كنّ يخبأن الوجوه تستراً فاليوم حين برزن للنظّار

قال العلامة التبريزي في شرح "تستراً" أي عفة وحياء.

---

[1] المصدر نفسه، ص 52

[2] المصدر نفسه، ص 74

ويقول عمرو بن معديكرب الزبيدي وهو يذكر حادثاً شديداً للحرب:

وبدت لميس كأنهـــا بدر السماء إذا تبدّا

ولو أنّ عمرو بن معديكرب شاعر مخضرمي ولكنّ بيته هذا يتعلّق بالجاهلية.

ويقول شاعر جاهلي يسمّى "سيرة بن عمر القفعسي" وهو يهزأ بأعداءه:

ونسوتكم في الروع بادٍ وجوهها يخلن إماءً والإمـاء حراير

والنابغة الذبياني الذي هو أحد فحول شعراء الجاهلية كان عزيزاً لدى النعمان بن المنذر ومقبولاً في بلاطه فذات مرة زار النعمان فاتفق أنّ زوجة النعمان المسمّاة بـ"متجردة" كانت جالسة عنده ودخله النابغة بدون إجازة فقامت الزوجة فوراً وسقط النصيف بدون وعي فسترت متجردة وجهها بيدها فأعجب النابغة بهذا الأسلوب وكتب قصيدة على ذلك، يشير فيها إلى ذلك الواقع قائلاً:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليـــــــــــد

ويقول شاعر آخر وهو عوف ذاكراً خروج النساء إلى القدور لشدة الجوع:

وكانوا قعوداً حولها يرقبونها وكانت فتاة الحيّ ممن ينيرها

مبرزة لا يجعل الستر دونها إذا خمد النيران لاح بشـيرها

وهل هي لم تقرأ كلمات "درع" و"أتب" و"قرقل" و"صدار" و"مجول" و"شوذر" و"خميعل"؟ وهل هي لم تدرس شرح العيني لقوله تعالى: "وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ"[1].

قال العيني: وذلك لأنّ جيوبهنّ كانت واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكنّ ليدلن الخمر من ورائهنّ فتبقى مكشوفة فأمرن بأنْ يدلنها من قدّامهن حتى يغطينها".

[1] سورة النور: 31

وكذا ما جاء في شرح قوله تعالى: "يآ أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن"[1].

"كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طريق المدينة فيعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإن كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن فإذا رأوا المرءة عليها جلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها وإذا رأوا المرءة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها".

وكل هذه تدل على أن الحجاب كان عاماً في المجتمع العربي الجاهلي ومن ثم أمر الإسلام باختياره.

- **شيوع الحجاب في المجتمع الهندوسي:** وكذا أخطأت أمينة في أمر شيوع الحجاب في المجتمع الهندوسي فصدّقت ما شاع من أن السلاطين المسلمين كانوا يأمرون بالحضور كل عذراء هندوسية جميلة عثروا عليها، فهي تقول:

"ولقد لاحظت أن بعض القرويات الهندوسيات يتحجبن بـ"البردا" أيضاً، فعجبت لأن دينهن لا يفرض ذلك فلما سألت عن السبب قيل لي إنهن اقتبسنه من المسلمات، فأصبح عادة متبعة بين بعض الأسر القروية. ويرجع السبب في اقتباسه إلى الأمراء الذين حكموا المقاطعات في قديم الزمان؛ وكان بعض هؤلاء شهوانياً، يعيش من أجل الملاذ، فإذا رأى أحدهم وجهاً جميلاً أمر بإحضار صاحبته إلى القصر ولو كانت متزوّجة. وتكرّرت المآسي، وتعاظم البلاء، فحجب هندوس تلك المقاطعات نسائهم، لتعجز عين الحاكم الشرير عن تمييز الوجه الجميل من القبيح! وعلى مرّ الأجيال زال خطر الأمراء من هذه الناحية، ولكن الحجاب أصبح عادة متبعة لدى بعض القرويين من تلك الطائفة"[2].

---

[1] سورة الأحزاب: 28

[2] مشاهدات في الهند، ص 76

والحال أن الحجاب كان عاماً في أشراف الهندوس كذلك وحتى الآن نرى نساء أشراف الهندوس في القرى أنهن يرتدين بالحجاب كلما خرجن من الدار. ولو كان الأمر كما ذكرت أمينة لما نزل هذا البلاء مع أفراد طائفة واحدة بل نزل مع أفراد كل طائفة هندوسية.

- **فكرة قسمة الهند:** وقد شاع حتى الآن أن من قام بقسمة الهند إلى الباكستان والهند هو محمد إقبال فهو الذي ضعّف البلاد بحيث أن أدلى برأي قسمتها إلى بلدين ومن ثم إلى ثلاثة بلاد ولكن هذه الدعاية قد ثبتت باطلة بأن تم الكشف عن الرجل الذي كان وراء هذه الفكرة الباطلة بل هذه المؤامرة وهو جواهر لعل نهرو الذي كان تلميذ غاندي، وقعت أمينة في نفس الخطأ فعزت فكرة قسمة البلاد إلى المسلمين فهي تقول: "--- وفكّر المسلمون في موقفهم جيداً، فوجدوا أن الخلاف بينهم وبين الهندوس واسع جوهري، فهم يختلفون في الجنس والدين واللغة والزي والعادات والتفكير والطعام؛ فعادوا إلى الفكرة القديمة التي نادى بها شاعر الهند "محمد إقبال"، وهي فكرة تقسيم الهند قسمين، يكون أحدهما من المناطق الإسلامية، ويسمّى دولة "باكستان". ونلاحظ أن كل حرف من هذه الكلمة مأخوذ من اسم مقاطعة من المقاطعات الإسلامية، وهي البنجاب، وكشمير، والسند، ومقاطعة الشمال الغربي، والبنغال، وبلوخستان!"[1].
- **تعريب الأسماء العربية:** والآن هذه عدوى أن المترجم العربي يحاول أن يعرّب الأسماء، حين الترجمة العربية، عن طريق الإنجليزية فمثلاً كلمة "نَوَلْكِشُوْرْ" عندما يريد المترجم العربي بتعريبها فأولاً يكتبها بالإنجليزية أي Naval Kishore ثم يقوم بتعريبها أي نافال كيشور. وهذه العدوى لم تلفت منها أمينة نفسها فهي غالت في تعريب الأسماء حتى عرّبت الأسماء العربية والفارسية عن طريق الإنجليزية فنذكر فيما يلي بعض الكلمات التي قامت بتعريبها ومن ثم سقطت في الخطأ:

[1] المصدر نفسه، ص 141-142

الاسم بالإنكليزية	تعريبه من قبل أمينة	أصله	التعريب الصحيح
Beghum	بيجام	"بيگم" كلمة فارسية	فالصواب "بيجم/بيغم"
Raziyah	رضية، ص 100	"رضيّة" كلمة عربية	فالصواب "رضية"
Altutmish	الطمش، ص 100	"التمش" كلمة تركية	فالصواب "التمش"
Tughlaq	محمد توجلاك، ص 104	"تغلق" كلمة تركية	فالصواب "تغلق"
Divan-i-Khas	ديوان ايقاس، ص 107	"خاص" كلمة عربية	فالصواب "ديوانِ خاص"
Diva-i-Ām	ديوان إيام، ص 109	"عام" كلمة عربية	فالصواب "ديوانِ عام"
Bahadur Shah	باهور شاه، ص 111	"بهادر شاه" إحداهما هندية والأخرى فارسية	فالصواب "بهادر شاه"
Shah-e-Alam	علم شاه، ص 112	"شاه عالم" إحداهما فارسية والأخرى عربية	فالصواب "شاه عالم"
Maratha	المهراتا، ص 112	"المراثا" كلمة	فالصواب "المراثا"

		هندية	
Jawahirlal Nehru	جواهر لال نهرو، ص 143	"لعل" كلمة عربية	فالصواب "جواهِر لعل نهرو"
Shimla	سملا، ص 148	"شملة" كلمة أردوية	فالصواب "شملة"

هذا في جانب وفي جانب آخر إنها حاولت أن ترجع الكلمة إلى أصلها فضبطتها كما هي بتلك اللغة فمثلاً كتبت "پاكستان"[1] و"چپاتي"[2] وپردا"[3] وغيرها من الكلمات الأجنبية.

موازنة بين بلدها والهند: وقد قامت الكاتبة بالموازنة بين الهند وبين بلدها مصر في كثير من الموضوعات والشئون فنشير، فيما يلي، إلى طرف منها:

- أن الفنادق التي هي ذات الدرجة الأولى ليست بأجمل وأنظف مما يوجد في مصر والسبب وراء هذا أن مصر لها علاقة مباشرة مع البلاد النامية بينما الهند لا تتمتع من مثل هذه التسهيلات فهي تقول:

"وأعتقد- إن كان لي أن أحكم بما رأيته- أن فنادق الدرجة الأولى في بلاد الهند لا يمكن أن تصل إلى مستوى مثيلاتها في مصر، من حيث الأناقة والاستعداد والخدمة وجمال الرياش. وليس معنى هذا أن الفنادق الهندية قذرة مثلاً، كلا. فهي على العكس من ذلك نظيفة ومنظمة؛ ولكن الملحقات كالحمامات والأدوات الصحية فيها ليست على ما ينبغي أن تكون. وقد يرجع تفوقنا في هذه الناحية إلى وقوع مصر في ملتقى الطريق بين الغرب والشرق، وقربها الشديد من أوروبا، وإقبال السائحين عليها أفواجاً من أنحاء العالم، مما يقتضي توفير سبل الراحة والرفاهية لهم. ولا شك أن ازدحام المدن

[1] المصدر نفسه، ص 13

[2] المصدر نفسه، ص 49

[3] المصدر نفسه، ص 74

الهندية خلال سنوات الحرب، وازدياد الإقبال على الفنادق، وتعذر بناء الجديد منها، قد خفّض مستوى هذه الأماكن العامة عما كانت عليه وقت السلم"[1].

- وأن الطريقة التي يستخدمها الهنود في طبخ الأرز أجمل وأجذب مما لأهالي مصر فهي تقول وتثني على الهند:

"--- ويسير النظام في الغداء والعشاء على الطريقة المتبعة هناك، فتقدّم إلى الآكلين ألوان لا عداد لها، قوامها الأرز، و"الكاري" وهو اللحم المطهي بالتوابل اللاذعة، ثم الخضراوات المختلفة، والفطائر المسلحة، واللبن المخثر المجلى بالسكر، والحلوى على أنواعها. والطريف أنهم يطهون الأرز كما نفعل نحن، ولكنهم يقسمونه على أوانٍ مختلفة، ويصبغون أرز كل آنية منها بلون، بعد ذلك يخلطونه في الصحون، فتبدو تلك الصحون جميلة الشكل وهي مليئة بالأرز الأحمر والأخضر والأسفر والأبيض"[2].

- وأن الزي الذي تلتزم به أمينة أيسر للمرأة من الصاري التي التزمت به المرأة الهندية فهي تقول موازنة بينهما:

"وكان لظهوري بالزي الأوربي رنة كبيرة من الدهشة في الهند، وسألني الناس تباعاً عما حدث لمصر، حتى تترك زيّها الشعبي، وتتشبه بالغرب، فاضطررت عشرات المرات إلى توضيح هذه المسألة، وأفهمتهم أنه لم يكن للمصريين ملبس خاص، وثيابهم التي عرفوها قرناً بعد قرن مقتبسة من غيرهم، بحكم العناصر المختلفة التي توالت على البلاد، وبحكم موضع مصر الدولي!

ولم يكن لتوضيحي أثر كبير في إقناعهم، فكانوا يهزّون رءوسهم أسفاً، ويقترحون على أن أقوم بدعاية واسعة في بلادي، فأبشر بزيّ الصاري، وأدعو المصريات لارتدائه. ولا أظنّ أنني سأقوم بتلك الدعاية، فالصاري على جماله ثوب غير عملي، لا يناسب امرأة تقتحم الحياة العامة وتشترك فيها"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص 29-30

[2] المصدر نفسه، ص 49

[3] المصدر نفسه، ص 51-52

- وأن المرأة الهندية أحكم من الرجل الهندي وأن التعاون معها يعود بالخير الكثير وأن المرأة المصرية لا تتمتع من مثل هذه التسهيلات فتقول أمينة موازنة بينهما:

"والتعاون مع المرأة الهندية المتعلمة يأتي بالخير العميم، ولكننا معشر النساء المصريات لا نستطيع أن نتخذ خطوة كهذه في الوقت الحاضر، فعلى الرغم من أنني حملت رسالة كتابية حارة، لرئيسة الاتحاد المصري، تناشدها فيها زعيمات الهند تكوين جبهة منا ومنهن، غير أن الخلاف الطائفي القائم هناك يحول بيننا وبين الانحياز لأحد الفريقين ضد الآخر. وإلى أن يتصافى المسلمون والهندوس لن نقبل بحال من الأحوال تشكيل الجبهة المنشودة، حتى لا يتفاقم العداء، فتدخل في بلادنا في الخصومة القائمة"[1].

- وأن الفقراء المتسوّلين في الهند يختلفون عن إخوانهم في الوظيفة في مصر فهي توازن بينهما كما يلي:

"والعجب أن الكثرة الساحقة من متسوّلينا لا تثير رؤيتهم رحمة أو شفقة، فعلى وجوههم سيماء الرذائل التي ينطوون عليها، وعلى أبدانهم الصحيحة دلائل القوة التي تمكّنهم من العمل الشريف، واكتساب الرزق بوسائل غير التسوّل والاستجداء.

ولكن عدد المتسوّلين المصريين تضاءل في ذهني أمام جيوش إخوانهم الهنود، حتى خيّل إليّ أن مصانع التسوّل الأساسية تقوم في تلك البلاد، وما مصر إلا دولة صغيرة تستورد جزءًا يسيراً من منتجات هذه المصانع!

وتلفت هذه الظاهرة نظر الغريب هناك، ففي كل طريق أساسي أو فرعي، وفي كل ركن ظاهر أو خفي، يتجمع المتسوّلون الهنود عشرات عشرات، يستجدّون المارّة بصلوات ودعوات لا نهاية لها.

ولكن المتسوّلين الهنود يختلفون عن زملائهم المصريين كل الاختلاف، فدلائل البؤس الحقيقي في وجوههم الصفراء الذابلة، وعيونهم التي أعماها الجدرى، وأجسادهم

[1] المصدر نفسه، ص 66

الضامرة النحيلة تنطق بالحرمان والجوع والعرى، مما لا يدع مجالاً للشك في أنهم يقاسون شظف العيش، وضيق ذات اليد"[1].

أدبية هذه الرحلة: عندما نقرأ هذه الرحلة نجدها مختلفة عن رحلة نوال السعداوي التي لم نجد فيها صبغة أدبية وبالرغم من تلك أنها رحلة يغلبها اللون الأدبي فهي مليئة بالتعابير الفصيحة وكثيراً ما هي تأخذ التعابير من القرآن وكلام العرب العرباء. ويبدو أنها عالمة للقرآن والحديث وكلام العرب القحّ. ننقل فيما يلي بعض القطع الصغيرة لتمتيع القرّاء بلونها الأدبي. فتبتدئ الرحلة بما يلي:

"كان الهدوء شاملاً، والليل بارداً، وهواء الشتاء القارس ينفح الوجود؛ والقاهرة بنت المرح والنور تنام في ظلام دامس لا يخفّف من رهبته غير التماع بعض النجوم الساهرة، وهي تطلّ بين آونة وأخرى، فتلقي علينا من السماء الملبدة بالغيوم بسمة متألقة. وتسلّلت بنا سيارة المطار في تهادٍ وبدء كأنها تشفق أن يزعج صوت عجلاتها الضخمة هذا السحر المصري العجيب"[2].

وتقول عن الصمت الذي لزم كل مسافر:

"وثقل هذا الصمت على ضابط إنجليزي شابّ، فانبرى للحديث عسى أن يحطمه، ولم يكن الحديث مرغوباً في هذه اللحظة، فلم يجد بيننا مشجّعاً أو مجيباً، فانخفض صوته تدريجاً، وماتت الكلمات على شفتيه، وأطبق السكون مرة أخرى، ولم نعد نسمع غير حفيف عجلات السيارة، وهي تتقدم بنا حثيثاً نحو المطار"[3].

وتقول والطائرة تحلّق بها في الجوّ.:

---

[1] المصدر نفسه، ص 116-117

[2] المصدر نفسه، ص 7

[3] المصدر نفسه، ص 8

"وحلّقت بنا سفينة الهواء، وارتفعت فوق الغمام، وراحت تشق طريقها في الظلام، والكل على سابق حاله: صامت مكتئب، يستعرض الماضي، ويتكهن بالمستقبل، حتى تنفس الفجر، وتدافعت جيوش النهار زاحفة وراء طبقات الظلام الهاربة، واصطبغ الأفق بدماء الشمس الأرجوانية، فدبّت الحركة بيننا، وارتفعت الرءوس المطرقة، وأشرقت الوجوه الواجمة، وغاب الماضي بذكرياته، ولم يعد أمامنا غير مستقبل كله أمل وابتسام، وكان انقلاباً عجيباً وإن كان طبيعياً، فالليل مبعث التأمل والتفكير، وفي ظلامه الدامس تكتئب النفوس، ويشيع التشاؤم، فما أحلى النور، وما أجمل النهار!"[1].

وتقول وهي تصوّر قصر أسرة هارون الشهيرة:

"ويتوج هذا الحيّ قصر منيف لأسرة هارون الشهيرة، ولقد بني هذا القصر على الطراز الهندي، فهو عظيم الاتساع، كثير الغرف، ذو أجنحة مختلفة، ليعيش فيها الأبناء بعد الزواج كما هي العادة المتبعة هناك. وتحيط به من جميع الجهات شرفات كبيرة أقيمت على أعمدة بيضاء شاهقة. وأرض القصر وجدرانه وسقفه من المرمر الرائع الذي يبعث الرطوبة خلال شهور الصيف القائظة. والأرض المرمرية تغطّيها أثمن السجاجيد العجمية، والأرائك والمقاعد المنخفضة مكسوة بالدمقس المطرز بالفضة والذهب، والموائد مليئة بالتحف النادرة. وبالقصر قاعتان للطعام كاملتا العدة والاستعداد: إحداهما للولائم وهي تسع مائة شخص، والثانية للاستعمال اليومي وتسع ثلاثين"[2].

وتقول وهي تصوّر ما تركته غارة تيمور في دلهي:

"وتركت غارة تيمور في دلهي آثاراً لا تنسى، فعلى الرغم من بقاء العرش، ذهبت هيبته، وأصبح عرشاً مزلزلاً خاوياً: تحيط به الفاقة، يخيّمه العوز، وتتردّد في جنباته آهات الأهالي،

[1] المصدر نفسه، ص 14-15

[2] المصدر نفسه، ص 24-25

وقد كاد يهلكهم الجوع والفقر. وبقي الملك "محمد توجلاك" على العرش يأتمر بأمر تيمور، ويرتجف جزعاً لذكرى هذا الأعرج، فيدفعه الجزع إلى تنفيذ أوامر المغير، وتلبية رغباته"[1].

وبجانب هذه اللغة الفصحى فقد عثرنا على زلات نحوية في كتاباتها فمثلاً "فحرمت وأولادي رؤية بعضنا بعضاً[2]" (الصواب: فحرمت أنا وأولادي ---) و"كيف رضوا أن يجتمعوا مسلمين ونصارى وهندوس وبارسي وسيخ حول ---[3]" (الصواب: --- وهندوساً وبارسياً وسيخاً ---) و"فتقدّم مني مسرعاً[4]" (الصواب: قتقدّم إليّ مسرعاً) و"لينتزع طريقه بين الغصون[5]" (الصواب: ليخترق طريقه/يشق طريقه ---) و"يدخلون إليها حفاة[6]" (الصواب: يدخلونها/يدخلون فيها ---) و"يعاني نساء الأنجلو إنديان ---[7]" (الصواب: تعاني نساء ---) و"فهناك من هذه المعاهد سبع وعشرون ألفاً وخمسمائة ---[8]" (الصواب: سبعة وعشرون ألفاً ---) و"اللغة الإيرانية[9]" (الصواب: الفارسية) و"فلا حقوق لهم ولا ميزات[10]" (الصواب: فلا حق لهم ولا ميزة) ولكن هذه الزلات لا تزن شيئاً دون تلك الأدبية التي نشعر بها في كل صفحة من صفحاتها.

الختام: وبالجملة فقد حاولت أمينة من خلال رحلتها القصيرة أن تسلّط الأضواء الفاضية على ما تتميّز به الهند وأبناؤها كما هي قامت بالموازنة بينها وبين بلدها مصر وأرشدت الناس إلى الصراط السويّ كما هي ترى وتعتقد. وجاءت كل هذه الأشياء بأسلوب أدبي بليغ.

---

[1] المصدر نفسه، ص 104

[2] المصدر نفسه، ص 10

[3] المصدر نفسه، ص 13

[4] المصدر نفسه، ص 14

[5] المصدر نفسه، ص 36

[6] المصدر نفسه، ص 50

[7] المصدر نفسه، ص 81

[8] المصدر نفسه، ص 94

[9] المصدر نفسه، ص 114

[10] المصدر نفسه، ص 137

"مسقط في الأربعينيات من القرن العشرين"

(دراسة تحليلية)

- د. محمد فضل الله شريف

الحمد لله الذي أمر عباده بالسياحة في الأرض لكي يشاهدوا آيات قدرة الله عز وجل، والصلاة والسلام على النبي الأمي الذي أبلغ رسالة الله عز وجل إلى أنحاء البلاد وأرجائها وبثّ روح الإسلام في قلوب المؤمنين في كافة نواحيها.

ومن البلاد التي نالت شهرة عظيمة واسعة عبر العالم في مجال الاقتصاد والتجارة والتراث الإسلامي وتاريخه البديع، عمان ولا سيما عاصمتها مسقط. إنّ موقعها الجغرافي جعلها محط أنظار التجّار ، فلو هي أحيط بها من ثلاث جهات من جبال شاهقة، ولكنها أوجدت لها منفذاً من طريق البحر للاتصال بالعالم، فقامت بدور حيوي من طريق البحر في تنمية التجارة والاقتصاد، وهكذا فبلدة مسقط تتميز بنفسها بخصائص على الرغم من اعتزالها من العالم، وهي تستقل بتاريخها وتراثها، وبيوتها، وأزقتها، وحاراتها، وعادات أهلها، وجعل أحد من أهاليها الدكتور صالح البلوشي تاريخها موضوع نقاشه، فأتى في كتابه حول مسقط وثقافتها بالعجب العجاب، مسمّياً عمله هذا بـ"مسقط في الأربعينات من القرن العشرين".

هذا تأليف مهمّ في تاريخ مسقط ووصف آثارها القديمة، وما تقلّده شعبها من عادات وما احتفلوا به من طقوس في القرن العشرين لا سيما في أربعينياته، وإن مؤلّفه يستحق الشكر والتقدير البالغين من قبل أهاليها والعالم المثقف بأجمعه لأنه حاول من خلال كتابه الوجيز هذا استعادة تاريخ مسقط القديمة، ملقياً الأضواء الكاملة على معالمها وآثارها التي كادت أن تختفي وتندثر بمرور الزمان وتقلب الدهر وصروف الأيام، إنه أورد جميع ما في الكتاب في ضوء شهادات أهلها الذين ولدوا في بحبوحتها، وقضوا حياتهم فيها، وتنقلّوا بين أرجائها

وجوانبها، فعرفوها وفرحوا لفرحها وحزنوا لحزنها. كل ذلك بعبارة أدبية ممتعة سهلة عذبة بحيث يزوّد القارئ المعلومات المهمة ويوفّر له خزانة التاريخ، وهو يساير خلال مطالعة الكتاب مع أهل مسقط حيث ساروا، ويشارك في أفراحهم وأتراحهم، وفي أحزانهم وأشجانهم، وهو يعايش معهم، ويشاهد بعيني رأسه ما تتمتع به بلدة مسقط مما يسرّ به قلبه وترضى به عينه، ويبصر ما تعانيه البلدة من المصاعب والمتاعب وأنواعٍ من المدّ والجزر، وما تصيبها من العراقيل والتحديات، فيحزن بحزنها.

إن مؤلف الكتاب قد أجهد نفسه في البحث عن التاريخ القديم لمسقط وتحدث عن جميع أدوارها وما نالته من النموّ والازدهار، وما عانته من الانحطاط والانخفاض، وجاء بأشياء جديدة لم يكن لها عهد به للمؤرخين، فجزى الله المؤلف على تجشمه هذه المشقات ومكابدته هذه المصائب في إخراج تاريخ مسقط بأسلوب بديع خلّاب يأخذ بمجامع القلوب ويفعمها فرحاً وسروراً.

وللدكتور صالح علاقة بالهند بحيث إنه من المستشارين في "مجلة الهند" الفصلية التي تصدر عن بنغال الغربية تحت إدارة الدكتور أورنك زيب الأعظمي، وهذه هي علاقة الوداد والصداقة التي حثّت المؤلف على أن يسلّم كتابه إلى الدكتور الأعظمي لمراجعته والتقديم عليه، والدكتور الأعظمي من العلماء والباحثين الذين وُفّقوا قدرة فائقة على اللغة العربية السلسلة، وله كتبٌ مترجمة من الأردية إلى العربية، طُبعت مراراً وتكراراً من البلاد العربية، كما نُشر بعضها من الهند، وقد ألقى بنفسه على كواهله مسئولية نقل التراث الأردوي الهندي إلى اللغة العربية، وهو يقوم بهذا العمل العظيم الشاقّ ليل نهار خير قيام وحسن أداء، ومن أعماله المترجمة البارزة "المصادر الهندية للعلوم الإسلامية" لمحمود حسن قيصر الأمروهوي، أبلغ بذلك الكتاب ما قدّمت الهند للحضارة العربية من الخدمات العلمية إلى إخواننا العرب، كما نعلم أن أخانا الأعظمي كاتب إسلامي شهير تنشر مقالاته وبحوثه في المجلات العربية الصادرة من الهند وخارجها ويراه أهل الهند والعرب بعين الاعتبار

والتقدير، ويحترمونه ويبجّلونه، وهو يقوم الآن بعمل جليل، بنقل تفسير "تدبر القرآن" للشيخ أمين أحسن الإصلاحي إلى العربية.

كما حرّر الدكتور الأعظمي كلمات قيّمة في الكتاب باسم "كلمة المراجع" تعرّف الكتاب والجهود المبذولة من قبل المؤلف، علاوة على ذلك ألقى الضوء على محتويات الكتاب بصورة موجزة، كما لعب دوراً ريادياً في طبع هذا السفر القيّم من دلهي، الهند.

محتويات الكتاب:

يحتوي الك4تاب على مائة وثمان وعشرين صفحة، تبتدئ مقدمة المؤلف من الصفحة الخامسة وتنتهي على الصفحة السادسة، يردفها كلمة المراجع وهي تستغرق ست صفحات وبعد ذلك تأتي نوبة أصل الكتاب.

فالباب الأول عن كثافة مسقط السكانية وآثارها التاريخية وقسم المؤلف هذا الباب إلى ثمانية فصول:

فالفصل الأول الذي يغطي ستة صفحات، يبحث عن مسقط وأهلها وعن موقعها الجغرافي وأهميتها على خريطة العالم وإنجازاتها وأعمالها وما قام به أهلها من دورهم في قيادة العالم وسيادته وعن رقعتها وتفاصيل حاراتها وبيوتها من جوانبها المختلفة، وعادات أهلها في اتخاذ الأمكنة ومسيرة حياتهم الاجتماعية، وكيف كانوا يعيشون في القلعة المحاط بها من السور وخارجها، وبيّن خلاله أن حياتهم ساذجة بسيطة خاليةً عن التكلف والرياء والسمعة، وقليل منهم من بنوا بيوتهم من الطين والحصاد والصاروج في داخل القلعة، وأما أغلب البيوت خارج السور فكانت مبنية من سعف النخيل، كما أن أرض مسقط أرض جبلية، لا تصلح للزراعة[1].

[1] مسقط في الأربعينات من القرن العشرين للدكتور صالح البلوشي، روز وردبوكس، نيو دلهي، 2013م، ص 15-20

والفصل الثاني يشرع من الصفحة 21، ويختم على الصفحة 41، و يتحدث عن الخدمات والتسهيلات المختلفة في حياة الإنسان مثل الكهرباء فيقول المؤلف: لم يوجد في الأربعينات من القرن العشرين نظام الكهرباء، عندما تغيب الشمس ويخيّم الظلام على أزقتها فدأب الناس أنهم كانوا يحملون في أيديهم السرج للتجول في الممرات وللإنارة والإضاءة في داخل بيوتهم، وأنهم يلجؤون إلى مراوح يدوية لتخيف شدة الحرارة، وينامون في الليل على سطح البيوت والمنازل.

وأما حال المياه فهي كما كتب المؤلف: هناك نوعان من الآبار، الأولى تصدر مياهاً مالحة تستخدم في الاستحمام أو غسل الملابس والأواني والنوع الثاني من المياه العذبة، ولها آبار خاصة لأشخاص معينة تباع بالثمن، وهي مخصصة للشرب وطبخ الطعام فقط. وأما حال البريد في مسقط فلم يكن نظام البريد منضبطاً كذلك إذا سمع أهلها عن شخص سيسافر إلى عمان فإنهم يجهزون رسائلهم وهداياهم للأهل في الوطن ثم يسلمّونها إليه، وكذا حينما قفل من هناك يصل خبر قدومه إلى أهلها سريعاً، فيسألونه عن الأخبار والأنباء وغير ذلك. علاوة على ذلك أن هناك طريقة ثانية في إرسال البريد حيث أن المرسل يكتب عند موظفي البريد اسم المرسل إليه واسم السوق في مكان كذا، كما جرت العادة أن هناك بعض صناديق خشبية صغيرة للرسائل الواردة في المحل، يوزعها أحد الموظف حسب العناوين المكتوبة، كذلك يأخذ الرسائل الصادرة إن وضع عليها طابع بريدي. وهذا نظام بريدي بريطاني.

وأما صورة البرقية فلم يستخدم نظام البرقيات إلا لارتفاع تكلفته للأمور الضرورية فقط مثل إرسال برقية حول وفاة فرد من أفراد العائلة، أو مواقيت السفر. وكذلك يستخدم نظام الهاتف لارتفاع تكلفته للأمور الملحة فقط. وكذلك المذياع لم ينتشر ولم يعم في أهالي مسقط، وعند أحد من مالك المقهى مذياع وهو يفتحه ويرفع صوته في مقهاه فيسمع زبائنه. وكانت الطرق لم تتوفر لأهاليها لأن مسقط محاط بها بسلسلة من الجبال، وكان البحر هو الطريق الوحيد للوصول والمغادرة من هناك. كما أن نظام السيارات لم يكن يتوفر كثيراً

هناك نظراً إلى محدودية الحركة وانغلاقها جغرافياً، وكذلك أن امتلاك سيارة لم يكن أمراً هيناً نظراً لارتفاع تكلفتها. ولذا عدد السيارات في مسقط وما جاورها كان محدوداً للغاية. وأما حال التعليم في مسقط، فإن هناك نوعين من التعليم؛ تعليم العلوم الشرعية وتعليم العلوم العصرية، وللتعليم الشرعي هناك علماء مشهود لهم بالخير والصلاح، يقومون بتدريس علوم مختلفة مثل العربية وعلوم القرآن والحديث الشريف والتفسير إضافة إلى القراءة والكتابة، بالنسبة لتدريس العلوم العصرية فإن هناك مدرسة أسّست سنة 1940م تعرف بمدرسة السعيدة، تدرس موادّ مختلفة مثل اللغة العربية والتاريخ والجغرافية والحساب واللغة الانجليزية. وأما حال الرعاية الصحية فإن مسقط وأهاليها تتعرض لكثير من الأمراض مثل الملاريا وتسوس الأسنان وتلوث اللثة والإسهال والسل وأمراض العيون، وذلك لتولد الذباب والبعوض بكثرة كاثرة لركود المياه المنتشرة في الأزقة. إن أهل مسقط كانوا يلجؤون إلى الطرق القديمة في المعالجة مثل العلاج بالأعشاب والنباتات، والعلاج بالتجبير عند إصابة كدمة شديدة، وبوظيفة القبالة تقوم النساء العجائز، كما كان هناك علاج روحاني بقراءة آيات من القرآن الكريم، وأخيراً يلجؤون إلى الكي واللسع بالنار، وأما الطب الحديث فلم يعرفه أهل مسقط إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي عن طريق البعثات التبشيرية لعلمهم بحاجة أهلها إلى الدواء والعلاج الملحة. إن في مسقط مستشفى يعاني كثيراً من ضعف أحواله المادية وعدم توفر التسهيلات الضرورية. ألقى المؤلف الضوء على جميع التسهيلات والأمور اللازمة في حياة الإنسان[1].

وقد خصّ المؤلف الفصل الثالث ببيان عادات وتقاليد أهل مسقط، وهو يشير إلى أن هناك عادات تختص بهم مثل أن هناك عادة تعرف من بينهم "ليلة الناصفة من شعبان" بحيث لو كان رجل له أمنية لم تتحقق إلى الآن، فهو يلبس ملابس سوداء لعدم كشف هويته وشخصيته ويدخل في بيت ما من غير استئذان على عادة أهلها، ويمدّ يده لصاحب البيت، فيعطون له ما يتيسر لهم من النقود أو الطعام ثم يدعون له بقولهم "الله يعطيك نواياك"

[1] المصدر نفسه، ص 21-41

و"الله يسهّل أمورك"، كذلك أهل مسقط يستقبلون رمضان بكل حفاوة بالغة، ويحتفلون بعيد الفطر بكل معاني الرغبة والشوق، كما بيّن المؤلف خلال تعرضه عن شهر رمضان، عن المسحراتي الذي يوقظ الناس للسحر وعن أحوال الفصول في رمضان، وكيف كان الناس ينشطون لأداء صلاة العشاء ويغضّ المساجد بالمصلين للتراويح، كما أتى بذكر احتفال الأطفال في ليلة النصف من رمضان "بالقرنقشوه" يأتي الأطفال بحصاتين يضربهما ببعضهما طائفين إلى البيوت، ويقدّم أهلها لهم الحلوى. وكذا أعمالهم في يوم العيد أن أبا الأطفال يجمع عملات نقدية ويضعها في مكان، لما يحلّ يوم العيد يلبسون أفخر الثياب ويصلون صلاة العيد وكذلك النسوة يلبسن أجمل الثياب، ويعدّ الطعام من خبز وسيوية، والأطفال بعد رجوعهم من صلاة العيد يتلقون من آباءهم وأقاربهم وجيرانهم العيدية[1].

وفي الفصل الرابع كشف المؤلف القناع عن بعض معالم مسقط مثل:

(1) بلدية مسقط: أصل مهمة البلدية تنظيف الشوارع والأماكن، وكانت تعمل البلدية جاهدة لإبقاء مسقط نظيفة، وهي لا تزال تؤدي دورها قبل وقوع الحرب العالمية الثانية بسنين طويلة.

(2) مسافر خانه: وقد أعدّها أحد التجار في مسقط من الطين والحصا والصاروج، وأسماها "مسافر خانه" لاستقبال الضيوف والقادمين من خارج السور، هذا المبنى يشتمل على عدة غرف، لكل غرفة باب خاص، وبكل غرفة مساند وفرش للجلوس، من غير دورات المياه، وتوفير الطعام.

(3) جزيرة الدوحة: ومن معالم مسقط جزيرة الدوحة، هذه الجزيرة وإن لم تكن بعيدة عن البر، إلا أنها لم يمكن الوصول إليها إلا بركوب القارب، وكان يعمل أهاليها صيد السمك، ولكن هذه الجزيرة قد تم تهديمها للشارع الذي يصل بين مسقط ومطرح.

(4) المؤسسات التبشيرية: كانت البعثات التبشيرية قصدت إلى مسقط هادفة إلى نشر الدين المسيحي، ولتحقيق أهدافها استخدمت التعليم والصحة المجانية، وقد أدخل بعض أبناء مسقط في مدرستهم، ولكن لم ينجحوا إلى الآن إلى تحويل أحدٍ من أبنائها إلى الدين المسيحي.

---

[1] المصدر نفسه، ص 42-49

(5) المعابد للهندوس: وكان هناك بعض الهندوس يتجرون ببعض المواد الغذائية وبالإقراض مقابل فوائد. إنهم بنوا معابدهم الخاصة بهم.

(6) نادي مقبول (نادي عمان) كان مقبول حسين الباكستاني يعمل كمدير للجمارك افتتح نادياً باسم "نادي مقبول" للعب الهوكي والكريكيت، ثم تغير اسم النادي إلى نادي عمان، وأضيفت ألعاب أخرى.

(7) وكان لمسقط ميناء صغيرة ترد إليها السفن من بلدان نائية[1].

والفصل الخامس يتكلم عن أسواق مسقط القديمة ففي مسقط أسواق عديدة بما فيها "سوق الداخل للباب الصغير" هذه السوق تعرض فيه بضائع مختلفة في مكان واحد مثلاً تباع المواد الغذائية، وأدوات الفلاحة وبعض الأعشاب والأرز والفحم. كما كان هناك سوق أسفل قلعة الميراني لتجارة القشب، بجانب ذلك يباع هناك الملح التي تجلب بالمراكب الخشبية من ماء البحر، كذلك سوق السمك خلف مسجد علي موسى، وانتقل من هناك في الأربعينيات من القرن العشرين بالقرب من حارة الميابين، كذلك سوق الغنم في المنطقة القريبة من بوابة[2].

والفصل السادس ينطق عن الوظائف والمهن التي اختارها أهل مسقط لكسب معيشتهم ولقمة عيشهم، والوظائف منقسمة إلى قسمين؛ (ألف) الوظائف الحكومية وهي قليلة جداً عمل القضاء للفصل بين الناس، وفي الجمارك، والأوقاف وبلدية مسقط، وفي الجيش

(ب) ومن المهن غير الحكومية.

(1) العمل في مواسم الغوص، كان شباب مسقط يذهبون في مواسم الغوص إلى موانيء الخليج العربية ويقومون بأعمال مختلفة مثل السيب (عمل الغوص) والطباخ وغيرها. ولكنهم خلال هذه الفترة المحدودة يدخرون دخلاً كبيراً.

(2) الخياطة: وإن كان أكثر الأقمشة الرجالية والنسائية تستورد من الهند، ولكن هناك بعض الخياطين يخيطون ثياب الرجال، ويكتسبون بذلك.

---

[1] المصدر نفسه، ص 50-55

[2] المصدر نفسه، ص 56-59

(3) النقل البحري: ومن الموارد المالية المهن التي تحكم معيشتهم أن بعض أبناءها كانوا يعملون في النقل البحري.

(4) الزراعة: نظراً إلى جغرافية مسقط محل وقوعها بين الجبال ولقلة المياه تقل الزراعة، ومحصولاتها لا تغطي حاجة السكان.

(5) الرعي: يعمل عدد قليل من أهلها كراعية ماشية.

(6) صيد السمك: وكان صيد السمك من المهن الهامة في جميع المناطق الساحلية بما فيها مسقط، يركبون البحار بالسفن ويصطادون الأسماك بالشبكات.

(7) تنظيف السمك: وكان بعض الناس في المنطقة اختاروا لأنفسهم مهنة تنظيف السمك، بائع السمك يبيع السمك، أما القماطي فهو يزيل عن السمكة القشور والزغائف والذيل والأحشاء والخياشم والأمعاء.

(8) النجار: وكان هناك في مسقط أفراد امتهنوا النجارة كمصدر دخل.

(9) التجارة: وكانت التجارة من أهم الموارد المالية في مسقط لقربها من ميناء، ولكن دورها التجاري اضمحل ولدرجة كبيرة مع اندلاع الحرب العالمية الثانية.

(10) حمل الأمتعة: وكان بعض الناس يعملون كحمّال للمتعة من السفن في الميناء وفي الأسواق مقابل أجرة.

(11) المعالج بالقرآن: بعض الناس كانوا يعالجون بآيات القرآن.

(12) الخباز: كان يعمل بعض الناس كخباز في دكاكينهم.

(13) العمل في البيوت: بعض الأفراد كانوا يعملون في بيوت الميسورين.

(14) غسل الثياب: بعض الأفراد كانوا يغسلون الثياب عند المقتدرة، كما كان هناك محل لغسل الملابس.

(15) كي الملابس: عامة الناس كانوا يرتدون الثياب غير المكوية وأما الموسرون فهم كانوا يكوون ثيابهم عند من يمتهن كي الملابس.

(16) العطار: وهناك في مسقط محلات العطارات تباع فيها الأعشاب والنباتات الزكية الرائحة.

(17) البناء: وكان بعض الناس يعملون البناء.

(18) بائع: الرمل وكان المقاول أو البناوي هم الذين يهيئون الرمل عند الضرورة من أماكن أخرى.

(19) الحجار: وكان بعض الميسورين يستخدمون في بناء البيوت الأحجار، فكان بعض الناس يعملون مهنة الحجار لكسر الأحجار.

(20) الحجام: وكان أغلب أهالي مسقط يعرفون الحجامة، وهي من وسائل الوقاية من الأمراض، وكان هناك حجّام اختار لنفسه مهنة الحجامة.

(21) الحلّاق: وكان بعض الناس يمارسون مهنة الحلّاق جالساً في السوق.

(22) صانع الحلوى: وكان بعض الناس قد توارثوا كابراً عن كابر مهنة صناعة الحلوى.

(23) النسّاج: وكان في مسقط بيت يعرف بنساجة الثياب.

(24) ناقل المياه العذبة: وكانت مهنة نقل المياه موفورة في مسقط حيث كانوا يزوّدون بالمياه العذبة في منازل الطبقة الميسورة.

(25) بائع القهوى: وكان لبعض الناس في مسقط مقاهٍ، وكان يقدّم فيها المشروبات الساخنة مثل الشأي والقهوى.

(26) بائع الأطعمة: وكان أغلبية من باعة الطعام النساء يسعن لزيادة دخل الأسرة.

(27) وقليل منهم من معالج الأسنان، وصانع الفخاريات، والصفار وغير ذلك[1].

والفصل السابع يلقي الضوء على الأسفار والرحلات لأهالي مسقط وكان لهم نوعان من السفر؛ السفر الداخلي في البر، وكان هناك شاحنات للمسافرين ولحمل البضائع، وهي لا تتحرك إلا إذا اكتمل العدد المطلوب، والوسيلة الثانية للسفر إلى البر هي "البدن" أي السفن ترسو في خور مسقط وهي أيضاً تتحرك عند امتلاء المركب بالمسافرين، والوسيلة الثالثة لا يحتملها إلا من له همم قوية، وهي تتمثل بالسير على الأقدام. كما ذكر المؤلف قصة والده للسفر من السيب إلى مسقط في الأربعينيات من القرن الماضي بالمشي على الأقدام.

والنوع الثاني من السفر الخارجي إلى الدول البعيدة كالهند أو دول الخليج العربي، لم يكن السفر إليها سوى السفر عن طريق البحر، وذلك بركوب السفن البريطانية. وكانت هذه السفن تتوقف في الموانيء المختلفة لتعبئة الكمية المطلوبة من الفحم الحجري، ولإنزال البضائع

[1] المصدر نفسه، ص 59-82

وحملها، وكانت هذه السفن لها درجات ثلاثة حسب غلاء الثمن ورخصها مع التسهيلات وعدمها، فقد ناقش المؤلف بالتفصيل كافة الدرجات والتسهيلات والراحات فيها.

والنوع الثالث من السفر وهو الهجرة إلى الخارج، عندما تغيرت الأحوال الاقتصادية مع نشوب الحرب العالمية الثانية، وتعسّر وصول الإمدادات والمواد الغذائية من الخارج، وصعب الحصول على لقمة العيش، جعل الناس يهجرون إلى الخارج طلباً للرزق تاركين ذويهم إلى البلاد النائية[1].

والفصل الثامن يوحي عن أحوال مسقط وأهلها خلال الحرب العالمية الثانية عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية أصحبت معيشة مسقط تنحط إلى درجة الصفر، ركدت السفن التجارية التي تعتمد عليها جل معيشة أهلها، حتى اضطرت الحكومة إلى توزيع المواد الغذائية بنظام الحصص، وازداد الوضع سوءًا مع ازدياد نيران الحرب.

والباب الثاني الأخير يتحدث عن إغراق السفينة النرويجية داهبو في ميناء مسقط صبيحة يوم 28/يونيو 1943م، هي الحادثة والكارثة التي تركت وراءها خسائر ضخمة وتسببت لكثير من المآسي. فبيّن المؤلف بالتفصيل كيفية الإغراق والهجوم عليها، وما أصدره الانفجار من صوت مهيب مريع، وتشققت السفينة النصفين، الجزء الأسفل غرق في الفور وأما الجزء الثاني فقد واجه الغرق بعد ساعات، وما أتلفه من النفوس والبضائع، وأن المؤلف قد قدم إلى القراء خسائر الإغراق لسفينة داهبو بوسائل موثوقة:

"بحيث أصحبت ضحيتها أربعة عشر فرداً من البحارة وإدخال أربعة إلى المستشفى العلاج حيث تم بتر قدم فردين منهم فيما توفي فرد واحد في وقت لاحق، ليرتفع عد القتلى من البحار الهنود إلى 15 فرداً، إضافة لذلك قتل حوالى 30 عاملاً عمانياً صعدوا على متن السفينة لتفريغ جزء من الشحنة ولكن عبد الرشيد أفاد: بأن عدد القتلى من العمانيين وصل إلى 83 فرداً، علاوة على ذلك، فقد ذكر "خسائر الحرب" التي أصدرها شركة لويدز أنه كان

[1] المصدر نفسه، ص 83-93

على متن السفينة وقت إغراقها 59 بحاراً، قتل منهم 15 فرداً، إضافة إلى مقتل 26 من عمال الشحن والتفريغ ووقوع عدة جرحى"[1].

وكذلك يذكر المؤلف ما تركت هذه الحادثة المريعة بين أهالي مسقط من فزع وجزع وهو يقول:

"بالنسبة لأهل مسقط كان الهجوم حدثاً غير مسبوق، وكان وقعة على الجميع شديد الوطئ، فصعقوا من هوله ثم بدأوا يستفيقون من آثاره، كانت ردة الفعل الطبيعية هو التوجه إلى الساحل لرؤية حقيقة صوت ذلك الانفجار الرهيب وأسباب تلك الأمواج العالية، حتى اكتظ بهم الساحل، ..... مع استمرار عمليات الإنقاذ والبحث عن المفقودين زاد النحيب وعلت الأصوات، فهنا امرأة فقدت زوجها، ورجل ابنه، وآخر فقد أخاه أو قريبه أو عزيزه أو حبيبه أو طفل لا يعرف مصير آباه، وفي ذلك الوقت كانت بعض النسوة يبكين لا لشيء إلا للتضامن مع الباكيات"[2].

وما يشتمل عليه الكتاب من مواد جامعة تقدّم صورة كاملة لمسقط وأهلها وأعمالها وطرقها وممراتها وتقاليد أهلها بشيء من البسط والتفصيل، إنه جدير بالمطالعة والدراسة، وأسلوبه الأدبي الجذاب يزيد قيمة الكتاب ويميل القاريء إلى أن يأخذه ويطالعه ويساير في أجواء مسقط ويتماشى معه حيث مشى مؤلفه في أزقته وممراته وبين أهاليه.

[1] المصدر نفسه، ص 116

[2] المصدر نفسه، ص 117

قصة انتحاري

-شيخ سمية تحريم

قدّامي جسدي الخالي من الروح وذلك القفص الذي بقيتُ متقيّدةً فيه منذ 26 سنة فقد مضت مدة غير قصيرة في تكسّر هذا القفص أو تكسيره. ولم تكن الحرية من هذا القفص سهلة كما نظنّ فقد كنت أحبّه حبّاً يرسو أصله لدى كل من يرزق الحياة.

ونعلم أن الكل وجد،

فالأمل وجد واليأس وجد،

وثياب فيها القنوط وجد.

فالظمأ لحق مثل العذاب،

بخلق شواطئ الجسوم،

فخلوده همّ ووجد.

ثم في الفضاء شبه التوحش،

سكوتنا شبه عقاب،

ولكنّ الكلام وجد.

يعلم الناس أن جنازة مهر ستحمل من هنا ولكن لا تحمل جنازتي فحسب بل تحمل جنازة أمانيّ، وآمالي، وأحلامي وليس هذا فقط بل تحمل معها جنازة حسرات أمّي وأمانيّ أبي. ولكن هل هنا أحد يبصر بما يحمل مع هذه الجنازة فيفهم ما حدث فيقول الكل أني ارتكبت الانتحار فيرى البعض أن من نتائج الابتعاد عن الدين أن يتقدّم المرء نحو أشنع جريمة مثل الانتحار الذي حرّمه النبيّ فلنسأل أرباب الدين أولئك: أين غابوا حينما كان الناس

يهزءون بي فكانوا يشيرون إلى مناقص جسدي الذي هو من صنع الله جلّ جلاله فكنت أموت كل يوم. أعرف أن القتل جريمة شنيعة للغاية وهو أشنع من الانتحار ولكنهم لم يمتنعوا عن فعلهم هذا حتى فقدت الصبر على هذه الحياة الشائمة ومن ثم ---.

أبواي البائسان المعصومان اللذان شكرا ربهما على مولدي بما أنه أنعم عليهما ووهبهما سبباً للوصول إلى الجنة ثم سمّياني "مهر" بكل رغبة، ولا أدري ماذا ظنّا حينما سمّياني بهذا الاسم ----ولعلهما كانا على غير علم بأن ظلمة قدر مهرهما هذه ستسلبهما نور أعينهما.

إنهما علّماني علوم الدين والدنيا بكل جهد ومشقة ثم ربّياني تربية جيدة ولما بلغت من عمري حيث تكون البنات على عتبة الأحلام ومن ثم يطير النوم عن أعين الأبوين ولكن أبويّ كانا على طمأنينة فهما كانا على يقين بمستقبلي الزاهر.

ولكن هؤلاء الآباء "البائسون" ينسون ما يتطلبهم الدنيا الحريصة فيرون أولادهم بأعينهم فإن يروا بناتهم بأعين غيرهم فعسى أن يشعروا كم من مناقص فينا. ونفس الخطأ ارتكبه أبواي فهما نسيا أن لوني الأسمر ليس بحسني بل هو أكبر نقص لي فلا تحسن مشيتي ولا تطول أصابعي وأما شفتاي فهما أضخم مما يعتاد.

آه --- فجعلت أشعر كأني شيئ لا فائدة فيه قد عرضه الدكّاني أمام دكانه هزءً به وكتب عليه "افطنوا أين تقع المناقص؟" فكل جاءٍ وآتٍ ينتقدني حسب فكرته وعقله ولكن آرائهم تجمع على أمر واحد وهو "جهيز"[1] --- آنذاك أيقنت أني لست بشئ، إنما أنا صفر فثقافتي العليا ومؤهلاتي العالية لا تفيدني شيئاً ولا تجذبهم سجاياي وما ربّاني أبواي وما ورثتهما من المروءة. فالشيئ الذي يلفت أنظارهم إليّ هو قدرما امتلكه أو يمتلكه أبواي من الأموال، الأمر الذي إذا فقدته تحوّلت كافة محاسني إلى مناقصي ومن ثم أضيف إليّ من المناقص ما ليس فيّ.

[1] جهيز: كل ما يقدّمه أولياء الفتاة إلى الصهر من الأموال والأثاث وما والاهما.

ثم آن ما أبسم أمّي وجعل أبي يفرقع وشعرت بهما فبلغني أني قد قُرّرتُ شخصية مقبولة لدى عشيرة شريفة وعزيزة فهم لم يحرصوا على الجهيز حرصاً ما ولكن تخلّل ثواني تلك المسرّة لمحات قاتلة حينما علمت أنهم لا يطلبون منا سوى أن لا يقتصر أداء تقاليد الزواج فلتؤدّ كافة تقاليد ما قبل الزواج بأحسن طريق بما أنها كانت من العشائر الشريفة والعزيزة --- أنا منها، فأسفاً على هؤلاء الشرفاء المزعومين وقد شهدت أول ما شهدت في حياتي أن أبي تصبّ عيناه الدموع وسمعت أمّي تتنفس الصعداء، آنذاك قال أبي لأمي: "ليتنا لم نثقّف مهر هذه الثقافة بل قد اقتنينا تلك الأموال المصروفة في ثقافتها فلكان لابنتي نصيب آخر غير هذا ---".

فجعل كل حسني يتحوّل إلى نقصي فما وضعته من الأحلام في عيناي وما امتلكته من الأماني في صدري قد ماتت حيث كانت إلا أني لم أقنط من بعدُ.

ولكن كل أمنيتي وحلمي وتمنيتي ماتت في داخلي وأخليت نفسي من الأمل وجعلت قلبي قفراً لا رجاء فيه حينما جاءت عمّتي تخطبني من قبل امرئ قد بلغ من عمره خمساً وأربعين سنة وقد توفّيت زوجته وهو كان يودّ أن يتم النكاح بكل سذاجة وخلوّ من التكلف فلما فارقتنا العمة غلب أبي الهمّ وطرأ قلب أمّي الحزن على أن ابنتهما لا تصلح إلا لهذا؟ فهل الفقر جريمة كهذا؟ فهل نودّع نحن أصحاب الطبقة المتوسطة بناتنا ولا نسئل شيئاً؟

ثم شهدت أن أبي يضمحلّ نور عينيه ورأيت أن وجه أمّي المتخدّد يزول عنه رمق الحياة وشهدت أن أحلامهما تفقد التحقيق ورأيت أن ضوء أمانيهما يلتهب لنهاية الانطفاء آنذاك عزمت على --- وإني أعلم أن الانتحار لا يجوز في الدين ولكن هل أحد يدلّني كيف لابنة أن ترى أباها يحتبس ألماً في كل ثانية من ثواني حياته؟ وكيف لها أن تصبر على أمّها التي ترتدي بالأم وتتأزر وهي تصبّ الدموع الحارة؟ والأحسن من هذا وذلك أن أبتلي نفسي بأشدّ البلاء.

فليتألما مرة واحدة على خلوّ جسدي من الروح على ممات أمانيّ وآمالي وجنازة حسراتهما وآمالهما ولعل هذا أشدّ حزن وأضخم ألم ولكن تتيقّن أن الوقت مرهم ناجح يدمّل الجروح التي تصيب المرء عن طريق الحوادث. إني أتفكّر أني لو حييت لأحيط بهما في ثانية من

عذاب شديد فتزعجهما فكرتهما عن ابنتهما العذراء ولا يتركهما فهرس الجهيز وأشباهه حيّين. في قديم الزمان كانت البنات يوأدن واليوم هنّ أيضاً يوأدن والفرق بينهما ليس إلا أنه في قديم الزمان كان الوالد يقوم بنفسه بهذا العمل واليوم يقوم به المجتمع الحريص.

إني أودّع هذه الدنيا --- ولكني أقول قبل أن أغادرها: اليوم اتخذت مهرٌ خطوة نهائية من حياتها لا يسيغها الدين ولكنه إذا لم تتوقف خطواتهم المتقدّمة نحو الحرص والشح فعسى أن تولد مهرات لا تحصى من نسلهم فجزاء الأعمال واقع لا ينكر.

فأوقفوا خطواتكم المتقدّمة فهناك العديد من المهرات اللائي جعل نور أعينهنّ يضعف وجعلت أحلامهنّ تفقد التحقيق فقوموا وأسرعوا واعتنقوهنّ وحقّقوا أحلامهنّ وكرّموهنّ ولا تقدّروهنّ بالمال والجهيز.

فالثورة تدقّ بابكم فأصلحوا إذا فسد فيكم فإنكم خير أمة أخرجت لإصلاح الأمم الأخرى فأدّوا واجبكم هذا ---وادعوا الله لي خيراً.

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

الشاه عبد العزيز الدهلوي:

سلامٌ على مولى الجسيمِ الفضائلِ ... كريمِ الورَى حاديْ فنونِ الفواضلِ

حمـــــــاه إلهُ العـالمينَ عن الأذى ... وعنْ كلّ شـــــــرٍّ فيْ الخليـقةِ نازلِ

وبعدُ فإنّ العبـــــــــدَ يحمـدُ ربّه ... على ما حمـاه عنْ صنوفِ الغوايلِ

لأغـدوْ وأثوابُ النعيـــــمِ ملابسيْ ... وأمسيْ وأيـديْ الطيبـاتِ حمـــائلِ

ولكنْ أرَى الكفّـــــــارَ أربابَ ثروةٍ ... لقـد أفســـدوا ما بينَ دهليْ وكابلِ

ولقد رفع الأشـــــــرارُ فوقَ خيارنا ... وكلّ أمـــر أشـــــــــرّ يلحّ بالثناظلِ

جزَى الله عنا قـــومَ سكه ومرهتٍ ... عقوبةَ شـرٍّ عاجـــــــــلاً غيـرَ آجلِ

فقد قتلوا جمعاً كثـيراً من الورَى ... وقد أوجعوا فيْ أهــلِ شـاءٍ وجاهلِ

هم كلّ عام نهـــــــــــبه في بلادنا ... يخوضونَ فينا بالضـــح والأصائلِ

لقد فسدتْ هذه الديارُ وقد خلتْ ... عن العـدلِ حتى قلتُ بل كلّ قائلِ

فهلْ بعـدَ هذا منْ معـــــاذٍ لعـائذٍ ... وهلْ منْ مغيثٍ يتقـــى الله عادلِ

الشيخ أحمد الشرواني:

وإلى إمـام الكل صـــدر الكرام ... من بعد بعـــــــد أزعج المستهام

لله يوم فـــــــــيه ســـرّت به ... قلتوب أهل الفضل والاحتـــرام

يا مخـبري عـنه وعن وصـــــله ... شـنفت سمعي بلذيـــــــذ الكلام

بالله زدني من حـديث بـــــــه ... أصبحت نشـــواناً كحاسي المدام

من لي بمن قاسيت من هجره ... شـوقاً جـــرى في مهجتي والعظام

الجهبذ الغطـــريف ربّ العلى ... ابن علي الحبـر عالي المقـــــــــام

لا زال في خـــــــير وفي رفـعة ... تسمو على السبع الطباق الفخام

هل تذكرن العهـد يا من له ... قلبي محلّ أم أضعت الذمـــام

اذكر زماناً كنت لي وامقـــاً ... فيه فإني ذاكر والســـــــــلام

أبو سلمى محمد جمال الدين:

حصلت على مرقـومكم إذ أتانيا ... فأسبل دمعي بعض ما كان حاويا

ومذ ذقت مرّ البين أيام بينـكم ... أبيت أذوق الوصـــل منكم ليـاليا

وحمى أبي ليـــلى أذابت حرورها ... لحاظي أبي ســـلمى فكانت بكاليا

ولو أنني من ذلك الدمـــع كاتبا ... سطوراً لكان الخط يحمـر داميا

أخلاي قد قدمتموني قصيـــدة ... نعتني وكانت عند نظـــري مراثيا

قلائـد لو أن امـــرأ القيس نالها ... لطوقها ألفاظها والمعـــــــــانيا

بنات يراع الشاعر الماهـــر الذي ... غدا بالغات الشرق والغرب داريا

أديب سليقي بديع زمـــــــــانه ... يحـوك بيمـــــناه النظام اللئـاليا

معـزّ بفـيه من يشـــــــــأ ومذلل ... بأسنى أساليب الهجـــاء المعاديا

فقد يجعل الضرغام بالذم قطة ... وقد يجعـل الخفاش بالمدح بازيا

الشيخ محمد عباس:

بـــدر تمّ طلـــــــــعا ... أم نجـم صـــبح لمعا

أم فاح نشـر العنبري ... أم لاح نجـم المشـتري

لا بل كتـــاب الألمعي ... الوعـــــوعي البلتـعي

الأريحـي اللوذعـــــي ... وافى إلى الصبّ الجلي

ألفاظـه جواهـــــــر ... مضمـونه زواهـــــر

سطـــــوره حـدائق حروفه شقـــــــــائق

أوانــه خـــــــــريـدة في حسـنها فريـــــدة

يسبـي العقـول دلّها كل الأنـــــــام خلّهـا

عينـاه سحـــر مؤثر والخـــدّ ورد أزهـــــر

يا أحسـن الخـلائق اســمـع كلام التـــائق

طرفي بهـجـرك باكي والقلب منك شـــاكي

في كل حـال سيدي وصل الحبيب مقصدي

إني سمعــت يا فتى إنّ أخيـك في الشـــتا

قد ســار مــن دياره وجـــــــــــاره وداره

إلى الطواف بالحـــرم ذي المجـد والعـز الأتم

ولشم قبـر المصطـفى بدرالدجى شمس الضحى

فاسئـل الله الأحـــد الواحـد الفرد الصمد

أن يجـعـل الخير له في ذلك الســـــــير له

أنزلت في عيـش هني ذي رغـد واف ســـني

تـم كلام الدامـــــق خلّ صـدود عاشـــق

المساهمون في هذا العدد

1. أبو سلمى محمد جمال الدين، (ت1385هـ) من علماء كيرالا السلفيين وأدبائها الكبار. كان قد وفّق القريض فقال القصائد في المدح والمراثي كما كتب رسائل منظومة.
2. البروفيسور احتشام أحمد الندوي، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها الأسبق، جامعة كاليكوت، كيرالا
3. البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي (ولد في 1942م) عميد سابق لكلية التاريخ الطبي بجامعة همدرد. إنه كاتب و خطيب رائع .له خدمات جليلة في الدراسات الإسلامية الطب اليوناني. من أبرز أعماله "توحيد كا قرآني تصور" (التصور القرآني للتوحيد) و"إيمان كا قرآني تصور" (التصور القرآني للإيمان) و"سوره فاتحة ايك تحقيقي مطالعه" (سورة الفاتحة، بحث علمي) و"فلسفة وحدة الوجود، ايك غير اسلامي نظرية" (فلسفة وحدة الوجود، وجهة نظر غير اسلامية) و"تين أهم إسلامي جماعتين، ايك تنقيدي مطالعه" (الجماعات الثلاث الإسلامية المهمة، دراسة ونقد) و"مولانا آزاد كا قرآني فهم" (مدى فهم المولانا آزاد للقرآن الكريم) و"تاريخ طب وأطباء دور مغليه" (تاريخ الطب والأطباء في عهد المغول) و"معالجات أمراض الرأس" و"مباديات طب بر إيك تحقيقي نظر" (مبادى الطب، دراسة ونقد). إن أسلوبه في التأليف والخطابة مقنع للغاية.
4. الدكتور أشرف أحمد محمد عماشة، مدرّس، قسم العقيدة والفلسفة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، دمياط الجديدة، جامعة الأزهر، مصر
5. الدكتور أورنك زيب الأعظمي، مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغات العربية والفارسية والأردوية والدراسات الإسلامية، باشا-بافانا، فيسفا-باراتي، شانتينيكيتان، بنغال الغربية، الهند

6. الدكتور سند أحمد عبد الفتاح، أستاذ مشارك، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر
7. الدكتور محمد فضل الله شريف، كلية إيه كي إيم الشرقية، حيدراباد، الهند
8. رضوان أحمد نور محمد، باحث، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جوهر لعل نهرو، نيو دلهي، الهند
9. الشاه عبد العزيز الدهلوي، (ت1239هـ) بن الشاه ولي الله الدهلوي من أبرز أساتذة زمنه في العلوم والفنون لاسيما القرآن والحديث والأدب العربي، له مؤلفات ورسائل في هذه العلوم كما قال قصائد عربية خالصة.
10. الشيخ أحمد الشرواني، من شعراء العربية الهنود، لم نجد عنه شيئاً يذكر.
11. الشيخ أمين أحسن الإصلاحي من علماء الهند والباكستان المشهورين، من أهمّ مؤلفاته "تفسير تدبر قرآن" و"حقيقة توحيد وشرك" و"حقيقة نماز" (حقيقة الصلاة) و"تزكية نفس" (تزكية النفس) و"إسلامي رياست" (تصور الدولة الإسلامية). كان عالماً كبيراً أنفق كافة أوقاته في التحرير والخطابة.
12. الشيخ بدر جمال الإصلاحي، أستاذ اللغة العربية وآدابها، مدرسة الإصلاح، سرائ مير، أعظم كره، ولاية أوترابراديش، الهند
13. شيخ سمية تسنيم، كاتب القصص القصيرة باللغة الأردوية
14. الشيخ محمد عباس، من شعراء العربية الهنود له كتاب "زينة الإنشاء". لم نجد عنه شيئاً يذكر.
15. صاحب عالم الأعظمي الندوي، باحث، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، مصر